دراسه تحليله
فى السيره النبويه
عصرها قبل الهجره

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة تحليلة فى السيرة النبوية عصرها قبل الهجره

كاتب:

عباس زريابخويى

نشرت فى الطباعة:

الغدير

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
دراسة تحليلة فی السيرة النبوية عصرها قبل الهجره ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
تقديم ----- ۱۲
مقدمة المترجم ----- ۱۳
المقدمة المولف ----- ۱۶
القرآن و سيرة الرسول ----- ۱۸
الجزيرة العربية قبل الاسلام ----- ۲۱
اشاره ----- ۲۱
النظام القبلی ----- ۲۲
اهمية النسب داخل القبيلة ----- ۲۲
حقيقة النسب ----- ۲۳
الحلف ----- ۲۳
الجوار ----- ۲۳
الولاء ----- ۲۳
الاستلحاق ----- ۲۴
الخلع ----- ۲۴
اهمية انساب القبائل فی تاريخ الاسلام ----- ۲۴
اقسام الطوائف ----- ۲۵
اليمانی والنزاری او القحطانی و العدنانی ----- ۲۵
تدوين الانساب ----- ۲۷
مكة قبل الاسلام ----- ۲۷
واد غير ذی زرع ----- ۲۷

الکعبة اول بیت ۲۸
فیه آیات بینات ۲۸
مکة تصبح مدینة ۲۹
قریش فی مکة ۳۰
مکانة قبیلة قریش ۳۰
تسلط قریش علی مکة ۳۱
نمو قدرة قریش وسیطرتها علی مکة ۳۲
اعمال قصی فی مکة ۳۳
اسکان قریش ۳۳
قطع الاشجار ۳۳
تاسیس دار الندوة ۳۴
وضع الضرائب ۳۴
مناصب الحج ۳۴
المسؤولیات و المناصب الأخری ۳۵
تغیر الوضع الاقتصادی فی مکة ۳۵
تجارة قریش مع الخارج ۳۷
حملة ابرهة علی مکة ۳۷
القرآن الکریم و اصحاب الفیل ۳۸
لایلاف قریش ۳۹
الاختلافات داخل قریش ۳۹
حلف المطیبین ولعقة الدم ۴۰
عبد المطلب ۴۱
اشاره ۴۱
اعمال عبد المطلب ۴۱

نذر عبد المطلب ----- ۴۲
حلف خزاعة مع عبد المطلب ----- ۴۳
اصناف قریش ----- ۴۳
الاحابیش ----- ۴۳
الحیاة المعنویة والاجتماعیة فی مکة ----- ۴۴
اشاره ----- ۴۴
الحج و العمرة ----- ۴۷
سوق عکاظ ----- ۴۹
ایام الحج ----- ۴۹
ادیان اخری فی مکة ----- ۵۱
مراسم الزواج ----- ۵۲
المساعاة ----- ۵۳
الشغار ----- ۵۴
البحیرة و السائبة و الوصیلة و الحامی ----- ۵۴
الازلام ----- ۵۵
المیسر ----- ۵۵
الکهانة ----- ۵۵
الحنفاء و الحنیفیة ----- ۵۶
قضاة العرب ----- ۵۸
الجاهلیة ----- ۵۹
سیرة الرسول من الولادة حتی البعثة ----- ۵۹
الطبیعة المجتمع الاجاهلی الذی ولد فیه الرسول ----- ۵۹
مولد الرسول ----- ۶۰
مصادر سیرة الرسول قبل البعثة ----- ۶۱

وفاة عبداللّه و مرحلة الرضاعة ----- ۶۲
غسل القلب و تطهیره ----- ۶۲
وفاة آمنة و عبد المطلب ----- ۶۳
عنایة ابی طالب برسول اللّه ----- ۶۳
قصة بحیرا ----- ۶۳
ایام الفجار و مشارکة الرسول فیها ----- ۶۳
حلف الفضول و مشارکة الرسول فیه ----- ۶۴
الزواج من خدیجة ----- ۶۵
اولاد الرسول من خدیجة ----- ۶۶
مشارکة الرسول فی ترمیم الکعبة ----- ۶۶
سیرة الرسول من البعثة حتی الهجرة ----- ۶۷
موقف الرسول من عقائد وعادات قومه قبل البعثة ----- ۶۷
التحنث فی غار حراء ----- ۶۸
خلق العالم و خلق الانسان ----- ۷۲
کیفیة الوحی ----- ۷۲
یا ایها المدثر ----- ۷۳
المسلمون الاوائل ----- ۷۳
علی بن ابی طالب ----- ۷۳
زید بن حارثة المعروف بزید الحب ----- ۷۴
ابوبکر بن ابی قحافة ----- ۷۵
الدعوة السریة و الدعوة العلنیة ----- ۷۵
روایة ابن اسحاق ----- ۷۵
اعتراض علی روایة ابن اسحاق ----- ۷۵
تایید للنقد الثانی ----- ۷۶

احداث الرجال و ضعفاء الناس ۷۶
الضعفاء و المستضعفون ۷۷
اکثر المسلمین الاوائل من الفقراء و المستضعفین ۷۷
اسماء المستضعفین طبقا لما اورده البلاذری ۷۷
اشاره ۷۸
عمار بن یاسر ۷۸
خباب بن الارت ۷۸
صهیب بن سنان ۷۹
بلال بن رباح ۷۹
عامر بن فهیرة ۸۰
ابوفکیهة ۸۱
النساء المستضعفات ۸۱
الذین ارتابوا فی دین آبائهم قبل الاسلام ۸۱
اشاره ۸۱
عبیداللّه بن جحش ۸۱
عمرو بن عبسة ۸۱
ابوذر الغفاری ۸۲
عثمان بن مظعون ۸۳
سعید بن زید بن عمرو بن نفیل ۸۳
اشهر اعداء الرسول فی مکة ۸۴
اشاره ۸۴
ابوجهل ۸۴
الولید بن المغیرة ۸۶
ابواحیحة سعید بن العاص بن امیة ۸۷

الحکم بن ابی العاص بن امیة وعقبة بن ابی معیط ----- ۸۷
النضر بن الحارث ----- ۸۸
العاص بن وائل و منبه بن الحجاج و نبیه بن الحجاج السهمی ----- ۹۰
امیة بن خلف الجمحی ----- ۹۱
ابوعزة عمرو بن عبداللّه الجمحی ----- ۹۱
ابوسفیان ----- ۹۱
ابولهب ----- ۹۱
کیفیة الدعوة ----- ۹۲
اشاره ----- ۹۲
فاصدع بما تؤمر ----- ۹۲
و انذر عشیرتک الاقربین ----- ۹۲
بدایة معارضة قریش ----- ۹۳
اشاره ----- ۹۳
السبب الحقیقی لمعارضة قریش ----- ۹۳
الانذار ----- ۹۴
الاستهزاء ----- ۹۵
رد فعل قریش ----- ۹۵
روایة عروة بن الزبیر ----- ۹۷
قریش تناظر و تطلب الدلائل و المعجزات ----- ۹۷
ذیل روایة عروة بن الزبیر ----- ۹۸
الهجرة الی الحبشة و اسبابها ----- ۹۸
اشاره ----- ۹۸
الهجرة الی الحبشة ----- ۱۰۰
سبب الهجرة ----- ۱۰۱

قصة السجدة و الغرانيق ----- ۱۰۲
اشاره ----- ۱۰۲
نقد قصة الغرانيق ----- ۱۰۳
قريش تتابع المهاجرين الى الحبشة ----- ۱۰۵
عودة المهاجرين ----- ۱۰۷
ما قامت به قريش ضد الرسول ----- ۱۰۸
اسلام حمزة بن عبد المطلب ----- ۱۰۸
اسلام عمر بن الخطاب ----- ۱۰۹
محاصرة بنى هاشم اجتماعيا و اقتصاديا ----- ۱۱۰
نقض الصحيفة ----- ۱۱۲
وفاة خديجة و ابى طالب ----- ۱۱۳
اسلام ابى طالب ----- ۱۱۳
السفر الى الطائف ----- ۱۱۴
الرسول يعرض دعوته على القبائل ----- ۱۱۵
پاورقی ----- ۱۱۶
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۲۶

دراسة تحليلة فى السيرة النبوية عصرها قبل الهجره

اشارة

سرشناسه : زرياب خوئى عباس ۱۳۷۳ - ۱۲۹۷

عنوان و نام پديدآور : دراسة تحليلية فى السيرة النبوية عصرها قبل الهجره تاليف عباس زرياب خويى ترجمه على السيدهادى

مشخصات نشر : بيروت : الغدير، ۱۴۱۷ق = ۱۹۹۷م = ۱۳۷۶.

مشخصات ظاهرى : ص ۲۷۷

وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى يادداشت : عنوان اصلى سيره رسول‌الله

يادداشت : كتابنامه ص ۲۷۱ - ۲۷۰؛ همچنين به‌صورت زيرنويس موضوع : محمد (ص ، پيامبر اسلام ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق -- سرگذشتنامه موضوع : اسلام -- تاريخ -- از آغاز تا ق۱۱

شناسه افزوده : هادى على سيد، مترجم رده بندى كنگره : BP۲۲/۹/ز۴س۹۰۴۳ ۱۳۷۶

شماره كتابشناسى ملى : م۸۱-۲۳۲۲۰

تقديم

عصر ما قبل الهبرةيبحث المؤلف، فى هذا الكتاب، فى «سيرة رسول اللّه (ص) من الولادة حتى البعثة». ويعنى بالجانب التاريخى من‌الموضوع فحسب، فيحقق الوقائع، ويبين صحة وقوعهاوشروطها وملابساتها واسبابها. ولا يخفى ان المكتبة الاسلامية بامس الحاجة الى كتاب من‌هذا النوع، وذلك يعود الى امرين: اولهما: ان المؤلفات الاسلامية فى السيرة، كما يقول ابن‌خلدون، «لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤلفين و المفسرين وائمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وسمينا، ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر و البصيرة فى الاخبار فضلوا عن الحق و تاهوا فى بيداء الوهم و الغلط. وثانيهما: ان المؤلفات التى صنفها المستشرقون كان الغرض منها تلبية رغبات اقوامهم واهل ديانتهم، فجاءت لتلبى هذه الاغراض التى جعلتهم غير محايدين، فحرفوا الوقائع والاحداث، وراوا اليها من المنظور الذى يخدمهم ويضرب الاسلام، اضافة الى انهم ينفون الجانب الغيبى وينكرون جميع ما وراء المادة والحس. يحاول المؤلف، وهو يعى هذين الامرين، ان يفيدن ايجابيات المنهجين فى الوقت الذى يتجنب فيه سلبياتهما. وقد اتبع بغية تحقيق ذلك منهجا موضوعيا يرى الى الاحداث التاريخية فى سياقها التاريخى، فيرصد الظواهر التاريخية، ويتبينها ويصفها، وينفذ الى جوهرها، فيعرف حقائقها واسبابها الحقيقية، ويقدمها الى القارىء باسلوب سهل واضح. ويبدو انه استخدم ما يمكن ان نسميه «المنهج الاجتماعى النفسى» الذى يركز على معرفة الظروف الاجتماعية والشخصية التى اسهمت فى نشوء الظاهرة وتكونها وتبلورها، ثم يبحث فى تلك الظاهرة نفسها، فيقدم بذلك معرفة تاريخية تلبى الحاجة الى التحقيق والضبط وحسن الفهم. وقد توافرت فى المؤلف الصفات التى يحتاجها هذا النوع من البحث فهو استاذ متمرس درس تاريخ الاسلام وسيرة النبى الاكرم (ص) عدة سنين فى جامعة طهران، وقد مكنته خبرته الواسعة فى معرفة المجتمع الجاهلى ومجتمع صدر الاسلام من الغوص مع الاحداث الى اسسها، فقدم للكتاب مبينا مشروعيته ومنهجه، ومهد لموضوعه ببحث ثلاث قضايا هى: الجزيرة العربية قبل الاسلام، وقريش فى مكة، والحياة الاجتماعية فى مكة، ثم بحث فى الموضوع الاساسى وهو سيرة الرسول من الولادة حتى البعثة. وقد توخى المترجم الامانة والدقة فى نقل المادة الى اللغة العربية، اضافة الى العناية بسلامة اللغة وجمالها ومراعاتها اساليب اللغة التى ينقل اليها. وان كان المؤلف قد انتهى الى نتائج لا يوافقه عليها، فانه اكتفى بالاشارة الى ذلك بتعليقات موجزة فى الهامش. ويسر مركز الغدير ان يقدم هذا الكتاب

القيم الى قرائه آملا ان يكون قد قام بما يخدم ديننا الحنيف ونبيه الكريم (ص) مركز الغدير للدراسات الاسلامية بيروت.

مقدمة المترجم

والحمدللّه رب العالمين، والصلاة والسلام على صفوة خلقه وامين وحيه وحجته على خلقه الذى بعثه رحمة للعالمين ليخرجهم من ظلمات الجهل الى نور العلم ومن حضيض الارض الى آفاق السماء، ثم الصلاة والسلام على اهل بيته وحملة امانته ومستودع علمه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين. وبعد فاننا يمكن ان نحصر الدراسات التى كتبت حول السيرة النبوية فى طائفتين رئيسيتين: الاولى: فى فقة السيرة. والثانية: فى توثيقها. ونعنى بفقه السيرة التدبر فى احداثها و وقائعها والتامل فى كل ناحية من نواحيها. لناخذ منها الدرس والعبرة. ونجعلها تشع فى حياتنا بكل ابعادها سياسية واجتماعية واقتصادية. لقد كانت السيرة النبوية تجسيدا علميا معصوما للاسلام وتطبيقا لتعاليمه السامية فى انقى صورها واطهر معانيها. وتستهدف الدراسات فى هذا الحقل، تفجير تلك المعانى واستنطاق الوقائع والمواقف النبوية لتزهو بها حياتنا ويخضر مايبس من عروقها وجف. ولا شك ان الحبث فى هذا الباب لايتسق، ويستقيم الا اذا حسم الامر فى ركنين سابقين يشكلان معا القاعدة التى تستند اليها هذه الدراسات: الاول: حجية السيرة وما فيها من قوة الزامية وطاقة تنجزية وهذا ما تعهد به علم الاصول، بل وعلم الكلام حتى اصبحت امر بديهيا لا تجد بين المسلمين من يناقش فيه ايا كان مذهبه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا). الثانى: توثيق السيرة، وهذا بحث تاريخى مجاله علم التاريخ، وقد عنى به المسلمون عناية فائقة حتى انهم جاوزوا فيه غيرهممن الاممم وقد توزعت اعمالهم فى هذا المجال على محورين رئيسين: ۱ الاعمال التى كان غرضها الاساس حفظ السيرة من الضياع وتسجيل وقائعها قبل ان يطويها النسيان. ولما كان هذا الغرض نصب اعين المحدثين والمؤرخين فقد شغلهم عن غيره وانطلقوا يسجلون كل ما مت الى النبى (ص) بصلة من قول اوفعل. واكتفوا من التثبت من صحة الخبر والحادثة، باثبات السند فحسب. يقول الطبرى فى مقدمة: مما يكن فى كتابى هذامن خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه ان يستشنعه سامعه من اجل انه لم يعرف له وجها صحيحا، ولامعنى فى الحقيقة فليفهم انه لم يؤت فى ذلك من قبلنا وانما اتى من بعض ناقليه الينا، وانما ادينا ذلك على نحو ما ادى الينا». ولو جزنا الطبرى وتوغلنا ابعد فى عمق التاريخ لوجدنا الجيل الاول من كتاب السيرة امثال عروة بن الزبير (۹۴ ه) وابان بنعثمان بن عفان (۱۰۵ ه) ووهب بن منبه (۱۱۰ ه) وكذلك الجيل الثانى والثالث كابن شهاب الزهرى (۱۲۴ ه) وموسى بن عقبة (۱۴۱ ه) ومحمد بن اسحاق (۱۵۲ ه) والواقدى (۲۰۷ه) لوجدنا هم جميعا قد جروا على نفس المنوال واثبتوا الغث والسمين هذا ان لم يتزيدوا هم من عند انفسهم فى اضافة شىء غريب او اسقاط آخر اصيل لهذا كان من الطبيعى جداان تجد الراوى ياتى بالروايات المتعارضه عن الواقعة الواحدة بحيث يستحيل ان تصح معا، دون ان كيلف نفسه عناء الموازنة بينها او ترجيح بعضها على بعض. ولم تكن هذه سنة المؤرخين وحدهم بل والمحدثين كذلك. وهذا ما اشار اليه ابن حجر بقوله: «ان الحفاظ يعتمدون فى روايتهم على الاحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الاسانيد، لاعتقادهم انهم متى اوردوا الحديث باسناده فقد برئوا من عهدته واسندوا امره الى النظر فى اسناده». ۲ ولما اكتملت المادة التاريخية للاجيال التالية واستوى للمتاخرين ما جمع المتقدمون، جاءت فكرة النقد والتعليق، وكان ابن هشام، من اوائل الذين مارسوا هذا العمل، وتوالت الاعمال بعده تباعا. لقد ظهر ابن هشام فى عصر كانت الرواية الشفهية قد تراجعت فيه وانحسر دورها الى حد ما. فقد اثقلت الذاكرة العربيه آنذاك وكان عليها ان تحفظ اضافة الى ما توارثته من اخبار العرب احاديث النبى واحداث السيرة ووقائعها. لكن ذلك لم يحطمن شان الرواية الشفهية ولم يزعزع من مكانتها الموروثة اداة اولى فى النقل المامون والتوثيق المعتبر فرغم ظهور الكتب وانتشارها كان من الصعوبة بمكان التمييز بين المؤلف الذى قصد ان تروى مادته والمؤلف الذى دونها. وظلت الكتابة تزداد اهمية خصوصا فى مجال السيرة كلما ابتعد بالناس الزمن عن الصدر الاول وجفت منابع السيرة الاساسية المتمثلة فى المشاهدة العينية والمصاحبة اليوميةهه لصاحب السرة (ص). وحين فتح ابن هش ام عينيه على الدنيا كان بينه وبين الصدرالاول بطنان او ثلاثة بطون مما منحه حرية اكثر فى التصرف

والاضافة والحذف. فلم يكن مجرد راو لسيرة ابن اسحاق التى سمعها من زياد البكائى (۱۸۳ ه) بل كثيرا ما اضاف اليها اشياء لم يذكرها ابن اسحاق واسقط امورا اخرى اثبتها الاخير. وقد اوضح ابن هشام منهجه فى نقده لسيرة بن اسحاق بقوله: «وانا ان شاء اللّه مبتدىء هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول اللّه من ولده واولادهم لاصلابهم، الاول فالاول، من اسماعيل الى رسول اللّه (ص)، وما يعرض من حديثهم وتارك ذكر غيرهم من ولد اسماعيل، على هذه الجهة للاختصار، الى حديث سيرة رسول اللّه (ص) وتارك بعض ما يذكره ابن‌اسحاق فى هذا الكتاب، مما ليس لرسول اللّه (ص) فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شىء، وليس شيئا لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، واشعارا ذكرها لم ار احدا من اهل العلم بالشعر يعرفها واشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته ومستقص ان شاء اللّه تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به». وصارت سيرة ابن هشام هذه فيما بعد محورا لاعمال كثيرة تناولتها بالشرح والتعليق حينا والنقد والاختصار حينا آخر منهاعلى سبيل المثال كتاب (الروض الانف) لعبد الرحمن السهيلى (۵۸۱ ه) فكان يتعقب ابن اسحاق وابن هشام بالتحرير والضبط حينا، وبالشرح والزيادة حينا آخر. ثم كتاب (الذخيرة فى مختصر السيرة) الذى فرغ منه مؤلفة برهان الدين ابراهيم بن محمد الشافعى سنة (۶۱۱ ه) وبعد هذا بقرن ظهر كتاب (مختصر سيرة ابن هشام) لعماد الدين ابوالعباس الواسطى وكان اختصارا فحسب. وشيئا فشيئا تنبه المؤرخون المسلمون ومنهم كتاب السيرة آالى ضرورة الالتفات بالنقد والتمحيص الى جانب آخر من المادة التاريخية ذلك هو موضوع هذه المادة والمسالة التى تعالجها. بعبارة اخرى تجاوز سند الخبر الى متنه والعبور من مسالة ضبطه وتحريره الى الموضوع الذى يعالجه والاحداث الذى تكتنفه، فقد كتب النويرى (۷۳۲ ه) فى موسوعته (نهايةالارب) قائلا: «واما من ينسخ التاريخ فانه يحتاج الى معرفة اسماء الملوك والقابهم ولغاتهم وكناهم.. وكذلك اسماء المدن والبلاد والقرى والقلاع والرساتيق والكور والاقاليم». فلكى يكون الراوى دقيقا فيما ينقل من مادة تاريخية عليه من الان فصاعدا ان يكون اضافة الى وثاقته ذو خبرة بموضوع مادته لاتشتبه عليه الالفاظ ولا تختلط عليه الاماكن والاسماء والوقائع. وتطور هذا النوع من النقد ليبلغ اعلى درجات نضجه على يد المؤرخ ابن خلدون (۸۰۸ ه) الذى بلغ اهتمامه بهذا الجانب ان قدمه على الجانب الاخر فصار عنده نقد الخبر من الداخل اهم من نقده من الخارج. ولم يشا ان يترك ذلك دون ان يضع له قواعد واضحة وضوابط عامة بينها بقوله: «لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل لم تحكم فيها اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال فى الاجتماع الانسانى، ولاقيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق. وكثيرا ما وقع للمؤلفين والمفسرين وائمة النقل المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا او سمينا، ولم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها باشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط». وبعد ان يورد ابن خلدون شواهد عديدة على هذه الاشتباهات يختم كلامه بتقرير يقول فيه: «فاذن يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق او ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف، والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها. واسباب حدوثها ودواعى كونها واحوال القائمين بها واخبارهم، حتى يكون مستوعب الاسباب كل حادث واقفا على اصول كل خبر. وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده فى القواعد والاصول فان وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا والا زيفه واستغنى عنه. وما استكبر القدماء علم التاريخ الا لذلك حتى انتحله الطبرى والبخارى وابن اسحاق من قبلهما وامثالهم من علماء الامة، وقد ذهل الكثير عن هذا السر فيه». وبهذا انفتح امام المحققين باب واسع من ابواب التاريخ واصبحت المادة التاريخية برمتها موضعا للفحص والمناقشة ومعرفة صدقها او كذبها من طريق آخر غير تعديل الراوى اوجرحه. ولعل من الاسباب التى صرفت المؤرخين المسلمين‌عن الاهتمام بهذا الجانب من النقد فى وقت مبكر هو طبيعة الدوافع التى حفزتهم على كتابة التاريخ. لقد كانت فى اغلب الاحيان حوافز دينية بحيث يمكننا القول ان منا شىء

التاريخ الاسلامى كانت منا شيء دينية، بل ان التاريخ كله قد ولجه المسلمون من باب الحديث. فكان المحدث هو الاخبارى نفسه الى ان انفصلت الشخصيتان وصار الاخبارى غير المحدث لكنه بقى ادنى منه مرتبة واقل قدرا. كان (الاسناد) اى تتبع سلسلة الرواة هو موضع اهتمام المحدث والغاية التى ينشدها فى جهده وعمله وحين يصح الحديث بتعديل رواته وتوثيق ضبطه وتحريره لايبقى الا العمل به وليس هناك من مسوغ لمناقشة المتن وتطبيق القواعد المعروفة عليه. وهذا ما اشار اليه ابن خلدون فى مقدمته قائلا: «انما كان التعديل والتجريح هو المعتبر فى صحة الاخبار الشرعية لان معظمها تكاليف انشائية اوجب الشارع العمل بها (متى) حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة العدالة والضبط. اما الاخبار عن والواقعات فلابد فى صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فلذلك وجب ان ينظر فى امكان وقوعه وصار فيها ذلك اهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط. وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان والاستحالة ان ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران». وبذلك اصبح التاريخ الاسلامى جميعا حقبة حقبة بل واقعة واقعة موضعا للدراسة والتحقيق من هذا الجانب. وقد اجتذبت السيرة النبوية اكثر اهتمام الدارسين بهذا التاريخ وصارت محورا لعمل المحققين وميدانا لمجهودات متواصلة منذ عدة قرون حتى يومنا هذا. ورغم هذه الجهود ما زالت السيرة لنبوية بامس الحاجة الى الدراسات النقدية الجادة التى يمكنها اختراق الحجب والتاشير على مواضع الخروق التى احدثتها اصابع الككذابين والقصاصين واهل الملل والنحل. والدراسة التى بايدينا هى من دراسات المجموعة الثانية غرضها التحقيق فى الوقائع والتدقيق فى صحة ما ينسب الى رسول اللّه (ص) من الناحية التاريخية بمعنى ان موضع اهتمامها هو التاريخ فحسب فلم تدرس من السيرة الا ما كان تاريخا وما وقع منها فى هذا المجرى ولهذا كانت الحادثة موضع اهتمامها لا الحديث والواقعة النبوية لا القول النبوى. فهى ليست دراسة فقهية فى السيرة النبوية ولا كلامية ولاسياسية بل هى دراسة تاريخية حصرت اهتمامها بهذا الجانب فحسب وحين يكون للواقعة اكثر من وجه تاريخى وغيره آكحادثة الاسراء والمعراج، ووقعة الغرانيق وما الى ذلك، فاننا نجد المؤلف لم يبحث فيها الا بعدها التاريخى، اى مسالة وقوع هذه الحادثة وعدم وقوعها مع الكشف عن ملابسات ذلك الوقوع ويترك ما فى الحادثة من قيمة اعجازية او مداليل آكلامية او تشريعية لمجالاتها الخاصة. وقد سعت الدراسة جاهدة لان تضع الامور فى سياقها الطبيعى وترجع الظواهر الى اسبابها الحقيقة التى اخفت رؤوسها تحت السطح. ولم تنهج فى اثبات ما ينسب للسيرة اوينفى عنها المنهج الكلاسيكى المعروف، من التدقيق فى سند الواقعة وقضايا الجرح والتعديل، وما الى ذلك، بل انتجهت منهجا اجتماعيا نفسيا يركز على تحيل الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية الشخصية التى اكتنفت تلك الواقعة والخروج من خلال هذه المقارنات بترجيح جانب على آخرنفيا او اثباتا. وقد اكسبت المؤلف تجربته الطويلة فى هذا الميدان قدرة جيدة على تشخيص الظواهر وامدته بخبرة واسعة مكنته من سبر اغوار المجتمع الجاهلى ومجتمع صدر الاسلام ليغوص مع الاحداث التى تبرز على السطح الى جذورها، فهو لايكتفى عادة بالوصف العام الذى لا يلامس حقيقة الاشياء ولايهتدى الى كنهها. وقد اختلط المؤلف له منهجا فى هذه الدراسة اراد له ان يكون كما يبدو وسطا بين منهج بعض المؤرخين المسلمين المحدثين والمنهج الاستشراقى التشكيكى فى دراسة التاريخ. فحاول ان يلتقط من الاول ايجابياته ويتجنب فى الثانى مخاطره وسلبياته. وربما مال فى بعض تحليلاته الى هذا الطرف او ذاك فقد اخذ على المستشرقين مثلا نفيهم للجانب‌الغيبى فى دراسة السيرة ونكرانهم لكل ما وراء المادة والحس. بينما لم يتفق مع بعض المسلمين فى اعتبارهم السيرة النبوية ظاهرة سماويةحضة مقطوعة الصلة بالناحية البشرية وصيرورتها فى الزمان والمكان. وجريا على هذا المنهج بدا المؤلف دراسته بمقدمة تمهيدية درس فيها طبيعة المجتمع الجاهلى قبل الاسلام والعناصرالمؤثرة فيه والقيم والنظم التى كانت تحكمه وتؤثر فيه وخاصة النظام القبلى وما يترتب، وما يتصل به من اهتمام بالانساب وضبط لها باعتبارها الخيط الوحيد الذى يجمع اولئك الناس المنتشرين فى صحراء مترامية الاطراف لا يوجد فيها استقرار دائم ولا وطن دائم ولا سلطان دائم. لقد ثابر المؤلف واجتهد فى تحليل المجتمع الجاهلى وحاول ان يتعقب العناصر المؤثرة فيه الى ما بعد الاسلام ويكشف عن دورها فيما بعد فى نشوب النزاعات وانشاء التحالفات فى‌العصر الاسلامى، وقد مال المؤلف فى

بعض هذه الابحاث الى الجانب الثانى (اى المنهج الاستشراقى) مما جعله ينتهى الى نتائج لا نتفق معه فيها، اشرنا الى بعضها فى الهامش بتعليقات مختصرة. لكن ذلك لا يضعف الدراسه ولا يقلل من اهمية الجهد المبذول فيها. واخيرا نتقدم بجزيل الشكر والامتنان الى مركز الغدير للدراسات الاسلامية الذى احتضن هذه الدراسة وعمل على نشرها بعد ان مر على نقلها الى العربية اكثر من اربع سنوات. داعين المولى جل شانه ان ياخذ بايدينا جميعا لما فيه خير امتناوخدمة ديننا الحنيف ونبيه الكريم (ص) و آخر دعوانا ان الحمدللّه رب العالمين. على السيد هادى ۱۸ جمادى الاخرة ۱۴۱۷ ه ۳۰/۱۰/۱۹۹۶ م بيروت لبنان.

المقدمة المولف

اتفق جماعة من الاخوة العلماء، على تاليف سلسلة كتب فى حياة الرسول (ص) والائمة المعصومين (ع) على النحو الذى يلبى حاجات عصرنا الراهن، ويستجيب لطموحات المعاصرين الفكرية والنفسية، وقد تحمل كل واحد من هؤلاء الاخوة الكرام الكتابة فى حياة واحد او اثنين من هؤلاء العظام، وعهدوا الى بالبحث فى سيرة الرسول (ص) والكتابة فى هذا الامر المهم، نظرا لمعرفتهم باشتغالى فى تدريس تاريخ الاسلام وسيرة النبى الاكرم لعدة سنين فى جامعة طهران. هذا وقد الفت كتب عديدة فى سيرة الرسول (ص) يمكننا رغم تعددها وتنوعها تصنيفها الى مجموعتين رئيسيتين تنقسم كل واحدة منهما الى مجاميع اصغر. المجموعة الاولى: وهى الكتب التى صنفها المؤلفون المسلمون ابتدا من القرن الهجرى الثانى الى يومنا هذا، وكان الهدف منها سد حاجة المسلمين وتلبية رغبتهم الشديدة فى الاطلاع على حياة الرسول. وكان من الطبيعى ان تزادالاضافات والاسقاطات التى تنسجم مع مذاهب المؤلفين كلما ابتعدنا عن عصر الرسول وكلما زادت العقائد وكثرت الفرق والنحل فى العالم الاسلامى. وكلما اقتربنا من عصر الرسول (ص) كلما قل الحذف والاسقاط وكذلك الاضافات والزوائد المذهبية. اما التعصبات القومية والقبلية فستبقى تلقى بظلها الثقيل على السيرة النبوية وتترك آثارها عليها. لقد انتقل ميدان المواجهة بين قبائل جنوب الجزيرة وشمالها من السهول والصحرا والمدن الى الشعر والحديث والتاريخ والقصة، وقد ظهرت آثار هذه النزاعات وامثالها حتى على كتب السيرة. المجموعة الثانية: وهى الكتب التى صنفها المؤلفون الاوروبيون او الاجانب غير المسلمين، بشكل عام. وكان الغرض منها كذلك تلبية رغبة اقوامهم واهل ديانتهم فى الاطلاع على حياة رجل ربما يكون قد ترك اكبر الاثر فى التاريخ. اليهود المتعصبين، الذين يعتبرون نبى الاسلام (ص) ذلك الانسان الذى وجه الى دينهم اقوى الضربات، والحق به اعظم الاضرار، فلا يسعهم والحالة هذه ان ينظروا اليه نظرة محايدة خالية من الخصومة، فحرفوا الوقائع والاحداث بالصورة التى تخدمهم وتضر بالاسلام. وقد تعرض ايمان المفكرين والمؤرخين المؤمنين بالكنيسة والقائمين عليها الى هزة عنيفة منذ القرن التاسع عشر فما بعدنتيجة لظهور افكار عصر النهضة منذ القرن الثامن عشر، ونال الكتاب قدرا اكثر من الحرية، ولم يعودوا مجبرين على متابعة اصحاب الكنيسة، اضف الى ذلك نفوذ الروح العلمية والتحقيقية فى طريقة كتابة التاريخ، فقد تبدلت طريقة ولهجة كتاب تاريخ الاسلام وسيرة الرسول (ص) فى اوروبا، وآلت بالتدريج الى النقد العلمى للمصادر وابدا وجهات النظر المحايدة والمجردة عن العصبية الدينية والقومية بدلا عن النهج السابق، وبذلت المساعى للتحقيق فى حياة نبى الاسلام (ص) وسيرته بنفس القدر المبذول للتحقيق فى سيرة موسى وعيسى (ع) وكنفوسيوس وزرادشت وامثالهم. ورغم ان التحقيق العلمى فى المصادر والوثائق والروايات المرتبطة بتاريخ صدر الاسلام اعطى نتائج مهمة نسبيا من وجهة نظر كتابة التاريخ، وطرح جانبا اكثر آرا مصادر تاريخ الاسلام المتحيزة والناجمة عن العصبية، فقد برز خطر آخر فى هذا النوع من الكتابة قتل بصيص الامل الذى اوجده النفس التحقيقى غير المنحاز، وابدله الى حالة من الياس، ولم يكن ذلك فى تاريخ الاسلام فحسب بل ظهر بنفس الشدة بل اكثروا خطر فى تاريخ الاديان والمذاهب الاخرى. لم يكن هؤلاء الكتاب ينظرون الى الدين باعتباره شيئا فوق الطبيعة، انما تعاملوا معه تعاملهم مع سائر الشؤون الاجتماعية، ولم يكن ثمة فرق فى نظرهم بين الدين وباقى الامور والظواهر الاجتماعية، والتحقيق فى تاريخ وظهور الاديان لديهم كالتحقيق فى تاريخ السياسة والاقتصاد والشؤون الحربية وتغلب بعض الاقوام والدول على بعض، ولذلك صار الدين عندهم

امرا دنيويا. وان خطر تحول الـدين الى امر دنيوى من شانه ان يزعزع ايمان وعقيـدة اولئك المشـتاقين المتطلعين الى معرفة سـير العظام من اصـحاب الرسالات وتاريـخ ظهور الاديان، وهـذا هو خطر «تـدوين التاريـخ» الذى يرى ان معرفة كل شـىء يجرى فى اطار التاريخ ومن خلال تطوره، ولا يقيم ايـة اهميـة «للصورة» و «الماهيـة» و «المثال»، وهكـذا يصـبح الـدين امرا طبيعيا ناشـئا عن غريزة الخوف او المصالـح الاخلاقيـة او العامـل الاقتصـادى او مـا شـابه ذلـك، لان تاريـخ تطور كـل شـىء يجرى فى اطـار الطبيعـة، وتنطوى «الكتابة التاريخيـة» و «انباء التاريخ» على خطر اهم، ذلك هو خطر الوقوع فى النسبية ونسبية الامور وخصوصا الاخلاقيات، فبموجب هذه النظرة يجب ان تكون حقيقـة الامور متحققـة فى تطورها ونموها، اذن ليست هناك حقيقـة مطلقـة كتلك التى يـذهب اليها اصـحاب الاديان ويـدعون لها، كما لا توجد قيم اخلاقية مطلقة، كل شـىء مرتبط بطبيعته السياسـية غير الثابتة، وله فى كل حالة وآن حقيقة تختلف عن الحالات السابقة واللاحقة لها. ولكن اثبتت الهزات والاضطرابات والتحولات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ان عدم الايمـان بحقـائق مسـلمة وثابتـة وغير قابلـة للتغير، لا يسـلب المجتمعات البشـرية قـدرتها على تحسـين اوضاعها الاجتماعيـة والاخلاقية فحسب بـل ويجعـل العلاـئق الاجتماعيـة والاخلاقيـة فى حالـة مؤسـفة من الضـعف والانحلال، ومهما كانت القوانين الوضـعية صارمة وشاملة ومهما بذل من جهد لتطبيقها لا يمكنها ان تحل محل قوانين الاديان الابدية الحاكمة على القلوب والمهيمنة على اعماق نفوس البشـر، ففى بناء المجتمعات تكون القوانين الوضـعية كالقوانين والقواعد الهندسـية التى يسـتخدمها المهندسون والمعماريون فى تشييد المبانى. فلو فقدت المواد الانشائية اللازمة واريد اقامة مبنى طبقا للقوانين الهندسـية من الورق والمقوى مثلا، فقد يبدو مثل هذا المبنى جميلاـ ومسـتقرا من الخـارج، ولكنه سـرعان مـا ينهـار عنـد تعرضه لابسـط هزة، كمـا هى عليه الاـن المجتمعات التى بلغت قمـة الرفاه الاقتصـادى والتى يجرى فيهـا تطبيق القوانين الوضـعية بشـدة وصـرامة، نجـدها تعيش الفسـاد الاخلاقى والاجتماعى اكثر من اى مكان وزمـان آخرين. اذا لا يمكن النظر الى الـدين على انه مجرد ظاهرة تاريخيـة، ولا يمكن قراته من خلال التطورات والتحولات التاريخية الصرفة، فالنظرة التاريخية الى الدين شىء لازم لكنه غير كاف، فاذا ما حاولنا متابعة ظهور وانتشار دين ما على ضوء الموازين التاريخية المتاحـة، فيجب ان يتم ذلـك من خلال الانتبـاه الى كمـال «الصـورة» و «المثـال» وخلودهمـا، فهمـا الحاكمـان على تلـك التطـورات والتحولات والملازمان للدين فى جميع مراحله، وهما اللذان يحفظانه من السـقوط فى حضيض النسبية، بل يجب ان نعتبر ذلك اصلا، اما مراحل التطور والتحول والمجريات التاريخيـة فهى فرع. يقول الشاعر الايرانى مولوى: انك لترى صورة القمر والنجوم مسـتقرة على ماء يجرى باستمرار [۱] .ان الامور الطبيعيـة فى عالم الطبيعـة والامور الانسانيـة ومنها التاريخ، انما هى بناء- على طبيعتها الزمانية- دائما فى حالـة حركـة وتجـدد وسـيلان، وهذا من الامور المسـلمة تقريبا لدى الجميع باسـتثناء اولئك الذين ينكرون الحركة، اما الامور غير الماديـة وغير الطبيعيـة فهى ليست فى معرض الكون والفسـاد، وليس لهـا صـيرورة، بل ان وجودها ثابت ومتحقق من الاول ولاتخضع للحركـة والتغيير، واثبـات ذلك من شؤون العلم الالهى وما ورا الطبيعـة، ونحن نبحثه هنا على انه من الامور المسـلمة او باعتباره اصـلا موضوعيا ثابتا. كـذلك الـذات الالهيـة المنزهـة عن المادة والتركيب والحاكمة على الكون والمهيمنة عليه، هى الاخرى ابدية لا تتغير، وكـذلك القوانين الالهيـة الحاكمـة على العـالم والهاديـة له بحكم اللّه، هى الاءخرى ابديـة لا تتغير، ومن هـذه القوانين قانون الحركة والسـيلان وتطور الامـور الطبيعيـة الـذى هو ثـابت وابـدى. فقـانون التطور الـذى يبين تطور الموجودات وتغيرها الـدائم هو نفسه ثابت وابـدى من ناحيـة انتسابه الى ما ورا الطبيعـة و ذات‌البارى. ان الاديان الالهيـة ابديـة وازليـة وثابتـة كقانون الحركـة والتكامل من ناحية انتسابها الى ذات البارى تعالى، اما من ناحيـة وجودها فى عالم الطبيعـة وفى المجتمعات الانسانية فانها تابعة الى قوانين الطبيعة ومنقادة للحركـة والاسـتمرارية والتطور. ولاـ بـد لمن يؤرخ للاديـان الالهيـة ان ياخـذ بنظر الاعتبار كلا الجانبين الطبيعى والالهى، فهو فى اطار الطبيعـة والمجتمعات الانسانيـة مشـمول بقوانين الزمن والتاريخ والحركة، ومن جهةكونه الهيا وكونه فوق الطبيعة ثابت وازلى، هذا هو سر التطابق والتوافق بين الاية الشـريفة (ان الدين عند اللّه الاسـلام) «آل‌عمران: ۱۹». الناظرة الى الجانب الالهى الخالد، والاية الشـريفة (اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى) «المائدة: ۳». الناظرة الى سير الدين فى مجرى الطبيعة والتاريخ. ولكن ينبغى الانتباه

الى ان تلك سنة الهية، والسنة الالهية غير قابلة للتغيير والتبدل، فكل شيء فى عالم الطبيعة ومنها التاريخ يجرى طبقا للاسباب والمسببات القانونية، اى‌العلة والمعلول. كل شيء فى الطبيعة- بناء على ارادة اللّه الازلية- مقهور للطبيعة ومحكوم لاحكام تلك السنة، لكن لايمكن للنظرة المتفحصة الا ان تلمح اليد الخفية الغيبية والمشيئة الالهية فى سير هذه الاحداث الطبيعية وضمن هذا التسلسل من العلل والمعلولات. واخيرا فانه لا بد للمؤرخ والمحقق من عينين ينظر باحديهما الى عالم الغيب والارادة الالهية، وبالأخرى الى عالم الحس وعالم الطبيعة ويرى فيها اسبابه ولوازمه، ينبغى ان يتمتع بالنظرتين ولا يكون احادى النظرة والاتجاه. فرغم ايماننا حين نستعرض احوال النبى الاكرم (ص) بانه مبعوث من قبل اللّه سبحانه وتعالى وانه هادى البشرية، وان دينه اكمل الاديان، وهو خاتم الانبياء، وان رسالته فوق الزمان والمكان، ومصونة عن التغيير والتبدل، ولكننا لا نملك الا ان نتابع سير الاحداث التاريخية وفقا لما يجرى فى الطبيعة وعالم المادة، فنبى الاسلام (ص) كاى بشر آخر ولد من اب وام، ثم كبر وتزوج، واخيرا ارتحل عن هذه الدنيا. فالولادة والموت، والرشد والبلوغ، والشباب والشيخوخة، انما هى امور حتمية يواجهها كل كائن حى، ولا يوجد فى حياته (ص) من هذه الناحية امر معجز خارق للعادة، واذا ما حكمنا عليه (ص) من خلال التاريخ فيجب ان تنسب الاءمور الخارقة للعادة والمعجزات والكرامات الى الجانب الالهى فيه، ونتحدث فى ذلك على ضوء معتقداتنا. واذا ما سكت التاريخ عن هذه الناحية، فلا نبدل سكوته هذا الى نعى وانكار ونؤكد فى باب المعجزة على معجزته التاريخية فقط، وهى القرآن الكريم الذى ثبت انه ابدى، ولا يستطيع احد ان ياتى بمثله، وقد انجزاللّه وعده وتعهد بحفظه من اى تغيير او تبديل طيلة الاربعة عشر قرنا الماضية، وسيبقى الى الابد. وفضلا عن هذا، فان اى امر معجز نسب اليه، له وجهان وجانبان كوجهى العملة الواحدة، لا يمكن فصلهما، احدهما الهى غيبى، فنحن على يقين ان لا شيء يخرج عن ارادته سبحانه وتعالى، ومهما بدا الامر مستحيلا فى عالم الطبيعة، فانه خارج عالم الطبيعة امر ممكن وقابل للتصور. والجانب الاخر هو الجانب الطبيعى الذى نعتقد فى حدوده ان جميع ماينسب الى الانبياء (ع) من معاجز وامور خارقة للعادة قابلة للتعليل والتفسير من ناحية عالم المادة والطبيعة، واذا ما ظهرعجز فى تحليلها وتعليلها فان ذلك عائد الى عجزنا نحن، وما اكثر الامور الطبيعية فى هذا العالم التى ما زالت عقول البشرعاجزة عن ادراك كنهها وتفسيرها! وسنسعى مع ذلك الى توجيه تلك المسائل بما تتيحه لنامداليل الايات والاخبار الشريفة، وبما لا يذهب بنا بعيدا عن الذوق والسليقة، توجيها لا يتنافى وقوانين الطبيعة الظاهرة المانوسة لدينا. وهذه التوجيهات التى ستطرح فى مناسباتها من الوقائع التاريخية وحوادث حياة الرسول (ص) لا تعنى خوضنا فى المسائل الكلامية والاعتقادية، فنبحث مثلا بمناسبة الاسرا والمعراج مسالة المعراج الجسمانى والروحانى، فهذه الأمور وامثالها من مسائل علم الكلام الاسلامى، ولا صلة لها بالتاريخ. ولانها ذكرت فى سيرة الرسول (ص) فسنضطر الى‌استعراضها بالقدر الذى تدعو الحاجة اليه، وسيكون ذلك فى نطاق سيرة الرسول (ص) والتاريخ، وسنصرف النظر عن المعجزات التى نسبت اليه (ص) والتى لا صلة لها بحادثة او واقعة تاريخية معينة، اذ تنعدم هنا العلاقة بالتاريخ وتدخل المسالة فى مباحث علم الكلام ومسالة اثبات النبوة الخاصة.

القرآن و سيرة الرسول

لا يمكننا قول شيء فيما يخص القرآن الكريم، فوق ما يقوله القرآن نفسه، وهذه الاية الشريفة التى تقول: (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين) «البقرة: ۲» هى بيان لصفتين مهمتين فى القرآن الكريم: كونه قطعيا، وكونه هاديا، وتعنى قطعيته بالنسبة للمسلمين شيئين، احدهما: صدوره القطعى من قبل اللّه تعالى، والاخر: ان جميع آيات هذا الكتاب العظيم سمعت بلسان عربى مبين نطق بها الرسول (ص)، وحفظت بدقة وحرص متواصل طيلة اربعة عشر قرنا، وستبقى هكذا محفوظة على مر العصور وتعاقب الايام، وما نقصده بهذا الحديث ان القرآن الكريم من اوثق الوثائق الباقية عن الرسول (ص) واكثرها يقينية. واذا ما تردد البعض من غير المسلمين فى قطعية صدور القرآن الكريم عن اللّه سبحانه وتعالى، فانهم لا يترددون بصدور كلماته وآياته عن الرسول (ص) نفسه، ولا قيمة لتردد قلة معدودة فى هذا المجال، وربما سنتعرض لهذا الموضوع فى مباحث قادمة بصورة استدلالية اكثر تفصيلا. وكون القرآن قطعى

الصدور عن الرسول (ص) (اى مع قطع النظر عن كونه وحيا الهيا) فان ذلك وحده يجعله وثيقة لها قيمة تاريخية خاصة بالنسبة لحياة الرسول (ص). اما ما يمكن استخلاصه بشكل واضح من الاية الشريفة، ان القرآن الكريم بلحاظ الموضوع كتاب هداية وارشاد وليس شيئا آخر، وما نجده من كثرة الايات التى تتحدث عن حياة الانبياء امثال: يوسف وموسى ونوح وابراهيم وعيسى عليهم السلام، او التى تتحدث عن مصير بعض الاقوام من قبيل عاد وثمود وقوم لوط وامثالهم، انما هى متعلقة بالدرجة الأولى بموضوع الهداية والتوجيه، وهكذا الايات التى تتحدث عن سيرة الرسول (ص) وشؤون حياته وما واجهه من احداث وتطورات فى اثنائها هى الاءخرى تتعلق بموضوع الهداية قبل اى شيء آخر، ويتضح هذا المعنى عند ادنى تامل فيها. ولكن ذلك لا يمنع من ان تكون تلك الايات بمثابة وثيقة قطعية يستند اليها كتاب السيرة لمعرفة حياة الرسول (ص) والاحداث التى حفلت بها حياته الشريفة. وبذلك يكون القرآن الكريم اعظم الوثائق التاريخية اتقانا، واكثرها قطعية بالنسبة الى بعض ما حدث للرسول (ص) اثناء حياته، وهو يؤيد ما ورد حول حياته (ص) فى المصادر الأخرى. ولكن نظرا لان مسالة الهداية هى الموضوع الاساسى لهذه الايات، فانها لم تات فى القرآن الكريم بنظم وترتيب تاريخى، بل جاءت فى مواضع ومناسبات اخرى يرتبط اكثرها بالهدف الاساسى للقرآن الكريم. مصادر سيرة الرسول (ص): بدا تدوين سيرة الرسول (ص) فى الوقت الذى اصبحت الحاجة اليها محسوسة، وقد استشعر الناس بهذه الحاجة عندما فقدوا تدريجيا عددا كبيرا من الصحابة (ص) الذين كانوا شهودا على احداث كبرى فى حياته، وكان المسلمون، من غيرالعرب واهل البلاد المفتوحة، يستشعرون عظمة الدين‌الجديد بعمق ويتوقون لمعرفة احوال صاحب الرسالة (ص)، فقد كان اهل المدن الاسلامية الكبرى من الكوفة والبصرة ودمشق ومصر والرى فى اتم الشوق واللهفة لمعرفة وقائع ايام الرسول (ص) وصدر الاسلام، وقد اصبح العدد المحدود من اصحاب الرسول (ص) الذين ما زالوا على قيد الحياة مرجعا اوليا ومصدرا اساسيا يرجع اليه فى هذا المجال، ثم اخذ المحيطون بهم والراوون عنهم والذين اطلق عليهم (التابعون)، يحتلون نفس الموقع تدريجيا. وكانت مرجعية التابعين من اولاد الصحابة فى المدينة، سيما اولاد المهاجرين الذين هم اقرب الناس اليه (ص)، اكثر وضوحا من غيرها، وتتاكد هذه المرجعية اكثر حين يكون لدى التابعى نفسه شوق ورغبة فى الاطلاع على حياة الرسول ووقائع صدر الاسلام، وتذكر كتب السيرة والحديث علمين بارزين من التابعين هما: ابان بن عثمان بن عفان، ابن الخليفة الثالث والمتوفى عام (۸۱ او ۱۰۵ه) والاخر ابو عبداللّه (عروة بن الزبير بن العوام الاسدى) المتوفى عام (۹۱ ه) وابوه من اشهر اصحاب الرسول (ص)، ولكن لاسباب سياسية كما يبدو لم يمض العمل بتدوين سيرة الرسول (ص) ايام الامويين الا ببطء، ولم تسمح المصالح والمطامع السياسية لهذا العمل ان يتقدم رغم شوق الناس وتعطشهم الشديد اليه. والسبب فى ذلك هو ان بنى امية كان اكثرهم من اعدا الدعوة الاسلامية ايام انطلاقتها الاولى، وعلى راسهم زعيم هذه العائلة ابو سفيان، الذى كان من الد اعدا الرسول (ص)، وهو الذى قاد معارك كفار قريش ضد المسلمين، ولم يسلم هو وابناؤه وعدد آخر من بنى امية الا فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة. فكتابة تاريخ الاسلام وتدوين حياة الرسول (ص) واستعراض فتوحاته، التى كان خصمه الرئيسى فيها وعدو الاسلام الاول بنى امية واجداد الخلفاء الامويين وعشيرتهم، ان تاريخا كهذا لا يسر هذا البطن الا اذا حرف كثير من الاحداث والوقائع بالشكل الذى يخدم مصالح بنى امية. هذا وقد كان اهل المدينة (اى الانصار) قد اوقعوا بالمكيين والقرشيين، وخصوصا بنى امية، ضربات قوية، ولم يقفوا الى جانب عثمان بن عفان الأموى فى الثورة التى آلت الى قتله، فمن الطبيعى فى مثل هذه الحالة ان تكون ثمار تدوين سيرة الرسول (ص) لصالح الانصار، وهذا ما لا يسع خلفاء بنى امية قبوله. ومن جانب آخر كان بنو هاشم، وهم اسرة الرسول (ص)، قد بذلوا التضحيات الجسام فى تلك المعارك، وابروا من الشجاعة والاقدام شيئا عجيبا، وكان اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع) قد قتل جماعة من رؤوس بنى امية فى معركة بدر، فى الوقت الذى كان خصمه الرئيسى ومدعى الخلافة من بنى امية هو معاوية بن ابى سفيان. فلا يمكن لبنى امية ان يرتضوا تدوين تاريخ، يحتل اعداؤهم موقع الصدارة فيه دفاعا عن الاسلام وتاييدا له، ويحتل اجدادهم موقع الاعدا الالدا للاسلام ودعوته، اللهم الا ان يكتب تاريخ ليس فيه ذكر لاعمال بنى امية، ولا اشارة لمعاداتهم الشديدة للاسلام. وهناك من الشواهد التى فى ايدينا ما يؤكد هذا الامر بل يجعله اقرب الى اليقين. احد هذه

الشواهد رواية ينقلها الزبير بن بكار فى الموفقيات، [۲] جاء فيها: «قدم علينا سليمان بن عبدالملك، [۳] حاجا سنة اثنتين وثمانين، وهو ولى عهد، فمربالمدينة، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، وركب الى مشاهد النبى (ص) التى صلى فيها، وحيث اصيب اصحابه بأحد، ومعه ابان بن عثمان وعمر بن عثمان، وابو بكر بن عبداللّه بن ابى احمد، فاتوا به قباء، ومسجد الفضيخ، ومشربة ام ابراهيم، واحد، وكل ذلك يسالهم، ويخبرونه عما كان، ثم امر ابان بن‌عثمان ان يكتب سيرة النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم ومغازيه، فقال ابان: هى عندى قد اخذتها مصححة ممن اثق به، فامر بنسخها، والقى فيها «الى عشرة من الكتاب، فكتبوها فى رق، فلما صارت اليه نظر فاذا فيها ذكر الانصار فى العقبتين، وذكر الانصار فى بدر، فقال: ما كنت ارى لهؤلاء القوم هذا الفضل، فاما ان يكون اهل بيتى غمصوا عليهم، واما ان لايكونوا كذلك. فقال ابان بن عثمان: ايها الامير، لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، ان القول بالحق، هم على ما وصفنا لك فى كتابنا هذا. قال: ما حاجتى الى ان انسخ ذاك حتى اذكره لامير المؤمنين، لعله يخالفه، فامر بذلك الكتاب فحرق. وقال: اسال امير المؤمنين اذا رجعت، فان يوافقه، فما ايسر نسخه! فرجع سليمان بن عبد الملك فاخبر اباه بالذى كان من قول ابان، فقال عبد الملك: وما حاجتك ان تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تعرف اهل الشام امورا لا نريد ان يعرفوها. قال سليمان: فلذلك يا امير المؤمنين، امرت بتخريق ما كنت نسخته حتى استطلع راى امير المؤمنين. فصوب رايه. وكان عبد الملك يثقل عليه ذلك، ثم ان سليمان جلس مع قبيصة بن ذؤيب، فاخبره خبر ابان بن عثمان، وما نسخ من تلك الكتب، وما خالف امير المؤمنين فيها، فقال قبيصة: لولا ما كرهه امير المؤمنين، لكان من الحظ ان تعلمها وتعلمها ولدك واعقابهم، ان حظ امير المؤمنين فيها لوافر، ان اهل بيت اميرالمؤمنين لاكثر من شهد بدرا، فشهدها من بنى عبد شمس ستة عشر رجلا من انفسهم وحلفائهم ومواليهم، وحليف القوم منهم، ومولى القوم منهم، وتوفى رسول اللّه (ص) وعماله من بنى امية اربعة: عتاب بن اسيد على مكة، وابان بن سعيد على البحرين، وخالد بن سعيد على اليمن، وابو سفيان بن حرب على نجران، عاملا لرسول اللّه (ص) ولكنى رايت اميرالمؤمنين كره من ذلك شيئا، فما كره فلا تخالفه. ثم قال قبيصة: لقد رايتنى وهو يعنى عبد الملك وعدة من ابناء المهاجرين، مالنا علم غير ذلك حتى احكمناه، ثم نظرنا بعد فى الحلال والحرام. فقال سليمان: يا ابا اسحاق، الا تخبرنى عن هذا البغض من‌امير المؤمنين واهل بيته لهذا الحى من الانصار وحرمانهم اياهم، لم كانا؟، فقال: يا ابن اخى، اول من احدث ذلك معاوية بن ابى سفيان، ثم احدثه ابو عبد الملك، ثم احدثه ابوك. فقال:علام ذلك؟ قال: فواللّه ما اريد به الا لاعلمه واعرفه. فقال: لانهم قتلوا قوما من قومهم، وما كان من خذلانهم عثمان رضى اللّه عنهم فحقدوا عليهم، وتوارثوا ذلك الحقد، وكنت احب لامير المؤمنين ان يكون على غير ذلك لهم، وان اخرج من مالى، فكلمه. فقال سليمان: افعل واللّه. فكلمه وقبيصة حاضر، فاخبره قبيصة بما كان من محاورتهم. فقال عبد الملك: واللّه ما اقدر على غير ذلك، فدعونا من ذكرهم، فاسكت القوم». وتتضمن الرواية المذكورة، التى نكاد نطمئن الى صحتها، نقاطا مهمة، الاءولى: رغبة الجيل الثالث بعد الرسول فى الاطلاع على سيرته (ص). والثانية: ان هذه السيرة قد دونت منذ القدم، فاخذها ابان بن عثمان وهو من التابعين عن احد الثقات وربما كان من اصحاب رسول اللّه (ص). وعلى هذا يمكننا القول ان هناك من بين الصحابة من كان يدون احداث ذلك العصر، ويؤيد ذلك خبر مروى عن عبداللّه بن عمر بن العاص انه كان يكتب كل ما يسمعه من الرسول (ص) فى كتاب اطلق عليه (الصحيفة الصادقة) [۴] ولا تدل الرواية على تدوين الوقائع والاحداث بل تنص على تدوين الحديث. والنقطة المهمة الأخرى التى هى محل بحثنا ان بنى امية كانوا يكرهون انتشار سيرة الرسول (ص) وتدوينها لاسباب سياسية اوعصبيات عشائرية، او بصورة اكثر تحديدا بسبب الاحداث الدامية التى وقعت بين الانصار وبنى امية. وهناك روايات تتحدث عن ان عبد الملك بن مروان كان قدسال عروة بن الزبير كتبا بعض الاسئلة المتعلقة باحداث صدر الاسلام واجابه الاخير عليها. وربما كان يمكن اعتبار ذلك دليلا على رغبة عبد الملك فى الاطلاع على سيرة النبى (ص) لو كان ما سال عنه عبد الملك ذا قيمة واهمية او من المسائل الحساسة كفضائل بنى هاشم ومناقب الانصار، انما كانت حول مسائل اخرى من قبيل خروج ابى سفيان لمعركة بدر، او وقائع معركة خالد بن الوليد فى فتح مكة وغير ذلك. ومن ضمن الروايات التى تحكى معارضة بنى امية لتدوين السيرة، خبر جاءنا عن خالد بن عبداللّه القسرى، حاكم العراقين

فى عهد هشام بن عبد الملك، والمقتول فى السجن عام ۱۳۵ او ۱۳۶ ه، حيث يقول الخبر الذى اورده صاحب الاغانى: ان خالد بن عبداللّه طلب من العالم والمحدث المشهور محمد بن شهاب الزهرى ان يكتب له السيرة، فقال له: فانه يمر بى الشيء من سير على بن ابى طالب صلوات اللّهعليه اذكره؟ فقال: لا، الا ان تراه فى قعر الجحيم. [۵] وكانخالد واليا من قبل هشام بن عبد الملك، ورغم وجود الصفات الجيدة من السخاء والفصاحة الا انه كان رجلا بخيلا ومتهمافى دينه، وبالفساد وخصوصا الفساد الاخلاقى، حيث نقل عنهفى شبابه انه: كان فى حداثته يتخنث ويتتبع المغنين والمخنثين متهما ويمشى بين عمر بن ابيربيعة وبين النساء فى رسائلهن اليه [۶] .رغم هذا كله لم يستطع بنو امية الوقوف امام رغبة الناس وشوقهم فى الاطلاع على السيرة، فشرعت شخصيات عظيمة وعلماء كبار، امثال: ابن شهاب الزهرى، وابو الاسود، وموسى بن عقبة، ومحمد بن اسحاق، وابو معشر السندى بتاليف وتدوين سيرة الرسول (ص). ومن اهم تلك الاثار، التى وصلت الينا واشملها: سيرة محمد بن اسحاق بتلخيص ابى محمد عبدالملك بن هشام الحميرى النحوى المتوفى (۲۱۸ او ۲۱۳ ه) كما انها تعتبر اقدم واوثق كتاب حول الرسول (ص). ومصادرنا الاساسية فى كتابنا هذا، اولا: ذلك التلخيص (اى تلخيص ابن هشام) المعروف بسيرة ابن هشام، وثانيا: تاريخ الطبرى، الذى ينقل سيرة ابن اسحاق بطرق اخرى (اى عن رواة آخرين نقلوا عن محمد بن اسحاق، امثال سلمة بن‌الفضل، ويونس بن بكير. والثالث: سيرة ابن اسحاق عن نسخة القرويين، وهى النسخة التى وجدت فى مكتبة القرويين فى مدينة فاس المغربية، وبتحقيق محمد حميد اللّه عام ۱۹۷۹ م، وقد طبعت فى المغرب، ونسخة القرويين برواية يونس بن بكير. ومن مصادرنا الاءخرى: كتاب (المغازى) لمحمد بن‌عمر الواقدى (طبعة لندن، ۱۹۶۶) وطبقات ابن سعد كاتب الواقدى (منشورات زاخاو، برلين) وكتاب (انساب الاشراف) للبلاذرى (ج۱)، وكتب اخرى سنشير اليها اثناء البحث.

الجزيرة العربية قبل الاسلام

اشاره

لم يكتشف تاريخ شبه الجزيرة العربية بشكل علمى الا فى‌القرن التاسع عشر، ففى هذا القرن توغل السياح وعلماء الاثارفى الصحرا العربية، و عثروا على كثير من الاثار والمجسمات القديمة التى وجدوها موزعة فى الاجزا الماهولة منها، وخاصة فى القسم الجنوبى الغنى جدا بتلك الاثار. واستطاعوا بعد جهود مضنية قراتها وتحليل النقوش التى كانت عليها والخروج بنتائج علمية قيمة، ازاحت الستار عن تاريخ قديم، ولولا هذه الدراسات لكانت تلك الاثار ترقد فى باطن الارض حتى هذه‌اللحظة. وطبقا لهذه الحفريات ثبت ان هناك حضارات مهمة نمت وترعرعت فوق هذه الارض قبل مولد المسيح (ع)، وخضعت لملوك وحكومات متعددة فرضت سيطرتها على هذه البلاد، ولسنا الان بصدد هذا البحث الذى يشكل اليوم قسما مستقلا فى الدراسات الشرقية، ذلك ان تلك الحضارة كانت قد زالت وانتهى امرها قبل مولد الرسول (ص) فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، وكان الناس قد نسوا لغتهم وكتابتهم القديمة حتى ان الخط الحميرى ما كان يقرا الامن قبل علماء معدودين فى ذلك العصر وبصعوبة بالغة. وقد وجدت اللغة العربية المتداولة حاليا، والتى نزل بها القرآن الكريم على صدر الرسول (ص)، رواجا ملحوظا فى القرن السادس الميلادى بين البدو والقبائل التى استوطنت القسم الشمالى من شبه الجزيرة العربية، وظهر شعرا عرب نبغوا فى نظم الشعر واظهروا ثرا اللغة العربية ونضجها وقدرتها على حمل ثقافات وافكار غنية، وكانت هذه اللغة قد انتشرت حتى غطت شبه الجزيرة العربية من الشمال الى اقصى الجنوب. وقد رافق الانتشار اللغوى هذا انتشار للعادات والانماط الحياتية التى كان عليها اهل البادية واصحاب اللغة الاصليون، وسادت فى الجنوب كما فى الشمال النظم القبلية والاعراف العشائرية نفسها باستثناء بعض المدن فى اليمن. وقد تزايد نفوذ هذا النظام القبلى حتى خضع له اهل المدر فى مدن مكة والطائف ويثرب، واستحكم بهم تماما. ولا يمكننا فهم سيرة الرسول (ص) وادراك المعانى الحقيقية لمواقفه مع افراد قبيلته، ومعرفة العلاقات التى كانت تربط قريش بباقى القبائل، وكذلك تقييم حروب الرسول (ص) ومغازيه، الا بدراسة المجتمع

العربى آنـذاك والاحاطة باوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسـية، ونقصد بهذه الاوضاع نظامالقبائل العربية فى ذلك الزمان الذى كان يحكم كما اشـرنا سابقا شـبه الجزيرة العربية باكملها تقريبا، ولهذا سـتنتفى الحاجة لدراسة التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية وما سجلهعلماء التاريخ وخبرا الاثار عن تلك الادوار القديمة من تاريخ هذا الجزء من العالم.

النظام القبلى

القبيلـة: وحـدة اجتماعيـة يـدعى افرادها انحـدارهم من اب واحـدحتى لو كان هـذا الاب بعيدا جدا ويعيشون حياة اجتماعية واقتصادية مشتركـة. والحياة الاقتصاديـة المشتركـة، هى عبارة عن امتلاك مرعى ومرتع مشترك، والاشتراك فى سوق القبائل المتنقل، وكذلك الانتقال، من مرعى الى مرعى ومن واحـة الى اخرى بصورة جماعية، اما الاشتراك فى الحياة الاجتماعية فيتحقق من خلال طاعة رئيس القبيلـة او شـيخ العشـيرة كمـا يطلق عليه فى شـبه جزيرة العرب، ومشاركـة افراد القبيلـة جميعا فى الحروب والغزو والـدفاع عنها، واخذ القصـاص وتسـلم الـديات، ديات قتلى القبيلـة من قبيلـة القاتل، وكـذلك دفع ديـة المقتول الى قبيلته، واتخاذ قرار التحالف مع القبائل الاخرى، او بالعكس، اى الخروج من التحالف وفك عرى الاتحاد، وغير ذلك من امور يشترك افراد القبيلـة الواحدة فيها. ويتضح من هـذا ان النظام القبلى من شؤون اهل الباديـة وسـكان الصـحرا، ولهذا فهو نمط من الحياة متقدم زمنيا على نمط حياة المدن، ويعتبر هذا الاخير اعلى مرتبـة منه، واكثر تعقيـدا من ناحيـة التطور الاجتماعى. وتعتبر المسؤوليـة المشتركـة لافراد القبيلـة، فى الدفاع عن مصالحها الاقتصاديـة والاجتماعيـة، من اهم خصـائص النظـام القبلى، وفيمـا اذا جفت الصـحرا وعجزت مواردهـا عن تلبيـة حاجـة القبيلـة وتوفير مسـتلزماتها الغذائية والمعيشية فسيكون ابناء القبيلة جميعا امام مسؤولية مشتركة لغزو القبائل، بل القرى والمدن المجاورة، لتامين الحياة الاقتصاديـة لجميع افراد القبيلـة، وقد اورثت هذه المسؤولية المشتركة لافراد القبيلة، فىالحروب الدفاعية والهجومية، حالة من الشـجاعة والاقدام والجلد عند افراد القبائل لا يملكها اهل المدن بصورة عامة. فالحياة الاجتماعية المتطورة تستدعى تقسيم الاعمال بحيث تكون جماعـة معينـة مسؤولـة عن توفير مسـتلزمات العيش، بينمـا تتحمـل جماعـة اخرى قضايا الـدفاع وحمايـة مصالـح المجتمع. وكان هـذا الاحساس المشترك بالـدفاع عن المصالـح الحيويـة هوالمسؤول عن بروز سـمة التعصب فى المجتمع الجاهلى، وهى حالة من التضامن الوثيق بين افراد القبيلـة الواحدة فى الامور الاقتصادية والمعيشـية، ما لبثت ان تحولت الى امر معنوى روحى كالشـعور بالاعتزاز والفخر والشـرف بالانتماء الى القبيلة، ولولا هذه المشاعر والاحاسـيس، ما كان الانسان القبلى مؤهلا للتحرك والحضور الى ساحة الدفاع متى ما دعت الحاجـة. ومن هنا صارت الشـجاعة والتعصب والشـرف ووالتفاخر بالوحدة القبلية، التى كانت تتشـكل غالبا من المحافظة على الانسـاب وعلى سـمعة الاباء والاجـداد من ان يمسـها شـىء، صـفاتا مشتركـة لافراد القبائل البدويـة بشـكل عام، ولا تشاهـد مثل هـذه الصـفات بين سـكان المدن بصورة عامة، سـيما مايخص الانساب والمحافظة على اسماء الاباء والاجداد التى كانت غائبة فى المدن الا عند الاشراف والاعيان، ولم يتقن اهل المدن فن معرفة القبائل والاحلاف التى تجمعهاوالتفرعات والافخاذ التى تنشا منها.

اهمية النسب داخل القبيلة

رغم الـدور الاساسـى الـذى تلعبه العوامل الاقتصاديـة والاجتماعيـة فى حفظ كيان القبيلـة، يبقى للنسب مكانته الخاصة كمائز تمتاز به القبائل عن بعضـها البعض، ويحدد لها شخصـيتها الذاتية دون ان تختلط مع بعضها. لهذا كان ابناء القبائل يسعون جهدهم لحفظ اسماء آبائهم واجـدادهم، وبـذلك لا يحفظون نسبهم، اى هويـة قبيلتهم، فحسب، بل ويستحضـرون مفاخر القبيلة ومناقبها، ليسـتحثوا الهمم، ويزيدوا التعصب حدة وقوة. وكان سكان المدن لا يشعرون بالحاجة الملحة لمثل هذه الأمور، رغم حاجتهم الى عوامل الفخر والشرف لتحقيق الانجازات الاجتماعيـة المهمـة، لكن ليس بتلك الشدة التى كان عليها اهل الباديه، وكان عمر ينتقص من انباط العراق ويقول: ان هؤلاء ينسـبون انفسـهم الى قراهم ومحال سـكنهم عندما يسالون عن اصـلهم ونسـبهم. وكان يوصـى العرب بالمحافظة على انسابهم

لكى ينتسبوا اليها عندما يسالون عن اصلهم [۷] .

حقيقة النسب

يقول ابن خلدون فى مقدمته: ان النسب امر وهمى ليس له حقيقة، وتكمن اهميته فى ربطه للاقارب بعضهم مع بعض وتعصبهم لبعضهم. [۸] ولعل هذا القول ينطوى على شىء من المبالغة، لكنه لا يفتقر الى الحقيقة تماما، فمن خلال مطالعة علم الانساب لدى العرب نجد فى التحالفات القبلية التى تنظم فيها القبائل الضعيفة الى القبائل القوية، ينسب اهل القبائل الضعيفة انفسهم الى القبائل القوية التى تحالفوا معها، الى ان يؤدى ذلك بمرور الزمن الى نسيان انتمائهم الى قبائلهم الاصلية، ولا يبقى امامهم سوى نسب واحد هو نسبهم الى القبيلة القوية، ويصدق نفس الامر فى حالة الاستلحاق والجوز والولاء بالنسبة الى الافراد.

الحلف

كانت الاحلاف والمواثيق من الامور الشائعة جدا لدى العرب، فرضتها المتطلبات السياسية وضرورات حفظ الكيان القبلى من الزوال، حيث تتفق قبيلتان او اكثر بشكل كلى او فى امور معينة على ان يدافعا عن بعضهما، ويتحدا معاضد العدو المشترك، ويتم هذا الاتحاد فى مراسم خاصة منها القسم اوالحلف، ولهذا سمى بالحلف او التحالف، او ما الى ذلك من الفاظ اشتقت من المعنى نفسه، كما تجرى مراسم اخرى بهذه المناسبة سنشير الى بعضها ضمن الحديث عن حلف «المطيبين». ولهذه الاحلاف آثار كبيرة على النسب كما اشرنا سابقا فغالبا ما ينتهى ابناء القبائل المتحالفة الى نسب واحد بمرور الزمن ويصيرون وكانهم ابناء قبيلة واحدة.

الجوار

من الاعراف التى كانت شائعة لدى العرب والتى فرضتها طبيعة الحياة الصحراوية والقبلية. فكان الفرد او القبيلة الضعيفان يلجاان الى من يجاورهما ويلوذان به خوفا من الافراد او القبائل الاقوى. فهما يطلبان الجوار، وفى حالة قبول لجوئهما او (جوارهما) من قبل الفرد او القبيلة (المجيرة) فسيعتبر الاعتدا على هؤلاء بمثابة اعتدا على الفرد او القبيلة المجيرة، ويحدث احيانا ان يسترد الجوار بطلب من المجيراو غيره، وكل من اعطاء الجوار او استرداده لا يتم الا باعلانه على عامة القوم.

الولاء

وهو من العوامل المهمة فى تعيين النسبة الى القبائل حتى اشتهرت بين العرب مقولة «الولاء لحمة كلحمة النسب». وكان الولاء على عدة انواع، منها ولاء «العنق»، ويتحقق هذا فيما اذا اطلق شخص عبدا، فسينسب ذلك العبد المحرر الى عشيرة الشخص الذى حرره واطلقه، ويسمى مولى فلان «المحرر»، والمولى هو الشخص المتحرر. ولهذه الحالة احكامها الخاصة فى الفقه فى باب المواريث وغيرها. ويرتبط هذا (المولى) اوالشخص المتحرر بالقبيلة التى حررته وينتسب اليها، ولكن مع اضافة كلمة (بالولاء)، اى ان نسبته الى هذه القبيلة ولاء لاحقيقة، ويحصل الولاء ايضا من المعاشرة والحلف والتعاهد كما حدث ليهود يثرب مع قبيلتى الاوس والخزرج. وكان يطلق اسم الموالى على غير العرب جميعا بعد الفتوحات الاسلامية، ولوحظ نوع من الاصرار الشديد على ان يطلق اسم الموالى على غير العرب خلال ايام الدولة الاموية. وينطوى التعبير بالموالى على شىء من الاستصغار والتحقير، فالمولى رغم انه اعلى فى المرتبة الاجتماعية من العبد، الا انه ادنى من المالك. وفى مقدمة ابن خلدون فصل «فى ان البيت والشرف للموالى واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم»، يقول: «فشرف المولى منشق من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم، فلم ينفعه نسب ولادته»، ويروى فى هذا الباب حديث عن الرسول (ص): «مولى القوم منهم».

الاستلحاق

والاستلحاق من الموارد التى يتم فيها الغاء النسب الاصل واكتساب نسب جديد مكانه، وذلك عندما يلحق شخص من عائلة او قوم معينين شخصا آخر بنفسه كابن له او اخ، ويدعى الشخص الذى يلحق نسبه بنسب آخر ب (الدعى) والجمع (ادعياء)، وسنرى كيف ان زيد بن حارثة صار يدعى زيد بن محمد (ص)، وبهذا نزلت الاية (۴) من سورة الاحزاب: (وماجعل ادعى آءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم واللّه يقول الحق وهو يهدى السبيل). وهنا نهى صريح عن (التبنى) اواتخاذ (البنوة). اما الاية التى تليها فتقول: (ادعوهم لابائهم هو اقسط عند اللّه فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما اخطاتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان اللّه غفورا رحيما) «الاحزاب: ۵»، فبعد هذه الاية اصبح زيد يسمى باسم ابيه زيد بن حارثة. ولعل من المناسب ان نذكر الحادثة التى وقعت فى خلافة معاوية، حيث قام معاوية باستلحاق زياد بن ابيه بنسبه، وخالف بذلك صريح الاية الشريفة السابقة، الدال على ان الاب غير الشرعى ليس ابا فى الاسلام، كما ان اثبات ذلك فى الموارد المشكوكة من الأمور الصعبة جدا ان لم تكن المستحيلة.

الخلع

وبعكس الاستلحاق كان هناك الخلع عند العرب، حيث يتم التبرى من الاشخاص الذين يرتكبون الجرائم والاعمال الشنيعة التى من شانها ان تلحق العار بعوائلهم وقبائلهم التى ينتسبون اليها، لذا تبادر القبيلة او الاب الى اعلان المتبرئة من ذلك الشخص على الملا العام، وبعد ذلك تكون الجهة المتبرية غير مسؤولة عن الجرائم التى يرتكبها، وغير ملزمة فى دفع الدية عن الخليع. ويسمى مثل هذا الشخص ب (الخليع)، ويحدث احيانا ان يتحد الخلعاء مع بعضهم فى وسط البادية ليكونوا قوة تهدد الطرق والقوافل. كان قيس بن الحدادية من خلعاء العرب المشهورين، وهو من قبيلة خزاعة، وكان شجاعا وشاعرا، قام بقطع الطرق على القوافل فطردته خزاعة وتخلت عنه، واعلنت ذلك فى سوق عكاظ، وقالت: انها لن تكون بعد الان مسؤولة عن جرائمه، وقد وردت اخبار قيس بن الحدادية (حدادية بضم او كسر الحاء هو اسم امه) فى كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى. [۹] ومن بين الذين خلعوا من قبائلهم فى عهد الاسلام يعلى الاحول الاردبى وهو شاعروقاطع طريق [۱۰] .

اهمية انساب القبائل فى تاريخ الاسلام

تؤكد الاية (۱۳) من سورة الحجرات على هذا الموضوع حيث تقول: (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند اللّه اتقاكم..). والدلالة الالتزامية لهذه الاية الشريفة هى رفض واستنكار العصبيات القبلية والخصومات العنصرية والتفاخر بالانساب، وكلها من الظواهر التى اشتهرت بها العرب، وبلغت حدا جعل القبائل العربية لاتعرف شيئا اسمه قوم او امة (العرب) ولم تكن تفهم معنى للوطنية او القومية، وللقبيلة او الشعب احيانا، الذى هو اكبر منها (مجموعة من القبائل يجمعها نسب واحد) معنى يشبه معنى المدينة عند اليونانيين او معنى الامة عند الكثير من شعوب العالم فى القرون الحديثة. ويطلق على اهل البادية «الاعراب» كما يطلق اللفظ نفسه بنوع من الاستخفاف على البدو الرحل فى الصحرا دلالة على خشونتهم وجفاف اخلاقهم. وقد وردت كلمة (عربى) فى اللغة العربية التى كانت لغة عامة القبائل، ونادرا ما كانت تستعمل كلمة (العرب) بالمعنى نفسه الذى استعملت فيه بعد الاسلام، وقد وردت اشارة فى (سورة الحجرات) الى الحرب التى نشبت بين طائفتين من المسلمين فى المدينة (الاوس والخزرج) على اثر عدا قبلى وتخاصم عشائرى (تفسير الطبرى فى ذيل هذه الاية من سورة الحجرات). ولم يات الاسلام، وهو دين التوحيد، للقضاء على التميز القبلى فحسب، وانما جاء ليمحو التميز العنصرى بشكل عام، وان معنى التوحيد فى مراتبه الدنيا هو ايجاد الوحدة

بين الناس تحت شعار الاسلام. ولم تسنح الفرصة امام هذه التعاليم الالهية السامية لتاخذ طريقها الى قلوب المسلمين بحيث تجعل مفهوم توحيد الناس والمساواة فيما بينهم، التى لم تزل هدف الانسانية المنشود، واقعا معاشا. وفى هذه السورة نفسها اى سورة الحجرات، توجد اشارة الى هذا المعنى، فبعد ان تشجب الاية الشريفة النزاع والتفاخر القبلى تاتى الاية التالية لتقول: (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى‌قلوبكم..) «الحجرات: ۱۴» ويدل مجىء هذه الاية بعد تلك الاية مباشرة على ان المقصود بالايمان هو الايمان بهذا المبداعلى الصعيد الاجتماعى، اى الايمان بالمساواة ورفض التمايز القبلى والتفاخر بالانساب، وهذا ما لم يستقر بعد فى قلوب العرب ووجدانهم. وفى الوقت الذى اختفت فيه المفاخرات النسبية والعداوات القبلية اثناء الفتوحات الاسلامية، نجد انها قد عادت بعد تفجر الحروب الداخلية ايام خلافة امير المؤمنين على بن ابى‌طالب (ع)، واستفحلت فى النصف الثانى من القرن الهجرى الاول، فكانت من اهم الاسباب التى ادت الى سقوط الدولة الاموية. والى هذا السبب يعود الرواج الواضح لعلم الانساب فى القرن الهجرى الاول، حيث كانت التحالفات القبلية الكبرى بامس الحاجة لمعرفة انسابها وشد الاواصر فيما بينها لتدافع عن كيانها وتقاوم اعداها، اضافة الى ان تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام يتلخص ككل فى التنازع والتخاصم القبلى والتفاخر بالانساب، الامر الذى ادى الى تطور علم الانساب لتمييز القبائل المختلفة بعضها عن بعض. ورغم ان الحروب التى خاضها الرسول (ص) كانت بين‌الاسلام والكفر، وبين التوحيد والشرك، الا ـ انها كانت فى لباسها الدنيوى والمادى تتحول الى حرب بين القبائل، ففى الوقت الذى كان الرسول (ص) يقود المهاجرين فى معركة بدر، كان ابو سفيان يقود كفار قريش، والاثنان كانا من قريش، الا انها كانت فى واقعها حربا بين قريش من جانب وقبائل الاوس والخزرج من جانب آخر، فبعد معركة احد نجد شعرا قريش يتغنون بانتصارهم على الاوس والخزرج، ويتفاخرون بذلك النصر. وفضلا عن هذا فان الاية الشريفة من سورة الحجرات، تذكران معرفة القبائل والطوائف والاطلاع على انسابها انما هى من اجل تشخيص هوية الافراد، ولان التاريخ هو عبارة عن تاريخ الاحاد والافراد اذا ما قطعنا النظر عن جانبه العام والانتزاعى فلا يمكن معرفة هؤلاء الاشخاص والاحاد فى التاريخ الاسلامى الا عن طريق الاحاطة بالقبائل والانساب، ومن هنا يمكن ادراك الاهمية الخاصة لمعرفة القبائل وانسابها فى فهم التاريخ الاسلامى.

اقسام الطوائف

كانت القبيلة اشهر وحدة اجتماعية واكثرها شيوعا وتداولا فى حياة العرب فى الجزيرة العربية، ولا نجد تعريفا محددا لها اكثر من كونها اشتراك فى النسب وطرق المعيشة والامور الاجتماعية الاءخرى، فليس من المعروف او الواضح عدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة. وتوجد تقسيمات اخرى اكبر من القبيلة او اصغر منها، تنقسم فيها القبيلة الى فروع متعددة، وهذه الأخرى غير محددة فى‌عدد العوائل او الافراد الذين تتكون منهم، واشهرهذه التقسيمات ما ذكره (النويرى) فى (نهاية الارب) [۱۱] .حيث اعتبر (الجذم) و (الجماهير) و (الشعب) و (القبيلة) من الاقسام الكبرى بينما الصغرى عبارة عن (العمارة) و (البطن) و (الفخذ) و (العشيرة) و (الفصيلة) و (الرهط). واختلف ايضا فى تحديد مصاديق هذه الاسماء، فبينما جرت العادة على اعتبار قريش قبيلة مثلا، نجد علماء الانساب لا يوافقون على ذلك بل يجعلونها عادة عمارة، اما القبائل فهى امثال: مضر، وربيعة، وبنى مخزوم، وبنى عبد مناف، او بنى هاشم، اما بنو امية فهم بطن، ويعتبر العباسيون فصيلة، وكذلك الطالبيون، ويذكر النويرى فى نسب الرسول (ص) بنى عدنان، ويقول: انهم «جذم»، ويطلق على معد «جمهور»، وعلى نزار «شعب»، وعلى مضر «قبيلة»، وعلى خندف «عمارة»، وعلى كنانة «بطن»، وعلى قريش «فخذ» وعلى قصى «عشيرة»، وعلى عبدمناف «فصيلة» ويسمى بنى هاشم «رهط».

اليمانى والنزارى او القحطانى و العدنانى

كانت القبائل فى صدر الاسلام تنقسم الى شعبتين او شعبين كبيرين يمانى ونزارى. وقد حدث ذلك بسبب ما ظهر من خصومات

ونزعات قبلية بين مجموعتين من القبائل. وليس خافيا ان الخصومات القبلية كانت موجودة قبل الاسلام، وكانت فى اغلبها خصومات وحروبا تنشا لعوامل اقتصادية اومعيشية او لاسباب ثارية، اما على شكل خصومات شاملة بين ما يسمى باهل الجنوب واهل الشمال، او القحطانيين والعدنانيين، فهذا ما لم يلحظ قبل الاسلام. ويرجع اصل هذه المسالة الى هجرة القبائل من الجنوب او اليمن الى الشمال، فكانت القبائل التى هاجرت من الجنوب ووجدت لها مراتع شتوية هناك، قد احيت هذه المسالة التى كانت قد طرحت بصورتها العامة المبهمة، حيث ارجع الشماليون نسبهم الى نزار او معد او عدنان، واخيرا الى اسماعيل بن ابراهيم (ع)، ولهذا اصبح جميع هؤلاء يسمون فيما بعد بالعرب المستعربة (اى المتعربين)، فمن المعروف ان اسماعيل وابراهيم ليسا من‌العرب، وصار ابناء اسماعيل عربا بعد ان استوطنوا شبه‌الجزيرة العربية فى جزئها الشمالى، وقد انتسبت قريش، التى كانت تستوطن مكة، الى نزار بن معد بن عدنان، ولهذا صاريطلق على القرشيين (النزاريين) او (المعديين) او (العدنانيين)، اما سكان المدينة وهم فى الغالب من قبيلتى الاوس والخزرج فهم يمانيون جاءوا من الجنوب. وحتى الخصومات التى حدثت بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج لم تكن موجودة قبل الاسلام، ولم ير لها اثر يذكر فى الشعر الجاهلى، بعكس النزاع بين الاوس والخزرج داخل المدينة نفسها حيث كان قدبلغ الذروة قبيل الهجرة، وكاد ان يهدد الطرفين بالفناء. واكتسبت قبيلتا الاوس والخزرج اسما جديدا بعد هجرة الرسول (ص) الى المدينة، فصاروا يسمون ب «الانصار» اما الذين هاجروا من مكة الى المدينة فصاروا يدعون ب (المهاجرين). ولم يظهر فى حياة الرسول (ص) خلاف واضح بين المهاجرين والانصار، اما بعد وفاته (ص) فقد احدثت مسالة الخلافة تنافسا شديدا بين المهاجرين والانصار، او بين قريش وقبيلتى الاوس والخزرج، ويمكن الاشارة هنا الى ظهور بعض الخصومات القديمة بين الاوس والخزرج انفسهم، التى انتهت لصالح قريش وحسمت الخلافة لها. وقد ساهمت الفتوحات الاسلامية وهجرة العرب الى بلداناخرى خارج شبه الجزيرة العربية واستقرارهم فى مدن مثل الكوفة والبصرة، فى تجميد الاختلافات واختفائها مؤقتا. حتى جاء الخليفة الثالث عثمان الاموى القرشى الذى قتل بيد الانصار (اهل المدينة)، فقد تحول هذا الحدث الى حجة رفعها معاوية لتحريك الناس، وتعبئتها للمطالبة بدم عثمان والانتقام من قتلته، وتبدلت هذه الخصومة بين الانصار (وهم من قبائل الجنوب او اليمن) من جانب والمطالبين بدم عثمان من جانب آخر الى خلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال او بين اليمانيين والنزاريين، هذا مع ان قيادة الطرفين المتخاصمين فى معركة صفين كانت من قريش (امير المؤمنين ومعاوية)، وقد بلغ النزاع بين القبائل مبلغا عظيما بعد مقتل‌عثمان ومعركة صفين وعاد كما كان قبل الاسلام، غير ان المسائل الاقتصادية وقضايا قطع الطرق لم تعد موجودة بين الطرفين، بل تجلى الخلاف على شكل نزاع بين طائفتين كبيرتين من العرب اليمانيين والنزاريين. وقد زادت العوامل السياسية هذا النزاع اتساعا واخرجته على شكل خصومات عرقية (لا نقصد بالعرق هنا المعنى المعروف اليوم، بل نقصدبه ذلك الامر الذى يصنف الناس على اساس الدم او الجنس او ما يشبههما من الامور الاءخرى، ويفصل فصلا اصطناعيا بين جماعتين كبيرتين من البشر، ويؤدى الى ظهور النزاع واثارة الضغائن بينهما). وصل الخلاف بين هاتين المجموعتين من القبائل النزارية واليمانية الى الحد الذى اوقد بينهما نار الحرب واحدث معارك داخلية ايام الدولة الأموية ادت الى ضعفها ومن ثم سقوطها، وقد هيات هذه الاختلافات فرصة جيدة للشعرا والخطباء ليذكوا نار الاحقاد ويذكروا الطرفين بامجادهم ومناقبهم، ولم يكن النزاريون او المعديون او العدنانيون، ومنهم قريش والرسول (ص) والخلفاء جميعا، بحاجة ماسة الى البحث عن مفاخر وامجاد اخرى، اما الجنوبيون من اهل اليمن، فقد كانوا فى صدد تحويل هذه الخصوصية الجغرافية الى خصوصية عرقية، فكما ان الشماليين نسبوا انفسهم بموجب العهد القديم الى اسماعيل، نسب الجنوبيون انفسهم الى قحطان (او يقطان كما فى العهد القديم) ومن هنا صار يعرف اليمانى والنزارى بالقحطانى والعدنانى فى التاريخ الاسلامى. ونريد بهذا التفصيل ان نوضح ان تصنيف القبائل العربية الى مجموعتين كبيرتين عدنانية وقحطانية، كان قد ظهربعد الاسلام.. فرغم ان القبائل العربية كانت تحرص فى تاريخها قبل الاسلام على معرفة انسابها واستحضار آبائها واجدادها كوسيلة من وسائل حفظ كيانها وحماية وحدتها.. الاان تلك السلسلة النسبية لم تصل الى حد تقسيم القبائل العربيةجميعا الى قسمين رئيسيين او ثلاثة اقسام او اربعة.

تدوين الانساب

اتضح ان القبائل كانت قبل الاسلام تحرص على حفظ سلسلة نسبها، وكان يوجد بين افرادها من له الخبرة والمعرفة اكثر من غيره، فكانوا يرجعون اليه عندما يشكل الامر عليهم، وكان جبير بن مطعم اكثر افراد قريش معرفة فى علم الانساب اثناء خلافة عمر بن الخطاب، وكان اخذ علمه عن ابى بكر. [۱۲] وهو احد الثلاثة (جبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وعقيل بن ابى طالب) الذين استعان بهم عمر عندما عزم على تشكيل ديوان العطايا لتحديد اعطياتالناس وانسابهم [۱۳] .ونتيجة لتفاقم حالة التنافس والتخاصم بين القبائل نشات الحاجة الى خبرا يهتمون بشؤون الانساب ويدونوها. وظهرت فعلا طائفة من هؤلاء الذين عرفوا ب (النسابة)، وقد الفوا كتبافى ذلك، اشهرها واهمها واكثرها شمولا كتاب (جمهرة الانساب، لهشام بن محمد الكلبى). وبهذا يتضح ان تدوين انساب العرب وجمعها بالشكل الذى ورد فى كتب التاريخ والانساب، قد حدث بعد ظهورالاسلام، وقد دونها المؤلفون وجمعوها من افواه الناس،وبالاستعانة بالنسابة الذين كانوا يحفظون الانساب عن ظهر قلب. ونظرا للعصبيات القبلية الشديدة وما ورد من روايات عديدة حول تزوير الانساب والحاق بعضها ببعض لاسباب سياسية، فان الاعتماد الكلى على المعلومات التى وردت بهذا الشان فى كتب السير والاخبار، قد لا يكون عملا علميا تتوفر فيه الدقة اللازمة، خصوصا ان احتفاظ شخص واحد بمثل هذا العدد الهائل من الاسماء لمدة طويلة قد لا يكون امرا عاديا، سيما اذاكان الاعتماد على الذاكرة وحدها. غير ان الكتابة فى سيرة الرسول (ص) والتاليف فى تاريخ صدر الاسلام، ربما لا يحتاج الى اكثر من معرفة اجمالية، باحوال العرب فى ذلك العصر، وكيف كانوا ينظرون الى التركيب القبلى، وما هى الطبقات التى كان عليها المجتمع العربى، والانساب التى تنتمى اليها القبائل المكونة لهذا المجتمع؟ فكل ما كان من عصبيات وخصومات ومفاخرات مبنى على هذه الامور الادعائية. اما التحقيق او التفصيل فى هذه المسالة، فهو عمل مستقل، وينبغى ان ينظر اليه على انه بحث منفصل عن السيرة والتاريخ، اذ لو انتهى هذا التحقيق الى نتائج علمية غير تلك النتائج التى عرفت عن ذلك العصر ونقلت عنه، فسوف لن يحدث ذلك شيئا على مسار التاريخ. ان العصبيات والمشاجرات جميعا كانت مبنية على اساس مايعرفه هؤلاء من معلومات، وما يعتقدون به من الصحة والخطا، لا على اساس ما هو ثابت حقا وواقعا. ومن اجل ادراك تاريخ الاسلام وسيرة الرسول (ص)، لابد من الاطلاع على اوضاع مدينتى مكة والمدينة ايام ظهورالدعوة الاسلامية، ومعرفة القبائل التى كانت تستوطن هاتين المدينتين، وبناء على هذا سنحاول اولا تسليط الضوء على اوضاع قريش واحوال مكة فى تلك الفترة، اما الاحاطة باوضاع مدينتى الحجاز الاءخريين: المدينة والطائف، ودراسة شؤون القبائل التى كانت تعيش فيهما، فنرجئه الى محله.

مكة قبل الاسلام

واد غير ذى زرع

جاء فى الاية (۳۷) من سورة ابراهيم: (ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون). تنص الاية الشريفة على ان مكة بنيت بواد غير ذى زرع اى غير صالح للزراعة واد يقع بين سلاسل جبلية صخرية، واذا ماسقط عليها المطر احيانا فانه ينحدر بشدة محدثا سيلا. تقعهذه المدينة فى الحجاز فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية بين البحر الاحمر وجبال سراة التى تمتد من الشمال الى حدود اليمن، وتبعد مكة عن ميناء جدة الواقع على البحرالاحمر مسافة (۷۰) كلم. واصبحت هذه المدينة المقدسة، بفضل وسائل المدنية الحديثة، من اهم المدن العامرة فى شبه الجزيرة العربية، اما موقعها فلم يكن مناسبا، كما عرضته الاية الشريفة، للعيش والسكن والعمارة، اذ تتواجد المدن عادة فى الوديان الخصبة، او بالقرب من الانهار الجارية، او على سواحل البحار، او فى السهول الخضرا. وكان كلما اجتمع اهل البادية وبدو الصحرا فى مكان معين، وبداوا يشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، تكونت طبقة جديدة من اهل المشاغل الاخرى غير الزراعية،

كالحرفيين والتجار الذين يقومون بالمبادلات التى كان يحتاجها المزارعون، وتهيئة الوسائل الزراعية واصلاحها، ومع مرورالزمن تكونت مدن تضم اناسا يعملون بغير الزراعة وتربية الحيوانات، وعملهم الاساس هو الحرف والصناعات المختلفة التى نشات الحاجة اليها نتيجة الاشتغال بالزراعة والاستقرار فى تجمعات سكنية كبيرة، وهكذا ظهرت طبقات اخرى من التجار والصرافين والعمال والملاكين والحكام. وبنيت فيما بعد مدن على ضفاف الانهار وفى سواحل البحارلاغراض تجارية، ومنذ الثورة الصناعية وحتى الان اخذت تشاد المدن الصناعية بالقرب من المناجم وحول المصانع الكبرى، وقد اتضح الان افتقاد مكة فى اول بنائها لكل مبررات نشوء المدن، التى مر ذكرها، ولهذا يطرح السؤال التالى: ماالذى دعا الى بنائها؟. ان الهدف من ورا بناء هذه المدينة المقدسة كان هدفا دينيا منذ اللحظات الأولى طبقا للاية الشريفة، بمعنى انها انشئت للعبادة، يعبد فيها ابراهيم وبعض افراد اسرته ربهم الى جواربيته المقدس (عند بيتك المحرم) ولانها كانت غير آهلة وتنعدم فيها الحياة، فقد توجه ابراهيم الى ربه طالبا منه ان يجعل افئدة من الناس تهوى اليهم، لكن يبقى السؤال: لماذا ينشا مثل هذا المبنى المقدس والمعبد الالهى فى مثل هذا المحيط الجاف والقاسى؟.

الكعبة اول بيت

قال تعالى: (ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا) «آل عمران: ۹۶، ۹۷». تؤكد الايتان الشريفتان على ان الكعبة المشرفة الواقعة فى مكة، هى اول بيت وضع للناس، وهنا يبرز السؤال الثانى: كيف تكون الكعبة اول بيت، ومكة اول مدينة، ونحن نعلم يقينا بوجود مدن ومعابد اقدم منهما بنيت منذ القدم فى مصر وكلده وآشور والصين والهند؟. والجواب يكمن فى قوله تعالى: (وضع للناس) فالمعابد التى بنيت فى العصور القديمة كانت خاصة بمدن وقبائل معينة، كما يعكس ذلك بوضوح تاريخ الاديان القديمة والاقوام البائدة، فقد وقعت معارك عديدة من اجل السيطرة على المعابد، ودارت بين الاقوام المختلفة حروب دامية كان هدفها تحطيم معابد الاقوام الأخرى وحرقها، وغالبا ما كانت تعتبر سيطرة قوم ما على المعابد والاصنام علامة على تغلبهم وانتصارهم، بينما تواجه الاقوام المغلوبة التى تحرم من معابدها، وتسلب منها آلهتها، التدهور والتبعية والانهيار القومى والثقافى، وربما الزوال والفناء. وهكذا فان جميع تلك المعابد تشترك فى كونها معابد خاصة بقوم دون قوم، وبمكان دون آخر، خلافا للكعبة المشرفة التى وضعت للناس كافة، من اى عنصر او مكان كانوا. وهنا سيطرح السؤال السابق نفسه بالحاح اشد: ما هى الحكمة من وضع مثل‌هذا المكان المقدس فى هذه الارض الجافة القاحلة؟.

فيه آيات بينات

يجب ان نبحث عن جواب هذا السؤال فى طيات الاية الشريفة التى تقول: (فيه آيات بينات) يقول الطبرى فى تفسيرهذه الاية من سورة آل عمران: ان واحدة من هذه الايات مقام ابراهيم، والأخرى الحجر الاسود، والثالثة الحطيم. ومن المستبعد ان يكون الحطيم الجدار المبنى على شكل نصف دائرة، ويقع حجر اسماعيل بينه وبين الكعبة من تلك الايات الالهية التى تشير اليها الاية الشريفة. اما الحجر الاسود فهو من اوضح تلك الايات واهمها، ومن المحتمل جدا ان يكون بناء الكعبة لاجله. لقد ورد فى الروايات ان الحجر الاسود نزل من السماء، وسنشير فى المواضع المناسبة الى ان كل حادثة دينية لها جانبان: احدهما الهى غيبى، والاخر طبيعى مادى. ولو كانت‌جميع الايات الالهية تظهر للناس على شكل قضايا ربانية خارقة لقوانين الطبيعة، او بعبارة اخرى على صورة معجزات، فلن يبقى مجال للانكار والتغاضى، وبالتالى سيؤمن اشد الناس كفرا واكثرهم عنادا فى التاريخ الاسلامى، امثال ابى جهل وابى لهب. اما اذا خلت الايات الربانية من الجانب الالهى الغيبى، واصبحت لا تختلف عن غيرها من الاءمور الطبيعية، فسيكون لايمان بعض الناس وكفر بعضهم الاخر معنى ومغزى. فالايات الالهية والقضايا الغيبية يجب ان تتجلى فى هذا العالم باللباس المادى الطبيعى، ولا ينبغى ان تكون خارقة للنواميس الكونية والقوانين الطبيعية فى الوقت الذى يستطيع فيه الانسان الواعى ذو البصيرة ان يدرك المعانى الغيبية ويلمح

الاثـار الالهيـة فى تلـك الايات والعلامات. ولا يوجـد تناقض بين ان يكون هـذا الحجر الاسود مرسـلا من السـماء وبين ان يكون احد الاجسام والاحجار السـماوية الكثيرة جـدا المعلقـة فى الفضاء، والتى تسـقط على الارض بـدرجات حراريـة عاليـة جدا نتيجة احتكاكها بالغلاـف الجوى وتاثرها بقوة الجاذبيـة الارضـية، واذا اعتبرها الانسان المادى مجرد حجر هوى من السـماء، فان الانسان المؤمن الـذى يعتقد بالقدرة الالهية والايات الربانية سيرى فى ذلك آية اخرى من آيات البارى جل وعلا. واخيرا فان كثيرا من الايات الالهية تتحول الى امور عادية غير مثيرة تالفها نفوسـنا نتيجة تكررها فنعتاد عليها، امثال النجوم والسماء والارض والقمر وطلوع الشمس وغروبها، التى صـارت ظواهر عاديـة لاـ تلفت نظرنـا بسبب مشاهـدتنا لهـا يوميا،علما ان كل جرم من هـذه الاجرام وكل جسم صـغير نراه على هـذه الارض، انما هو عالم من الايات والغرائب قائم بـذاته. هـذا فى الوقت الـذى ننظر الى الظواهر الأخرى بمزيـد منالاسـتغراب والخشـية، كالخسوف والكسوف والصواعق والزلازل، لانها لا تحدث الا نادرا، كما سن لها الشارع المقدس صـلاة خاصة سميت بصلاة الايات، التى يجب على المكلف اداؤهـا عنـد حـدوث احـدى تلـك الايات. فسـقوط الحجر من السـماء، يعتبر هو الاخر امرا غير عادى، يلفت انظار الانسان الواعى الى عالم آخر غير العالم المعاش يوميا والمتكرر على مـدار الساعة. لقد لفت هذا الحجر، الذى سـقط من السـماء فى مكـة، انظارعـدد من النـاس (وربمـا كـان منهم ابراهيم واسـماعيل) كـانوايعيشون هنـاك، الى وجـود قوة عظيمـة فوق هـذه القوى الاعتياديـة، ولاـ يمكن ارجاعها الى تلك الاصـنام الجامـدة والارباب المفتعلـة. وقـد كان ابراهيم (ع)، طبقا لما يعرضه القرآن الكريم، يفكر منذ الصـغر بهذه القدرة العظيمة التى هى اكبر من الشـمس والقمر والنجوم، وكل الاصنام التى كان الناس يعتقدون انها هى التى تمثـل تلك القوة الخارقـة قـد تحطمت، وكان هـذا ايضا من دواعى الالتفات الى القـدرة العاليـة المتفوقـة على هـذه القوى العاديـة. لا يمكن ان يكون هـذا الحجر الاـسود الهابـط من السـماء الها وصـنما لقبيلـة دون اخرى او لقوم دون قوم، لقـد جاء هـذا الحجرمن جهة اخرى فى هـذا الفضاء معبرا عن تلك القدرة العظمى، اذن لماذا لا نتوجه اليه؟، ونجعل من موضع سـقوطه معبدا نعبد فيه تلك القدرة العليـا التى يخضع الجميع لها؟ وقام ابراهيم (ع) بمساعـدة ابنه اسـماعيل او شـخص آخر قبله ببناء جـدار حول هـذا المكان على شـكل مكعب بواسطة احجار رصف بعضها على بعض حتى وصل ارتفاعها الى ما يساوى قامة انسان او اكثر، ثم وضع الحجر الاسود فى احد اركان هذا المبنى، ولاول مرة وقف ابراهيم (ع) يصـلى الى حجر آخر، وربما تكون صـلاته هذه صلاة يقصد بها وجه اللّه وحده، وفى مكـان لا يختص بقبيلـة او قوم دون غيرهم. وهـذا ما اشارت اليه الايـة الشـريفة (۱۲۷) من سـورة البقرة: (واذ يرفع ابراهيم القواعـد من البيت واسـماعيل ربنا تقبل منا انك انت السـميع العليم). وبهذا اصـبحت الكعبة اول بيت وضع للناس جميعا، فقد اسـس ليعبد فيه رب النـاس جميعـا، والههم الـذى لا شـريك له، وبهـذا فهو اقـدم من معابـد اليهود والنصارى، لان ابراهيم (ع) جـدا ليهود والعرب، وليس هناك فى العالم اجمع من معبـد وضع للّهوحـده اقـدم منه، تقول الايـة الكريمة (۱۲۵) من سورة البقرة: (واذ جعلنـا البيت مثابـة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود).

مكة تصبح مدينة

بعـد ان اسـتقر ابراهيم (ع) وذووه فى هـذا المكان، اخـذ الناس يترددون اليه ويقصـدونه للزيارة او لغيرها، ثم اسـتوطن آخرون المكان نفسه للعمـل على خدمـة الزوار والمسـافرين، واخـذ هؤلاـء يبنون المنـازل لتـامين سـكنهم وسـكن الحجاج القادمين من اماكن بعيـدة، وهكـذا لم يمض وقت طويـل حتى تم تشـييد هـذه المدينـة فى ذلـك الوادى القاحـل الخـالى من الزرع والحيـاة. كانت القوافل تنقل الامتعة، وخاصة المواد الصـمغية والعطرية، من جنوب شـبه الجزيرة العربية الى شمالها، ليستخرج منها الطيب فتعطر به المعابد والمنازل فى الشام وفلسطين وآسيا الصغرى وايطاليا. وكانت هذه القوافل تحتاج الى محطات استراحة على الطريق، وتمثل مكة فى موقعها الذى بنيت فيه محطـة استراحـة جيـدة، وقـد زادتهـا الابـار، التى حفرت فيهـا لتوفير المـاء للزوار والمسـتوطنين، اهميـة، حيث كانت ترد اليها القوافل التجاريـة التى ارهقها الطريق الصـحراوى الطويل، وهكـذا تحولت مكة بمرور الزمن الى مدينة دينية تجارية، اسـتقطبت اهتمام

القبائل التى وقعت بينها معارك عديدة منذ القدم من اجل السيطرة عليها. فخضعت اولا الى سيطرة قبيلة جهرم، ثم خزاعة التى استمرت هيمنتها حتى طردتها قريش وحلت محلها. وقد اشتغل القرشيون كسدنة لبيت اللّه الحرام، يوفرون المستلزمات الضرورية لزواره، ويسهرون على صيانته وحمايته وامنه، واهتموا من جانب آخر بتوفير سوق جيدة لتجار الجنوب والشمال لعرض بضائعهم وبيعها لتجار الشام والعراق وباقى انحاء شبه الجزيرة العربية.

قريش فى مكة

مكانة قبيلة قريش

تصنف قبيلة قريش ضمن القبائل الشمالية او المعدية اوالعدنانية فى التصنيف الاساسى الذى يقسم العرب جميعا الى قسمين رئيسيين: الجنوبيين والشماليين او اليمانيين والنزاريين، او القحطانيين والعدنانيين، وتنتمى قريش الى فرع كنانة من قبائل مضر ضمن القسم العدنانى، ويرجع نسب الرسول (ص)، وكذلك خلفاء بنى امية وبنى العباس واكثر زعماء المسلمين فى صدر الاسلام، الى هذه القبيلة، واذا ماعتبرنا قريش قبيلة، فان تفرعاتها وشعبها يمكن ان نطلق عليها افخاذا وبطونا، ومن اراد الاطلاع اكثر على التاريخ الاسلامى لابد له من الاحاطة بهذه التفرعات التى سيرد ذكرها كثيرا فى التاريخ الاسلامى عند الحديث عن الرموز الاسلامية والشخصيات المرموقة التى تنتهى الى تلك الافخاذ والبطون. فهر بن مالك: تنتهى كافة بطون قريش وافخاذها الى فهر بن مالك بن النضربن كنانة، لذلك فهو الجد الاعلى لقريش. قريش الظواهر: هناك بطنان من اولاد فهر بن مالك يطلق عليهما (قريش الظواهر)، هما بنو الحارث وبنو المحارب، وكانوا يستوطنون خارج مكة، والى بنى الحارث ينتهى نسب عبيداللّه بن‌الجراح، وينتسب الضحاك بن قيس الفهرى، الذى قتل فى معركة (مرج راهط) بين بنى امية وانصار الزبير، الى بنى المحارب، وكان الضحاك على راس انصار الزبير فى تلك المعركة. غالب بن فهر: تلتقى طائفة بنى ادرم ببطون قريش الأخرى فى غالب بن‌فهر، اما البطون الأخرى فجدها لؤى بن غالب. لؤى بن غالب: وهو الجد الرابع لبطن بنى كعب وبنى عامر وبنى اسامة وبنى خزيمة، وكعب بن لؤى جد الرسول (ص)، ويعتبر عمرو بن‌عبد ود العامرى الذى قتل على يد اميرالمؤمنين (ع) فى معركة الخندق من مشاهير هذا البطن. كعب بن لؤى: يعتبر كعب بن لؤى جد الرسول (ص)، الجد الثانى لبطن بنى‌عدى وبنى الهصيص. ويعد عمر بن الخطاب اشهر شخصية فى بنى عدى، وكان بنو الهصيص بطنين، هما بنو سهم وبنو جمح، واشهر رجال بنى سهم عمر بن العاص الداعدا اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع)، بينما كان صفوان بن اميةوعثمان بن مظعون اشهر بنى جمح جميعا. مرة بن كعب بن لؤى: يلتقى البطنان: بنو تيم، وبنو مخزوم، باجداد الرسول (ص) بمرة بن كعب بن لؤى، وابرز رجال بنى تيم: ابو بكر بن ابى قحافة، وليس بين بنى مخزوم او بنى يقظة رجل اشهر من خالد بن‌الوليد، وابى جهل بن هشام الد خصوم الرسول (ص) فى مكة واكثرهم عنادا، هذا وتنتسب ام سلمة زوجة الرسول (ص) الى البطن نفسه. بنو زهرة: ويعتبر كلاب بن مرة بن كعب جد الرسول (ص) جدا لبطن بنى زهرة ايضا، ومنهم ام الرسول (ص) آمنة بنت وهب، وكذلك الصحابى عبد الرحمن بن عوف. بنو اسد وبنو عبد الدار: وتلتقى هاتان الطائفتان بنسب الرسول (ص) بواسطة قصى بن كلاب، واشهر افراد بنى اسد زوجة الرسول (ص) خديجة بنت خويلد، والزبير بن العوام، والى بنى عبد الدار يعود نسب بنى شيبة سدنة الكعبة المشرفة. بنو امية وبنو عبد المطلب: يجتمع بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو امية فى عبد مناف، وينقسم بنو امية الى قسمين: بنو امية الاكبر، ومنهم: عثمان بن‌عفان، وابو سفيان وابنه معاوية، ومروان بن الحكم. وبنو امية الاصغر ويسمون (بالعبلات). بنو هاشم: واليهم يعود نسب الرسول (ص) وامير المؤمنين على بن ابى‌طالب (ع)، فهما من اولاد عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب، ولعبد المطلب بن هاشم، طبقا لقول بعض‌علماء الانساب، اثنا عشر ولدا، هم: عبداللّه، ابو طالب، الزبير،عبد الكعبة، العباس، ضرار، حمزة، حجل، ابو لهب، قثم،عيذاق الحارث. وعبداللّه هو ابو الرسول (ص)، وابو طالب والد امير المؤمنين‌على بن ابى طالب

(ع)، والعباس جد خلفاء بنى العباس. وفى حياة الرسول (ص) اشتهر كل من حمزة وابى لهب، احدهما اكتسب شهرته بنصرة رسول اللّه (ص) ووقوفه الى جانب دعوة ابن اخيه، وهو حمزة، بينما اشتهر ابولهب بعدائه للرسول (ص) وايذائه لاصحابه، وتكذيبه لدعوته (ص). ولم يعقب من ابناء عبد المطلب سوى اربعة، هم: العباس، وابوطالب، وابو لهب، والحارث. [۱۴] وهناك اختلاف فى اسماء بعض اولاد عبد المطلب وعددهم، حيث قال بعضهم: انهم عشرة اولاد.

تسلط قريش على مكة

انشئت مكة اولا كمدينة دينية للزوار الذين يقصدونها من انحاء مختلفة، ثم ما لبث ان اشتغل اهلها بالتجارة، وبعد ان تكاثر اولاد اسماعيل حسب رواية ابن اسحاق فى اطراف مكة، كانت هناك قبيلتان قد تركتا اليمن بحثا عن المرتع والمنزل كما يبدو هما (جرهم) و (قطورا)، قد وصلتا مكة، ووجدتا هناك مدينة نالت اعجابهما لما وجدتا فيها من الماءوالكلا، فوضعتا فيها الرحال، واستقرتا هناك [۱۵] .يفهم من تلك الروايات ان اولاد اسماعيل (ع) وهم سكان مكة الاصليون اخذ عددهم يتزايد حول مكة وفى اطرافها، فبداوا يحفرون الابار، ويزرعون الاشجار، وبعد فترة تحول ذلك الوادى (غير ذى زرع) الى واد عامر، ويفهم مما جاء عقب تلك الرواية ان مكة كانت محطة للقوافل القادمة والذاهبة، غير ان الرواية لم توضح اهداف تلك القوافل، وهل انها كانت تقصد الزيارة والعبادة فحسب، ام انها كانت تقوم بانشطة تجارية ايضا فى هذه البلدة؟ وطبقا لتلك القصة التى اوردها ابن اسحاق، فان ابناء القبيلتين «جرهم» و «قطورا» كانوا ابناء عم، وكان «مضاض» زعيما لقبيلة (جرهم)، بينما اتخذت (قطورا) سميدع، رئيسا لها، واستقرسميدع بقومه اسفل مكة، بينما استوطن (مضاض) مع قومهاعاليها. وقد فرضت الطائفتان ضرائب مالية على القادمين الىمكة، فكانت جرهم تاخذ هذه الضرائب من الزوار القادمين الى مكة من اعاليها وقبل دخولهم اليها، بينما كانت «قطورا» تاخذ الضرائب نفسها من زوار مكة الداخلين اليها من اسفلها. ويبدو ان اهل مكة لم يشتغلوا بعد بالتجارة، وكانوا يعتمدون فى تامين معيشتهم على ما تدره عليهم حيواناتهم، وما يتقاضونه من ضرائب مالية من الزوار. ويبدو ان هؤلاء الزوار الذين كانوا يتوافدون الى مكة بهدف الزيارة وتادية المراسم العبادية المتبعة كانوا فى الوقت نفسه يقدمون بعض الاموال والهدايا الى الكعبة، وهذا ما دعا كل من القبيلتين (جرهم) و (قطورا) الى ان يهجروا اليمن ويتجهوا الى مكة بهدف السيطرة عليها والاستحواذ على هذه الاموال التى كانت تهدى الى الكعبة، وكذلك لتقاضى الضرائب المالية المفروضة على الزوار القادمين الى هذه المدينة الدينية. وقد ادى هذا الطمع الذى قاد كل من «جرهم» و «قطورا» الى ان يتركوا اليمن ويستوطنوا مكة الى التنازع، بل والتقاتل فيما بينهم، كل يريد السيطرة والاستئثار بالمنافع، وحسمت نتيجة الصراع لصالح (جرهم) وانتصرت علينظيرتها (قطورا). [۱۶] .وحين سيطرت جرهم على مكة لم تبادر الى طرد ابناء اسماعيل من هذه المنطقة، بل قامت بتوثيق العلائق معهم وايجاد الصلات المختلفة التى من شانها ان تشدهم وتقارب فيما بينهم، ولكى يجنبوا المدينة (القتل والفساد والتخريب) عمدوا الى ابرام معاهدة صلح فيما بينهم، التزموا بموجبها بحفظ حرمة المدينة وعدم القيام باى عمل من شانه هتك حرمتها وتعكير صفو الحياة فيها. لقد اسهم هذا الوضع فى اعطاء اهمية اضافية لهذه المدينة، وادى الى تزايد عدد الزوار الوافدين اليها، وبالتالى الى تضاعف مواردها المالية. وفى هذا الوقت كانت حالة (اولاد اسماعيل) قد تدهورت، وتحولوا من حاكمين لهذه البلدة الى محكومين فيها، واخذ عددهم يتزايد تدريجيا، بينما كانت الطبقة الحاكمة تبدو اقل عددا، لكنها قد استاثرت (الطبقة الحاكمة جرهم) بجميع الموارد لنفسها، وعاشت حياة مترفة دب فيها الفساد والتهتك، وكانت لا ترعى الا ولا ذمة، ولا تتورع عن ارتكاب مختلف الاعمال التى تتناقض وحرمة هذه المدينة المقدسة، فقد شهرت السلاح بوجه كل من عارضها، واخذتهم بالشدة والقسوة، ثم عم شرها حتى شمل حجاج البيت، فذاقوا منها كل اذى ومكروه. ولغرض التباهى بالاموال واكتساب المزيد من الثروات التى تنفقها للانفاق على الملذات، لجات الطبقة الحاكمة الى زيادة الضرائب المفروضة على الزوار، بل وذهبت الى ابعد من ذلك عندما بدات ببيع بعض الحلى والهدايا الثمينة التى كانت توضع فى الكعبة وتعلق على جدرانها. وقد اتخذ ابناء اسماعيل موقف

الصمت امام هذه الاعمال مراعاة كما يبدو لقرابتهم من الطبقة الحاكمة، واملا فى الحصول على شىء من موارد المدينة وعائداتها، ولم يعترض احد من اولئك الذين كانوا يعيشون داخل مكة على جرهم، بل بدات الاعتراضات تثار عليها من قبيلة قوية اخرى كانت تسكن اطراف مكة هى (قبيلة خزاعة). استفادت قبيلة خزاعة، التى كانت قد جاءت من اليمن من اخطاء جرهم وفسادها، فحشدت حولها المعارضين، وفى مقدمتهم قبيلة بكر، وترجع الى بنى بكر بن عبد مناة، وهى من كنانة، ومن القبائل التى كانت تستوطن شمال شبه الجزيرة العربية، وانضم اليها كذلك اولاد اسماعيل الذين ضاقوا ذرعا بتصرفات «جرهم»، وبهذا استطاعت خزاعة ان تخلع جرهم عن عرشها، وتحل محلها فى حكم المدينة والسيطرة على مواردها الكبيرة التى كانت تاتيهم دونما عناء. بعد السيطرة على الكعبة نشب الخلاف بين الفاتحين الجدد خزاعة، وبكر بن عبد مناة حول الرئاسة، وبعد فترة من الخصومة والنزاع استقرت الاءمور لصالح بطن من خزاعة ترعى (غبشان). وقد اوجد تسلط خزاعة وضعا جديدا فى مكة، فحتى مجيئها كان اولاد اسماعيل ما زالوا يحافظون على بقايا تعاليم دين التوحيد رغم خضوعهم لسيطرة (جرهم)، هذا ما تنقله الروايات التى تتحدث عن تاريخ ما قبل الاسلام، وربما اعتبر ذلك برهان على ان ابناء اسماعيل تبعوا آباءهم فى البقاء على عقيدة التوحيد وعبادة اللّه وحده. غير ان سيطرة جرهم، القبيلة القادمة من اقصى جنوب شبه الجزيرة العربية، ادى الى ضعف هذه العقيدة التوحيدية، وافساد بعض تعاليمها، وقد جاء فى الرواية: «انه كان اولاد معدعلى بقية من دين اسماعيل». ولكن انتهى كل شىء بعد ان سيطرت خزاعة على الاءمور، واعادت الاوضاع الى سابق‌عهدها من الشرك وعبادة الاوثان، وهكذا استحكم الشرك فى مكة. وقد نسبت هذه الاعمال فى تاريخ ما قبل الاسلام الى احد زعماء خزاعة المسمى عمر بن لحى، وقيل انه تعلم عبادة الاوثان من اهل الشام وجاء بها الى مكة، ويبدو ان سبب نسبة عبادة الاصنام التى كانت عليها خزاعة الى عمر بن لحى، يعود الى كون هذا الاخير زعيما لهذه القبيلة التى يعتقد اكثر علماء انساب العرب بانها جاءت من اليمن. وقد خالف بعض النسابة ذلك، وقرروا اعتمادا على بعض الروايات ان خزاعة من عرب الشمال. [۱۷] وبما ان هؤلاء كانوا كبقية العرب من عبدة الاوثان، فقد فرضوا عقيدتهم تلك على اهل مكة، وطبعوا المدينة بطابعهم الخاص. وقد نقلت خزاعة اعرافا اخرى الى مكة، حاربها الاسلام فيما بعد ونهى عن متابعتها، وتركزت هذه الاعراف حول الابل والاغنام التى كانوا يمتنعون عن تناول لحومها فى اوقات معينة او يهدونها الى اصنامهم، حيث نهى القرآن الكريم عن ذلك فى الاية الشريفة (۱۰۳) من سورة المائدة: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام). لكن لم تبلغ عبادة الاصنام فى مكة فى عهد خزاعة درجة تختفى معها كل معالم عقيدة التوحيد من تعظيم بيت اللّه واقامة مراسم الحج، حتى انهم كانوا يرددون اثناء الطواف شعار التقديس للّه ولاوثانهم، ويعترفون بان اللّه هو المالك الحقيقى الذى تستمد منه اصنامهم قوتها، الا انهم كانوا يشركون فى‌عبادته تعالى، حيث يهتفون «لبيك لا شريك لكالا شريك هو لك تملكه وما ملك» [۱۸] .

نمو قدرة قريش وسيطرتها على مكة

فى الوقت الذى كانت فيه مكة تخضع لسلطة خزاعة، كانت بطون قريش وافخاذها متفرقة وموزعة على مناطق متباعدة لايجمعها مكان واحد، وكانت السلطة تنتقل فى خزاعة بالوراثة الى ان وصلت الى آخر زعيم لهم، وهو حليل بن حبشية او (حبشية). ويبدو ان هذا الرجل لم ينجب سوى الاناث، وكانت (حبى) احدى بناته التى زوجها من قصى بن كلابزعيم قبيلة قريش فى حينها [۱۹] .وعلى رواية زيد فان قصى كان قد ذهب الى ديار «قضاعة» مع امه التى كانت قد تزوجت احد رجالهم، ونظرا لابتعاده عن مواطن الاهل، واغترابه، فقد سمى (قصى) اشارة الى ابتعاده وغربته. وكان قصى قد عاد الى مكة ثانية، على اثر حادثة واستطاع بما كان يتمتع به من شجاعة وبسالة ان ينال اعجاب رئيسها فى عهده «حليل بن الحبشية» فزوجه بنته (حبى). وربما كان حليل يهدف من ورا هذا الزواج الى استمالة قريش، والتى كانت قد تزايدت قوتها كثيرا، وكذلك استمالة قضاعة التى تربطها بقصى صلة رحم عن طريق امه. وقد عجز (حليل) فى آخر عمره عن ادا مهامه فى ادارة شؤون‌الكعبة ورعاية زوارها، فسلم مفتاح الكعبة الى ابنته حبى، التى سلمته بدورها الى

زوجها قصى بموافقة ابيها، وقد احسن الزوج ولما كان عليه من ذكاء وطموح استثمار الفرصة، فاخذ يفرض سيطرته على مكة، ويمد نفوذه الى الكعبة ليستولى على مواردها، وكان مما اعانه كثيرا على ذلك اسناد قبيلته «قريش» له، ووقوفها الى جانبه، اضافة الى الدعم الذى حظى به من قبيلة زوج امه «قضاعة»، وكانت كلا القبيلتين على جانب من القوة والنفوذ. وقد بدات خزاعة، بعد وفاة حليل، تخشى قصى وتخاف من تعاظم نفوذه، فبادرت الى اخذ مفتاح الكعبة من حيى، فما كان من قصى الا الاهابة بقريش واحلافها من بنى كنانة وقضاعة للوقوف الى جانبه ومساندته فى نزاعه مع خزاعة، فلبوا دعوته، وحضروا فى موسم الحج الى مكة، اعرابا عن تاييدهم له، واستعدادا للتضحية فى سبيل نصرته. ثم طلبوا الى خزاعة ان تعيد مفتاح الكعبة الى قصى كما سلمه له حليل، غير ان خزاعة رفضت ذلك، فنشب القتال بينها وبين قريش وقضاعة، رغم حرمة المكان (مكة) وحرمة الزمان (ايام الحج)، واخيرا توقف القتال بين الطرفين بتدخل بعض القبائل للاصلاح، ووافقا معا على ان يحكم بينهما رجل من كنانة. ويفهم من فحوى القصة التى ينقلها الازرقى: ان الغلبة كانت لقريش وحلفائها فى هذه المعركة، الامر الذى دفع خزاعة الى الموافقة على الصلح والتحكيم، وهذا ما تؤيده ايضا كثرة القتلى بين بنى خزاعة. كان الحكم من بنى بكر بن عبد مناة، وهم من بنى كنانة المحالفين لخزاعة، ويبدو ان غموض موقف بنى كنانة فى هذه الحرب، ووقوف بعض افرادهم الى جانب قريش، ووقوف البعض الاخر الى جانب خزاعة، واتخاذ بعضهم الحياد، هوالذى دفع قريش لقبول الحكم البكرى الكنانى. وجاء حكم القاضى وهو يعمر بن عوف لصالح قريش وقصى، فقضى ان لا دية للدماء التى اريقت فى هذه المعركة، وان تعود السدانة (سدانة الكعبة) وحمايتها والسهر على مصالحها لقصى، لان حليل كان قد اعطاه اياها. وفى هذا المجال اختلاف بين رواية ابن اسحاق ورواية الازرقى، حيث جاء فى رواية ابن اسحاق ان يعمر بن عوف قد قضى بان لا دية لدم خزاعة، بينما قضى بالدية على خزاعة لما اهرقته من دماء قريش، وسبب ذلك كما هو واضح ان الحق كان مع قريش فى هذا النزاع، وتتحمل خزاعة، التى خاضت حربا ظالمة، دية ما سفكته من دماء قريش. لكننا لا نرى صحة مثل هذا الحكم، اذ يكفى خزاعة ضعفا اقصاؤها عن رئاسة مكة وسدانة الكعبة فضلا عن ان تتحمل دية قتلى اعدائها، وان يصل بها الضعف الى درجة قبولها بمثل هذا العار، وبناء على ذلك فاننا نرجح صحة رواية الازرقى. وهناك نقطة افتراق اخرى بين الروايتين، اذ يعزو ابن اسحاق سبب النزاع الى خلاف حصل بين قصى وبطن الصوفة حول بعض الموارد التى كانت تحصل عليها هذه الاخيرة فى موسم الحج، ولكن هناك غموض فى روايته من ناحية الجهة التى كانت تملك مثل هذه الموارد آنذاك، وهل هى الصوفة، او آل صفوان؟ لذا تصبح رواية الازرقى اكثر قبولا، هذا مع احتمال ان تكون رواية الازرقى قد لاحظت هذا الابهام وبادرت الى تصحيحه. وبغض النظر عن هذه التفصيلات، فان قريش كانت قد فرضت سيطرتها على مكة بمساندة قضاعة، ولعل مسالة التحكيم جاءت لتعطى هذه السيطرة طابعها الشرعى، وتضفى عليها لباسا من الحق، بدلا من ان تكون نتيجة القوة والقهر. وجاء فى رواية الازرقى ان قرار القاضى كان قد نص على عدم اخراج خزاعة من مكة، [۲۰] بينما جاء فى رواية اخريان قصى اخرج خزاعة وبنى بكر من مكة. [۲۱] .وقد تكون الرواية الاخيرة هى الاقرب الى الصحة، باعتبار ان مكة لم تكن بتلك السعة التى تستوعب قريش مع خزاعة التى كانت تسكنها اصلا.

اعمال قصى فى مكة

اسكان قريش

كان اول عمل قام به قصى هو اسكان قريش فى مكة، فقام اولا طبقا لرواية ابن اسحاق بتقسيم مكة بين بطون قريش، واعطى كل جماعة منازلها التى اقامت فيها.

قطع الاشجار

امر قصى بقطع الاشجار التى كانت فى الحرم ليتسنى لقريش البناء فيه، فى وقت كان الناس يتخوفون من قطع الاشجار التى كانت فى مكة باعتبارها جزأ من الحرم. وهناك رواية اخرى تقول: ان الناس ظلت على عبادتها بالامتناع عن قطع اشجار الحرم حتى ظهور الاسلام، وكان عبداللّه بن الزبير اول من خالف هذه السنة باباحته قطعاشجار الحرم [۲۲] .

تاسيس دار الندوة

ان تاسيس مثل هذه الدار التى كانت بمثابة ناد يتم فيه تداول مختلف شؤون المدينة، يعتبر عملا جديدا لم يسبق لاهل البادية ان شاهدوا مثله، وكان قصى طبقا للروايات هو الذى اسسها فى مكة، مع ان مكة كانت قد تحولت الى حاضرة منذز من، وسكنها قبل قريش كل من «جرهم» و «خزاعة». وظل يسودها النظام القبلى حتى ظهور الاسلام، وهكذا كان حال المدن الاءخرى فى شبه الجزيرة العربية، مثل الطائف التى كان يسكنها بنو ثقيف، ويثرب التى استوطنتها قبيلتا الاوس والخزرج، فجاء تاسيس دار الندوة على يد قصى كاول علامة على وجود مدينة بالمعنى الصحيح، كما ان النظام الذى وضع لادارة هذا النادى كان هو الاخر من الأمور الملفتة للنظر وقتها، حيث نص على ان يكون ابناء قصى جميعا اعضاء فى هذا النادى بينما لا يستطيع ابناء بطون قريش الاخرون ان يحصلوا على العضوية الا بعد بلوغهم الاربعين. ويعتبر ذلك اوضح دليل على اعتقاد قريش بضرورة المحافظة على الشرف العائلى، الذى هو من خصائص النظام القبلى، ويعبر شرط بلوغ الاربعين عن اصرار قريش على ضرورة بلوغ عضو النادى مرحلة النضج والكمال العقلى التى لا- تتحقق، فى نظر قريش والعرب جميعا، الا- بعد بلوغ هذا السن. ولم تكن الوظائف التى انيطت بهذا النادى باقل طرافة والفاتا من شروط دخوله، فكانت فى معالجاتها الاجتماعية وتحديداتها الادبية والعرفية تشكل دلالة للباحث الاجتماعى الذى يريد معرفة الشعوب وتقاليدها. كان من مسؤوليات النادى تحديد سن البلوغ، وتزويج الفتيات، وعليه ان يعلن بلوغ الفتاة ذلك السن ويزودها بلباس خاص.. ومن واجبات النادى ايضا ختن الذكور من الاطفال. وكان ينبغىان يتم التزويج بعد موافقة اعضاء النادى، هذا اضافة الى ما كان يقوم به من اعمال سياسية وحربية، كاعلان الحرب، واقامة المراسم الخاصة باستقبال وتوديع القوافل، وجعل باب هذه الدار او تلك الى البيت الحرام. والجدير بالملاحظة ان هذه التشريعات والقرارات التى تصدرعن دار الندوة كان ينظر اليها من قبل قصى على انها سنن مقدسة تجب طاعتها فى الحياة وبعد الممات كالتعاليم الدينية، قال ابن سعد: يتبعون امره كالدين لا يعمل بغيره فيحياته وبعد موته. [۲۳] .

وضع الضرائب

وجاء فى رواية ابن سعد ان قصى كان قد فرض ضرائب مالية على الداخلين مكة من غير اهلها، وكان يعشر من دخل مكة سوى اهلها. [۲۴] فكان على من ينوى زيارة مكة وادا الحج ودخول الكعبة ان يدفع مقدارا من المال، يسهم من خلاله فى تامين ما تحتاجه هذه المدينة الدينية من نفقات وما تحتاجه الكعبة من صيانة وامور اخرى، وشكلت هذه الضرائب المالية موردا لا باس به، مما اثار طمع القبائل، فثارت بينها الحروب والمعارك للسيطرة على هذا الوادى القاحل (غير ذى الزرع).

مناصب الحج

استحدث قصى بعض المناصب، ووزع المسؤوليات المختلفة لتسهيل امر الحج والقيام بالخدمات اللازمة للحجاج باحسن صورة ممكنة، فجعل حراسة الكعبة وخدمتها والسهر عليها والوقوف على ابوابها مسؤولية مستقلة اسماها (الحجابة)، واوكل مهمة القيام بها لجماعة من قريش اسماهم «الحجاب». ثم امر جماعة آخرين بالقيام بشؤون سقاية الحاج وتوفير مايلزمهم من مياه الشرب، وكان هؤلاء يعدون مخازن خاصة للمياه من الجلود، يضعونها الى جانب الكعبة، ويقفون عليها ايام الحج ليسقوا الحجيج منها. واستحدث قصى

ضريبة سماها «الرفادة» وهى مساهمة حالية يدفعها القرشيون سنويا، لتقدم بين يدى قصى فى موسم الحج، الذى ينفقها بدوره على الحجيج الفقرا الذين لايستطيعون توفير ما يلزمهم من زاد ومؤونة اثناء الحج. ووزع قصى تلك المناصب بين ابنائه، فجعل حجابة دار الندوة ورئاستها لعبد الدار الذى كان يحبه كثيرا، وجعله ايضا حامل لوائه، واعطى سدانة البيت وقيادة الحجيج لعبد مناف. وفى رواية اخرى لابن اسحاق: ان جميع هذه المناصب اسندت لعبد الدار [۲۵] لما كان يتمتع به من مكانة خاصة واحترام وتقدير بين ابناء قصى. وبعد معاهدة (حلف المطيبين) صارت سقاية الحاجوالرفادة من شؤون ابناء عبد مناف [۲۶] .

المسؤوليات و المناصب الأخرى

استحدثت بعد قصى مناصب ومسؤوليات جديدة، ظلت تنتقل بين بطون قريش حسب الشرف والمكانة الاجتماعية وطبقة النسب التى تؤلف المنظومة القبلية داخلها، وبمرور الزمن صارت هذه المناصب ارثا كالمناصب السابقة تتداوله بطون معينة من قريش حسب الترتيب الطبقى الذى كان عليه المجتمع المكى، واستمر هذا الوضع الى ان ظهر الرسول (ص) فى مكة، طبقا لما رواه ابن هشامومحمد الكلبى [۲۷] .وفى هذا الوقت كانت السقاية قد اصبحت بيد العباس بن عبدالمطلب، الذى احتفظ بهذا المنصب بعد فتح مكة، وكان ابوسفيان بن حرب صاحب لوا قريش، ويطلق على اللوا اسم (العقاب)، ويحمل اللوا عادة القائد اثناء المعركة، وكلما رفض القائد حمل اللوا وجب على ابى سفيان بن حرب حمله وقيادة المعركة. وكان من الأمور التى استحدثت فيما بعد (الاشناق) وهو من شؤون الدية، ويحق لمن يتسلم هذا المنصب ان يعين الدية التى تقع على القبيلة حسب رايه، وكان لا يقبل ذلك من احد غيره، وقد صار هذا المنصب لبنى تيم، وعندما بعث الرسول (ص) فى مكة كان قد تسلمه ابو بكر. ومن المناصب المستحدثة ايضا منصب (القبة) ومنصب (الاعنة)، وقد عهد بهما الى بنى مخزوم، حتى تولاهما خالد بن الوليد، ويبدو انهما كانا يختصان بشؤون الحرب والتجهيزات الحربية، كتهيئة الخيم والخيول والمؤن وما شابه ذلك. ويبدو ان الحاجة قد دعت قريش الى استحداث منصب باسم «السفارة» يتولى صاحبها تمثيل قريش فى المفاوضات التى تجرى لحل نزاعاتها الحربية مع الاطراف الأخرى، كما ينوب عنها فى جميع المحادثات القبلية التى تعقد عادة لحل الخلافات بين القبائل حلا سلميا، وكان هذا المنصب قد وقع قبل الهجرة النبوية بيد بنى عدى التى انتدبت له عمر بن‌الخطاب، احد ابرز شخصياتها آنذاك، بينما تسلم صفوان بن‌امية منصب الاشراف على اجرا القرعة (الايسار والازلام) وهو من بنى جمح الذين عهد اليهم بهذا المنصب. وجعلوا ادارة الاوقاف والاموال التى كانت تهدى لاصنام قريش فى بنى سهم، وكان المسؤول عنها حينئذ الحارث بن قيس، وقد اطلق على هذه الادارة اسم (الحكومة والاموال المحجرة). ومن المناصب المستحدثة ايضا (العمارة)، وذلك لتنظيم شؤون البيت الحرام، وعدم السماح بارتكاب الاعمال المخالفة للقواعد العامة، او تداول الاحاديث السيئة، او رفع الاصوات بما لا ينسجم والاصول العامة داخل الحرم، واوكل هذا الامر لبنى هاشم. وهناك منصب آخر اطلق عليه (حلوان النفر)، اذ يلجا عادة فى ايام الحرب الى الاقتراع لتعيين رئيس او قائد فخرى للحرب، ويشارك فى هذه القرعة جميع الذكور من بنى هاشم، صغيرهم وكبيرهم. ففى حرب الفجار وقعت القرعة مثلا على العباس بن عبد المطلب كقائد فخرى ورمزى للحرب، وكان حينها طفلا ليس الا. وهكذا يتضح الفرق بين هذا المنصب ومنصب حمل لوا (العقاب).

تغير الوضع الاقتصادى فى مكة

تم لقريش السيطرة على مكة فى اواخر القرن الخامس الميلادى، فقد ولد الرسول (ص) عام (۵۷۰ م) وكان عبداللّه والد الرسول (ص) قد توفى فى الايام الأولى لولادته (ص)، وليس بين عبداللّه وقصى سوى ثلاث بطون (عبد المطلب وهاشم وعبد مناف)، وكان عبد مناف كبير السن حين سيطر قصى على مكة، وبناء على ذلك، فان الفترة بين عهد قصى وعام (۵۷۰م) لا يمكن ان تكون اكثر من (۱۰۰ عام) فى اقصى احتمالاتها، لذلك يمكننا القول ان سيطرة قريش على مكة كان فى حدود اواخر القرن الخامس الميلادى.

ويبدو ان اشتغال قريش بالتجارة تم بعد سيطرتها على مكة وهيمنتها على الحج، حيث اخذت تتاجر مع بلدان اخرى خارج الحجاز وشبه الجزيرة العربية، واصبحت مركزا تجاريا مهما يربط بين سواحل البحر الاحمر والبحر المتوسط وجنوب شبه الجزيرة العربية والعراق، وذلك لوقوعها فى قلب الطرق التجارية التى تصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولا يعنى هذا انعدام النشاط التجارى قبل سيطرة قريش على مكة، فهناك نشاط تجارى سابق بين الروم وبلاد الشام وجنوب شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندى، اذ كانت القوافل التجارية تاتى بالعطور من الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية الى البلاد المتمدنة، وتعود بمصنوعات هذه البلاد الى شبه الجزيرة العربية. لكن هذا النشاط التجارى، كانت تقوم به اقوام اخرى غير اهل مكة، وربما كانت مكة فقط محطةاستراحة وتزود للقوافل التجارية القاطعة للصحرا، والدليلعلى ذلك اننا لم نجد فى اخبار (جرهم) وخزاعة وهم سكان مكة الاصليون ما يدل على انهم كانوا يعملون فى التجارة، كما اننا نجد من الروايات ما يؤكد ان عبد مناف احد ابناء قصى هواول من قام بعقد صفقات تجارية كبيرة مع جيرانه، وحاز علىقبول البدو بمرافقة القوافل التجارية وحمايتها. ويبدو ان القرشيين استفادوا كثيرا من التجارب المرة التى مربها القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية فى حدود عام (۵۲۵ م) فما بعد، والتى انتهت الى سيطرة الاحباش علىاليمن. كان لتلك الحوادث التى وقعت فى اوائل القرن السادس الميلادى فى اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية علاقة وطيدة بالوضع الاقتصادى والسياسى العام لتلك المنطقة، وكانت الامبراطورية الرومانية تسعى لفرض سيطرتها على سواحل المحيط الهندى والبحر الاحمر لتامين الطريق امام القوافل التجارية العائدة اليها. وكانت تحاول ضمن هذا المسعى ان تجد لها موطى قدم داخل شبه الجزيرة العربية، وقد شجعتها مسيحية ملك الحبشة على ذلك ووجدت فيه فرصة مهمة لبسط النفوذ. وقد وقف الملك الحميرى اليهودى (ذو نواس) بوجه النصارى فى شبه الجزيرة العربية والحبشة، فقام ملك الحبشية بتجهيز قوة عسكرية بحرية، وشن هجوما على اليمن بمساعدة الروم، وبعد حوادث عديدة تمت له السيطرة عليها وقتل ملكها (ذا نواس). ثم قام الاحباش بتنصيب احد المسيحيين الحميريين المسمى (سميفع) ملكا على اليمن، [۲۸] وقتلهذا على اثر تمرد كبير حدث ضده، وفتح الباب من جديد لتدخل الاحباش الذين اعادوا سيطرتهم على اليمن، واستمرت هذه السيطرة الى عهد ابرهة (ابراهيم). ورغم انهذا الاخير حبشى، ويبدو انه كان يتبع النجاشى ظاهريا، الا ان ادارته لشؤون اليمن كانت مستقلة. استمر حكم ابرهة لجنوب شبه الجزيرة العربية مدة اربعينعاما تقريبا، وكان قد فرض على القسم الجنوبى من شبه الجزيرة العربية حكما صارما وقويا طيلة هذه الفترة حتى قام بهجومه الشهير على مكة عام (۵۷۰ م)، والذى واجه فيه الفشل الذريع، وبعد هذه الحملة الفاشلة بدا حكمه يتصدع الى ان سقط بعد تدخل الفرس، وانتهى بذلك حكم الاحباش لجنوب شبه الجزيرة العربية. وكان ابرهة قد بلغ فى حكمه لليمن من القوة والهيبة درجة جعلت اباطرة عصره (امبراطور الروم وملك الفرس وملك الحبشة وملك الغساسنة وملك الحيرة) يتسابقون فيما بينهم لخطب وده والفوز برضاه، فكان سفراؤهم يتوافدون عليه الواحد بعد الاخر، وكان ذلك من الامور التى سجلهاابرهة وتركها فى تاريخه. [۲۹] .لقد اعطى هذا الوضع شبه الجزيرة العربية بعدا عالميا، فتحفزت كل من الدولتين الكبيرتين فى ذلك العصر (الدولة الساسانية، والدولة الرومانية) للعمل لايجاد مناطق نفوذ لها داخل شبه الجزيرة العربية. وكان لكل واحدة من هاتين الامبراطوريتين اهدافها الخاصة من ورا هذا النشاط، فكان هدف الفرس هو قطع الطرق التجارية وحرمان الامبراطورية الرومانية من ممارسة نشاطها التجارى والاقتصادى مع بلدان الجنوب، من خلال فرض الهيمنة على سواحل المحيط الهندى وجنوب شبه الجزيرة العربية، وعلى العكس تماما فقد كان الروم يسعون من ورا ذلك الى تامين طرقهم التجارية وحماية النشاط الاقتصادى للامبراطورية الرومانية، الذى كان يوفر لها سلعا رخيصة بطرق سهلة. وكان من الطبيعى ان تحدث هذه التطورات بعض التبدلات فى الاوضاع الاقتصادية والتجارية المحلية والعالمية، وتؤدى الى اكتشاف طرق جديدة للتجارة، وقد اقترنت هذه التطورات مع اخبار متظافرة عن ظهور وضع اقتصادى وتجارى جيد فى مكة، وعن اشتراك قريش كطرف فى التجارة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ومن الطبيعى ايضا ان تعزى هذه المستجدات الى الاحداث المذكورة، رغم اننا ما زلنا نجهل الكيفية التى حصلت بها هذه التبدلات بصورة دقيقة.

تجارة قريش مع الخارج

يقول الطبرى نقلا عن هشام بن محمد الكلبى: «ان اولاد عبد مناف كانوا اول من اخذ لقريش العصم»، اى اول من عقد صفقات تجارية مع الدول المجاورة، فقد ابرم هاشم اتفاقا مع بيزانس امبراطور الروم فى الشام، واخذ عهدا من ملك الغساسنة للمتاجرة مع الشام، بينما عقد عبد شمس (الابن الاخر لعبد مناف) اتفاقا مشابها مع النجاشى الاكبر ملك الحبشة، ومضى نوفل (الابن الثالث لعبد مناف) الى بلاد فارس، فوقع مع خسروان امبراطور الفرس عقدا تجاريا، فى الوقت الذى اختار مطلب وهو الابن الرابع لعبد مناف الدولة الحميرية، كطرف تجارى يتعامل معه، فابرم مع ملكها (ابرهة) او (سميفع) معاهدة تجارية مماثلة للمعاهدات التى عقدها اخوته الثلاثة. وتتضمن رواية الطبرى لهذه القصة نقطة مهمة حيث قال: «فانتشروا من الحرم»، اى خرجوا من مكة، وانطلق وامنها الى الخارج. ولعل ذلك العمل التجارى الاول الذى يقوم به اهل مكة مع الدول المجاورة، ليحصلوا منه ورائه على موارد تتجاوز فى حجمها ما كانوا يحصلون عليه من الضرائب المالية التى فرضت على القوافل التجارية المارة عبر مكة، وما كانوا يجمعونه من الحجيج فى كل عام، وقد رافق هذا النشاط التجارى اضطرابات واسعة وحروب عديدة جرت على ارض اليمن، وادت الى امتناع بعض التجار القدماء من ممارسة نشاطهم التجارى، فى الوقت الذى وقعت تجارة قريش جميعها بيد ابناء عبد مناف. وما يمكن ان نستخلصه من هذا السرد التاريخى ان تجارة قريش مع العالم الخارجى، وما كانت تدره عليها من موارد ضخمة، لم تنعكس آثارها على المجتمع القرشى بصورة عامة، بل استاثر بها عدد محدود جدا من القرشيين شكل مع مرور الزمن طبقة راقية، وتمضى الرواية الى القول: ان هذا الانتعاش التجارى تبعته سنوات من الضيق والشدة، بل القحط الذى حل بمكة، وذهب على اثره الكثير من ثرواتها. وحينها كان هاشم قد سافر الى الشام، وامر من هناك باحضار الخبز وارساله باكياس خاصة الى مكة، كما اوصى بذبح الابل التى كانت تحمل الخبز الى مكة، وتوزيع لحمها على الناس مع ثريد الخبز الذى كان ينقع بماء اللحم، ولهذا سمى بهاشم (لانه هشم الثريد لقومه). ويفهم من ذلك ان التجار كانوا من فئات اخرى غير المزارعين واصحاب الحيوانات والابل، كماان القحط قد اصاب المزارع والحيوانات، ولم يضر بالتجار وتجارتهم، ولهذا استطاع هاشم (وهو التاجر المعروف) انقاذ الموقف بارسال كميات ضخمة من الخبز الى مكة، كما يفهم من توصية هاشم بذبح الابل التى كانت تحمل هذا الخبز الى مكة ان الابل قد فقدت هناك، واصبحت مكة لا تجد منها ماتسد به رمقها.

حملة ابرهة على مكة

بعد ان استتبت الأمور لابرهة فى جنوب شبه الجزيرة العربية، واتسق له الامر، وخضع له جميع القبائل والبدو فى تلك المنطقة، اخذ يفكر فى غزو شمال شبه الجزيرة العربية والحجاز لاخضاعها الى سيطرته وضمها بالقوة الى حكمه، كما هى عادة الملوك دائما حينما يستتب لهم الامر فى مكان معين فانهم يبداون بالتفكير فى توسيع ملكهم وضم المزيد من الاراضى والاقوام المجاورة الى دولهم. وقد لا يخلو الامر من عوامل اخرى دفعت ابرهة الى التشريع فى حملته على شمال شبه الجزيرة العربية، وفى مقدمة هذه الأمور المحتملة سعى ابرهة الى الاقتراب اكثر من الامبراطورية الرومانية فى بلاد الشام، فهما (اى المملكتان) يدينان بالدين المسيحى، رغم ان الاحباش يعقوبيى المذهب، ولهم اختلافاتهم الخاصة مع الروم. ولعل الروم قد ساهموا فى تحريك ابرهة، ودفعه الى هذه الحملة، على امل ان تقع الطرق التجارية المؤدية الى المحيط الهندى فى قبضة دولة مسيحية لا يساورهم القلق بشانها. وربما ساقه الى ذلك حسده لاهل مكة، فضاق ذرعا من اتساع نشاطهم التجارى ونمو ثرواتهم بسرعة فائقة عن طريق التجارة، لقد اثار ذلك الثرا وتلك المكانة الاقتصادية التى كانت تتمتع بها مكة مطامع ابرهة، وجعلته يفكر فى فرض هيمنته على هذا المركز الاقتصادى والتجارى والدينى النشيط. وتذكر الروايات التاريخية من اسباب حملة ابرهة على مكة، انه كان قد بنى فى صنعاء كنيسة كبرى (قليس) وبذل لذلك

اموالا طائلة من اجل ان يحول اليها انظار سكان شبه الجزيرة العربية جميعا، ويجعلها كعبة جديدة لهم، وبذلك تصبح صنعاء المركز السياسى الاهم فى شبه الجزيرة العربية، ويتحول ابناء الجزيرة تدريجيا الى الديانة المسيحية التى كان يدين بها ابرهة وقومه. ولكن الأمور جرت باتجاه آخر، ولم يحظ هذا المبنى الكنسى الضخم باحترام تجار الشمال الذين كانوا يزورون صنعاء باستمرار لغرض التجارة، بل انهم كانوا ينظرون اليه بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز، خصوصا انه انشى من قبل قوم آخرين من خارج شبه الجزيرة العربية ويتكلمون لغة اخرى غير لغتهم. لقد ادت هذه النظرة وذلك الاحتقار الى هدر قدسية هذا المبنى الضخم الذى كان محترما لدى ابرهة، فثار غضبه وقرر الهجوم على المركز الدينى والاقتصادى لشمال شبه الجزيرة العربية لهدمه، والفسح فى المجال امام عاصمته صنعاء لتغدواهم مركز سياسى واقتصادى على ارض شبه الجزيرة العربية، ولتبسط المسيحية وجودها على هذه الارض من الشمال الى اقصى الجنوب. ومهما كانت الاهداف المتوخاة، فقد جهز ابرهة جيشه، واعد نفسه اعدادا جيدا للقيام بهذه الحملة، فتحرك من اليمن قاصدا الحجاز وطبقا لما ورد فى تاريخ هذه الحملة جعل ابرهة على مقدمة جيشه فيلا، كان قد اتى به من افريقيا، اسمه (محمود)، وقيل: انه جلب معه ثلاثة عشر فيلا، وفى طريقه الى الشمال تعرض جيشه الى هجمات متتالية من قبل بدو الصحرا والقبائل الواقعة على الطريق فهزمها جميعا واسر شيوخها، وعندما وصل مكة، كان اهلها قد غادروها ولاذوا بصياصى الجبال والمرتفعات المجاورة. لم يترك ابرهة شيئا من الابل والممتلكات الا ونهبه، حتى قيل انه استولى على مئتى بعير من ابل عبد المطلب وحده، ولماجاءه عبد المطلب يلتمسه ان يرد اليه مئتى بعير اصابها له، قال ابرهة لترجمانه: «قل له قد كنت اعجبتنى حين رايتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى، اتكلمنى فى ابلك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه»؟! قال عبد المطلب: «انا رب الابل، وللبيت رب يمنعه». ثم امر ابرهة جيشه بالهجوم لهدم البيت، فالقى الفيل نفسه الى الارض، فصعدوا الجبل وضربوا الفيل فابى، فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول، ووجهوه الى الشام ففعل كذلك، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه الى مكة فسقط الى الارض. وارسل اللّه عليهم طيرا ابابيل من البحر امثال الخطاطيف، مع كل طير منها ثلاثة احجار تحملها: حجر فى منقاره، وحجران فى رجليه، فقذفتهم بها، وهى مثل الحمص والعدس، لاتصيب احدا منهم الا هلك، وليس كلهم اصابت، وارسل اللّهسيلا القاهم فى البحر، وخرج من سلم مع ابرهة هاربا يبتدرون الطريق الذى جاءوا منه.. فخرجوا يتساقطون بكل منهمل، واصيب ابرهة فى جسده، فسقطت اعضاؤه عضوا عضوا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل الفرخ، فما ماتحتى انصدع صدره. [۳۰] .

القرآن الكريم و اصحاب الفيل

قد يصعب على العقل قبول ما ورد فى كتب التاريخ من تفاصيل حول هذه القصة، خصوصا مسالة الطيور التى امطرت الجيش الحبشى بالحجارة، وكانت السبب فى الحاق الهزيمة به وحمله على الفرار مع قائده ابرهة، لولا نزول القرآن بها ونصه عليها فى سورة الفيل، واخباره عن كيفية هلاك اصحاب الفيل بتلك الحجارة التى حملتها الطير الابابيل. تذهب اكثر الروايات الى ان ولادة الرسول (ص) كانت فى عام الفيل (اى العام الذى حدثت فيه تلك الواقعة، وبما ان الرسول (ص) لم يبعث الا فى الاربعين من عمره الشريف، فان الاشخاص الذين كان لهم من العمر خمسين او ستين او سبعين او ثمانين عاما عند نزول سورة الفيل كانوا من الذينعاصروا هذه الواقعة، وشاهدوا الفيل فى مكة، وهم ما زالوا يتذكرونها جيدا بتفاصيلها، وقد سكتوا ولم يعترض منهم احد، لانهم لاحظوا انطباق الرواية القرآنية على الواقع تماما، وانها لم تات بشىء غير الذى شاهدوه بأم اعينهم، وتختلف هذه الايةعن الايات التى ذكرت احداثا وقعت فى ازمنة قديمة لم يعاصرها احد ممن عاش فى عصر القرآن مثل: (الم تر كيف فعل ربك بعاد) «الفجر: ۶». وقد اشار الشيخ الطوسى فى تفسير التبيان الى هذه النقطة، وبناء على هذا فاما ان تكون القصة كما ترويها الاية بالمعنى الظاهر من الفاظها فى خصوص ارسال الطير الابابيل التى رمتهم بحجارة من سجيل، او تكون للاية الكريمة معنى آخر غاب عنا واصبحنا لا ندركه على حقيقته، لان الكلام الالهى لابد ان يكون مطابقا للواقع والحقيقة، رغم ان هذه الحقيقة قدتبين بصورة التمثيل او التاويل. ورد فى الاية الشريفة

كلمتان لم يتضح معناهما تماما للمفسرين بما فيهم المفسرين القدامى، الاولى: كلمة (ابابيل) والثانية: (سجيل)، فما وضع لهاتين الكلمتين من معنى لم يكن مقنعا تمام الاقناع، فقالوا مثلاـ فى معنى كلمة (سجيل) انها تعريب لكلمتى (سنگ وكل) [۳۱] وهذا يتضمن نوعا من الحشوا لتكرار لا يليق بكلام اللّه. ومن جانب آخر يفهم من الروايات ان جيش ابرهة كان قد اصيب بمرض جلدى (الحصبة او الجدرى) بما فيهم قائد الجيش ابرهة نفسه، واتفقت هذه الروايات على ان ابرهة نجا من الهلاك، وعاد الى اليمن، وعاش مدة هناك قبل ان يموت. واذا ما حاولنا تفسير الايات الشريفة بما ينسجم مع السنن الطبيعية، كان علينا ان نقول: ان اللّه سبحانه وتعالى اراد دفع الاعدا ورد كيدهم عن الكعبة المشرفة، فابتلاهم بمرض شديد لم يستطيعوا معه مواصلة حملتهم، فأجبروا على العودة بعد ان الحقت بهم الخسائر الجسيمة دون قتال، فيصبح ما جاء فى الايتين الكريمتين: (وارسل عليهم طيرا ابابيل، ترميهم بحجارة من سجيل) «الفيل: ۳-۴». اشارة الى هذا المرض العضال، ويمكن ان نستخلص من بعض الروايات ان ثمة عاصفة كانت قد هبت من البحر الاحمر باتجاه مكة، وحملت معها الطيور والحجارة والحصى والقتها على رؤوس الاحباش. ومهما كانت صورة الضربة التى هزم بسببها جيش الحبشة، سوا كانت على شكل طيور حقيقية رمت جيشه بالحجارة فاهلكته، او بصورة اخرى ا كثر انسجاما مع قوانين الطبيعة، فالنتيجة واحدة هى ان اللّه هزم ابرهة وجيشه، وصدهم عن الحاق الاذى بمكة والكعبة المشرفة التى كان مقررا لها ان تصبح قبلة للعالمين ومطافا لهم ومركزا لاعظم واسمى رسالات التوحيد واديان السماء. وهكذا حصلت المعجزة بمنع ابرهة وجيشه من احتلال مكة وقتل الناس هناك وتهديم الكعبة، فان اللّه لم يكن يريد ذلك بل يريد ان يجعل عما قريب من هذه البلدة منطلقا للدين الاسلامى الحنيف الى جميع انحاء العالم.

لايلاف قريش

تاتى سورة قريش بعد سورة الفيل مباشرة فى القرآن الكريم، وتبتدى بالايتين الكريمتين (۱ - ۲): «(لايلاف قريش، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف». وقد اختلف المفسرون فى معنى اللام التى وردت فى (لايلاف) فقال بعضهم: انها لام التعجب، بينما ارجعها آخرون الى السورة التى قبلها (اى سورة الفيل) فيكون المعنى ان اللّه ارسل على الاحباش الطير الابابيل التى ترميهم بحجارة من سجيل ليهلكهم وتبقى قريش آمنة فى رحلتيها التجاريتين: رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام. وقد رفض الطبرى قبول هذا التفسير، وقال: ان ذلك يستلزم كون السورتين سورة واحدة. ومن الطريف ان الفقه الشيعى يعتبر السورتين سورة واحدة، وبناء على ذلك فقد افتى فقهاء الشيعة بان قراة سورة الفيل وحدها بعد الفاتحة فى الصلاة غير مجز، بل لا بد من ان نضيف اليها فى القراة سورة قريش. وقد يكون راى فقهاء الشيعة هو الاصح والاقرب الى مضمون السورتين والاكثر انسجاما مع واقع الاحداث فى تلك المرحلة التاريخية. اذ يقول القرآن الكريم: ان اللّه حطم جيش ابرهة، ورده خائبا، لكى تبقى قريش آمنة مطمئنة فى سفرها التجارى نحو الشمال والجنوب، وهذا بدوره كان احدى العلل التى حفزت ابرهة لمهاجمة مكة. اذ حاول منعها من المتاجرة بين اليمن والحبشة وبين اليمن والمحيط الهندى. وضمن هذا السياق جاءت الايتان (۳- ۴) من سورة قريش: (فليعبدوا رب هذا البيت، الذى اطعمهم من جوع وآمنهم منخوف)، ويمكن ان يكون قوله تعالى: (آمنهم من خوف) اشارة الى قطع نفوذ الاحباش فى شبه الجزيرة العربية الى الابد، فقد تضافرت الروايات على ان هناك ملكين هما (مسروق) و (يكسوم) وكلاهما من ابناء ابرهة حكما اليمن بعد وفاة ابيهما، ثم جاء ملك الفرس انو شروان فاعان سيف بن ذى يزن فى اليمن على الاحباش فطردهم من اليمن وازال ملكهم. كان ذلك بعد سنوات من عام الفيل، اذ لم تزل قريش خائفة غير مطمئنة بعد عودة ابرهة الى اليمن، وهى تتوقع انتقامه لابنائه وجنوده الذين هلكوا هناك فى اية لحظة، الى ان اذلهم اللّه على يد سيف بن ذى يزن والقائد الايرانى وهرز، اللذين طرداهم من اليمن، وطهرا شبه الجزيرة العربية منهم الى الابد.

الاختلافات داخل قريش

مرت الاشارة فيما سبق الى ان كل من هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب، كانوا جميعا ابناء عبد مناف، وقد سيطروا على التجارة الخارجية، حتى صارت حكرا عليهم لا ينازعهم عليها احد، وجمعوا من هذا الطريق ثروة طائلة بهرت الناس من حولهم، فاخذوا ينظرون اليهم بمزيد من التقدير والاحترام، حيث كانت العرب تقيم للمال وزنا كبيرا فى الجاهلية، وتعتبره دالة على الشرف والعظمة ومدعاة للفخر والتباهى. وفى مجتمع كهذا لا تنفصل فيه المكانة الاقتصادية عن الموقع السياسى، فالقدرة الاقتصادية تجلب نفوذا سياسيا يتناسب وحجمها، كان ينبغى لابناء عبد مناف ان يكونوا زعماء مكة السياسيين تبعا لزعامتهم الاقتصادية. اما قصى فقد منح كافة المناصب، وجمع فى يده ازمة الامور الدينية والسياسية وغيرها فى مكة، ثم سلمها جميعا الى ابنه المحبوب لديه عبد الدار، ومن ثم انتقلت بالارث الى ابنائه، فى وقت كان يرى فيه ابناء عبد مناف انفسهم الاولى بهذه المناصب، بعد ان اتسعت تجارتهم فى الخارج، واثروا ثرا فاحشا، وراوا انهم احق بها منهم لشرفهم وفضلهم فى قومهم. لم تذكر الرواية سبب هذا الفضل والشرف، غير انه كان يعود فى حقيقة الامر الى تمولهم. كان هاشم ايام الجاهلية بصدد سلب هذه المسؤوليات من ابناء عبد الدار، غير ان هؤلاء قاوموا تلك المحاولة بطبيعة الحال، ولم يستسلموا لها، ومن هنا بدا النزاع.

حلف المطيبين ولعقة الدم

افلح اولاد عبد مناف فى عقد تحالفات مع بنى اسد وبنى زهرة وبنى تيم وبنى الحارث من بطون قريش، واقسموا ان لايعودوا عن هذا الحلف او تقطع رقابهم. قال البلاذرى: اما الرفادة والسقاية، فانهما لم تزالا فى حياة قصى الى عبد بن قصى، ثم صارتا الى عبد الدار بن قصى، حتى عظم شان بنى عبد مناف بن قصى، فقالوا: نحن اولى بما يتولاه بنو عبد الدار، فجمعوا من مال اليهم وعرف فضلهم من بنى اسد وبنى زهرة وبنى تيم، ومن كان داخل مكة من بنى‌الحارث، واتوا باناء فيه طيب، فغمسوا ايديهم فيه، ومسحوها بالكعبة، وتحالفوا ان لا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحرصوفة، وسمى الحلف بحلف المطيبين [۳۲] .لم يشا ابناء عبد الدار الوقوف متفرجين، بل سعوا الى ابرام اتفاقات تحالفية مع باقى بطون قريش، وكانت هذه البطون،عبارة عن بنى مخزوم وبنى جمح وبنى سهم وبنى عدى، وقدعاب بنو عدى (معاهدة المطيبين) وسخروا منهما بقولهم: «انالطيب لربات الحجال» فاتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا ايديهم فيها، وكان العرب اذا تحالفوا غمسوا ايديهم فى الملح والرماد، فسمى بنو عدى منذ ذلك الحين بلعقة الدم او ولغة الدم. ويقال: ان بعضهم لعق من الدم، وسمى الحلف بحلف لعقة الدم. وهنا تلاحظ آثار النعمة وافرازات الترف، حيث ابى ابناء عبد مناف، وهم التجار الكبار، الذين كانوا فى سفر دائم الى العراق واليمن والحبشة، والاثرياء الاشراف، ان يغمسوا ايديهم بالرماد والملح جريا على العادات السابقة، وبدلا عن ذلك غمسوا ايديهم بالطيب الثمين. فعاب عليهم خصومهم ذلك الترف وسخروا منهم واتهموهم بالتخنث وتقليد النساء فى افعالها، ولكى يظهر اعداؤهم المزيد من الرجولة قرروا غمس ايديهم بالدم لا العطر ومن ثم لعقه. واخذ العدا يتصاعد حتى اوشكت الحرب ان تقع بين الطرفين، لولا ما بذل من وساطات انتهت الى التصالح، على ان تكون مسؤولية (الرفادة والسقاية) لابناء عبد مناف بدل ابناء عبد الدار، بينما اقر هؤلاء على مناصبهم فى (الحجابة وعقداللوا) والاشراف على (دار الندوة)، وعلى حد قول البلاذرى فى (انساب الاشراف) فان ابناء عبد مناف تحملوا العبء الاكبر: «واحتملت بنو عبد مناف اعظم الامور مؤنة». فلا تتم الضيافة ولا السقاية الا ببذل الاموال الطائلة، ولا ينهض بهذه المهمة سوى الاشخاص المتمولين، فى وقت عهد بسدانة الكعبة وادارة (دار الندوة) وهما امران ليس فيهما كلفة زائدة، بل فيهما موارد مالية الى الجماعة الفقيرة. ورغم ان السقاية والرفادة من الامور التى تستنزف مالا ضخما، الا انها كانت كما يبدو تدر على اصحابها موارد جيدة، علما ان قريش جميعها كانت تساهم فى هذه الضيافة، ويقوم كل واحد منهم باستضافة ما يسعه من الزوار والحجاج الفقرا، وتقديم الطعام اليهم دون ثمن، ولكن يبدو ان ما يصرف على الرفادة والسقاية يؤمن اما من الضرائب التى يدفعها القرشيون سنويا، او من الاموال التى يقدمها الزوار الاثرياء كثمن لما ياكلونه من طعام. ومن الادلة على

مساهمة قريش بصورة عامة فى استضافة الزوار ما رواه ابن سعد فى الطبقات، قال: «كان اذا حضرالحج، قام اى هاشم فى قريش فقال: يا معشر قريش، انكم جيران اللّه واهل بيته، وان ياتكم فى هذا الموسم زوار اللّه يعظمون حرمة بيته فهم ضيوفه، واحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم اللّه بذلك وكرمكم به، وحفظ منكم افضل ماحفظ، جار من جاره، فاكرموا ضيفه زوره، فهم ياتون شعثاغبرا من كل بلد على ضوامر كانهن القداح، قد ازحفوا وتفلواوقملوا وارملوا، فاقروهم واسقوهم، فكانت قريش ترافد على ذلك حتى انه كان اهل البيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدرهم، وكان هاشم بن عبد مناف بن قصى يخرج فى كل عام مالا كثيرا، وكان قوم من قريش اهل يسر يترافدون، وكان كل انسان يرسل بمئة مثقال هرقلية (من ذهب او فضة)، وكان هاشم يامر بحياض من ادم فتجعل فى موضع زمزم ثم يستقى فيها الماء من الابار التى بمكة فيشربه الحاج، وكان يطعم اول ما يطعم قبل التروية من كان بيوم بمكة ومنى وجمع عرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى، والماء يومئذ قليل فى حياض الادم الى ان يصدروا من منى، فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس اليبلادهم» [۳۳] .ولنر الان كيف انتقلت مسؤولية الرفادة الى هاشم. هذا ما يجيب عنه البلاذرى فى روايته، حيث يقول: اقترع بنوعبد مناف على الرفادة والسقاية، فصارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم صارتا بعده للمطلب بن عبد مناف بوصية، ثم لعبد المطلب، ثم للزبير بن عبد المطلب، ثم لابى طالب (والد اميرالمؤمنين)، ولم يكن له مال فاستدان من اخيه العباس بن عبدالمطلب عشرة آلاف درهم فانفقها، فلما كان العام المقبل ساله ان يسلفه خمسة عشر «الف درهم، ويقال اربعة عشر الف درهم، فقال له: انك لم تقضى ما لى عليك، وانا اعطيك ماسالت، على انك ان لم تعد الى جميع مالى فى قابل فامرالرفادة والسقاية الى دونك، فاجابه الى ذلك، فلما كان الموسم الثالث ازداد ابو طالب عجزا وضعفا ولم يتمكن من النفقة، واعدم حتى اخذ كل رجل من بنى هاشم ولدا من اولاده يحمل عنه مؤنته، فصارت الرفادة والسقاية الى العباس،وابرا ابا طالب مما له عليه [۳۴] .والذى يفهم من الرواية نفسها ان كلا المنصبين لم يكونا خاليين من الموارد والعائدات، غير ان ابا طالب عجز عن ادارة الموقف لفقره الشديد، اذ لم تسنح له الفرصة بجمع ما كان بذمته من الديون، ويبدو ان هذه العائدات هى التى دفعت العباس الى تقديم مبلغ قدره خمسة وعشرون درهما الى ابىطالب ثمنا للمنصبين.

عبد المطلب

اشاره

عبد المطلب الذى ورد ذكره فى حديثنا عن حملة ابرهة على مكة، كان ابنا لهاشم، اما امه فكانت قد اعجبت هاشما عندما شاهدها فى يثرب فى احد اسفاره التجارية الى الشام، فطلب يدها من ابيها. كانت هذه المراة من بنى النجار من قبيلة الخزرج، وكانت تشترط على من يتزوجها ان يكون الامر لها، واذا ما ضاق الزوج بذلك فلها الحق فى الانفصال عنه والخروج من عصمته متى شاءت، والذى اهلها لمثل هذا الشرط مكانتها الاجتماعية المرموقة، وشرفها الذى استهوى الرجال اليها، هذا وقد اضاف والدها شرطا آخر ان تكون ولادتها فى بيت والدها لا-فى بيت زوجها، وبينما كان هاشم فى سفر تجارى الى الشام وافته المنية فى غزة، وترك الزوجة فى يثرب، وقد اولدها ولدا سماه شيبة الحمد، وسمى بهذا الاسم لانه ولد وفى شعره بياض كالشيب. وبعد ان كبر الوليد ووصل خبره الى مكة، ذهب عمه المطلب الى يثرب وعاد به الى مكة، وحين راى الناس عودته مع المطلب، ظنوا انه عبدا له، فاطلقوا عليه لقد عبد المطلب، فصار اسما له، ولم يفارقه حتى نهاية حياته. وقيل: ان المطلب ادعى فى البداية ان الولد عبد له اشتراه من هناك،فسمى عبدالمطلب [۳۵] .

اعمال عبد المطلب

كانت الرفادة والسقاية قد اوكلت الى المطلب بعد وفاة هاشم، ثم وصلت الى عبد المطلب بوفاة المطلب فى (ردمان) عند ماكان فى

سفر تجارى الى اليمن، ويبدو ان مشاكل السقاية ومصاعب توفير المياه اللازمة للحجيج، دفعت عبد المطلب الى حفر بئر كبيرة سميت فيما بعد ب (بئر زمزم). ولم يكن هذا البئر هو البئر الاول الذى حفر فى مكة، فهناك آبار اخرى تم حفرها فى انحاء مختلفة من مكة قبل هذا التاريخ، بل ان احدى الروايات قد نسبت تاريخ انشاء بئر زمزم الى زمان اسماعيل (ع)، وبهذا تكون زمزم اول بئر تم انشاؤها لسقى الحجاج. الا ان الازرقى يروى ان البئر دفنت فيما بعد بالسيل، ولميبق لها اثر [۳۶] .كانت قبيلة جرهم قد اودعت خزائن الكعبة ونفائسها داخل بئرزمزم قبل ان تخلى مكة، ويبدو انها دفنت البئركى لا ينتفع الاعدا من مائها، ولا يجدون طريقا للوصول الى الخزائن التى وضعت فيها، على امل ان تعود جرهم لاستخراجها ان عادت مرة اخرى الى مكة. ومهما كانت القصة الحقيقية لتلك البئر، فقد دفعت مشاكل السقاية ومصاعب الحصول على المياه اللازمة للحجاج، وتوفير ما يلزم من المخازن، عبد المطلب الى التفكير الجدى بايجاد بئر قرب الكعبة يوفر حاجة الحجيج من المياه، وبتتبع بعض الاثار والعلامات المتبقية اهتدى الى المكان ذاته الذى شق فيه البئر الاولى، وربما كان بعض الناس يستطيع الاشارة الى منطقة تواجده قبل ان يندرس، وقد جاء فى احدى الروايات ان الاهتدا الى موقع البئر، تم عبر رؤيا رآها عبد المطلب فى المنام، حيث شاهد غرابا ينبش الارض بمنقاره، فامر وهو فى المنام ان يشق البئر حيث نقر الغراب. لم يكن لعبد المطلب من الاولاد فى حينها سوى الحارث، فشرعا معا فى حفر البئر، ومثل هذا العمل لا يجد عادة التاييد المطلوب من الناس فى مراحله الاولى، بسبب عدم اطمئنانهم الى النتائج، ولم تشذ قريش عن هذه القاعدة، واكتفت تقريبا بموقف المتفرج. اما بعد ان عثر ابوطالب على بعض النفائس التى كانت مخباة هناك، فقد تغير ذلك الموقف تماما، وابدت قريش حماسا شديدا للمساهمة فى مشروع الحفر، وبعد ان ادعت شركتها فى تلك النفائس وسعت مطامعها، فطالبت بحصة خاصة لها فى ماء البئر وفى موارده الاخرى، وقد ترك هذا الموقف آثارا عكسية فى نفس عبد المطلب، واثار سخطه وامتعاضه، فقرران يهدى الى الكعبة، بعض تلك النفائس المكونة من مجسمتين، كل واحدة منهما على شكل غزال مزين بالذهب، وعدد من السيوف والدروع واسلحة اخرى، فنصبت احدى المجسمتين مع السيوف على باب الكعبة، بينما وضعت المجسمة الاخرى داخل الكعبة حيث تحفظ الهدايا والنذور، وللمجسمة التى نصبت على باب الكعبة قصة طريفة سناتى على ذكرها لاحقا. تطور الخلاف بين قريش وعبد المطلب حتى ذهبا معا طبقالما ورد فى المصادر التاريخية الى احد الكهنة ليحكم بينهما، وبعد جولة من النزاع انتهت الازمة على ما يبدو لصالح عبدالمطلب، حيث تولى امر البئر (بئر زمزم) تبعا لبقائه فى منصب السقاية.

نذر عبد المطلب

كان عبد المطلب، الذى تحمل مشاق حفر البئر مع ابنه الوحيد الحارث، وواجه قريش وخصوماتها، وحده قد نذر ان رزق عشرة من الذكور، فسيذبح احدهم قربانا للمعبد. اذ يبدو ان التقرب بذبح الابن قربانا للمعبد، من التقاليد التى عرفها العرب منذ القدم، وكانت اقدم اشارة الى هذا التقليد عمل ابراهيم (ع) الذى قدم ابنه اسماعيل (ع) قربانا وتله للذبح لولا ان فداه اللّه تعالى (بذبح عظيم) علامة لتقبله القربان، كان نذر عبد المطلب ان يذبح احد ابنائه جزأ من هذا التقليد القديم. وبعد ان رزق عبد المطلب عشرة ابناء، جاء دور الوفاء بالنذر، وجرت القرعة طبقا للاعراف المتبعة على يد سادن الكعبة، فوقعت على اصغر اولاده سنا عبداللّه والد الرسول (ص)، وهناعادت من جديد ذكرى ذلك التقليد القديم، فاعترضت قريش واشارت عليه ان يجعل القرعة بينه وبين مجموعة من الابل، وكانت نتيجة القرعة التى جرت فى البداية بين عبداللّه وعشرة من الابل على عبداللّه، واعيدت القرعة ثانية بعد ان زيدت الابل الى مئة بعير، فوقعت على الابل، وقام عبد المطلب بذبح مئة بعير فدا لعبداللّه. وجعلت هذه الضحايا المئة فى متناول الجميع بلا استثناء، حتى قيل انها قد اكلت منها الوحوش والطيور دون ان يمنعها احد، وكان صاحب النذر وابنه عبداللّه الوحيدين اللذين امتنعا عن تناول شىء منها، وهذا ايضا منالتقاليد المتبعة فى اكل لحوم القرابين.

حلف خزاعة مع عبد المطلب

يعتبر الاطلاع على ما ورد فى المصادر التاريخية من تفاصيل حول الحلف الذى وقعه عبد المطلب مع خزاعة ضرورى المعرفة تاريخ العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامى كذلك، وتتلخص اهمية ذلك بالنسبة الى التاريخ الجاهلى فى اعطاء صورة واضحة عن كيفية ابرام المعاهدات وعقد الاتفاقاتبينالقبائل العربية [۳۷] .واذا ثبتت صحة تلك التفاصيل فانها تكشف بجلاء عن المكانةالمرموقة التى كان يتمتع بها عبد المطلب داخل المجتمع المكى، واوضح دليل على ذلك عنوان المعاهدة، حيث جاء بصيغة: (حلف خزاعة لعبد المطلب) فكان التحالف بين قبيلة خزاعة من جانب، وشخص عبد المطلب من جانب آخر، وقد وقع التحالف اولاده نيابة عنه، ولم يكن بين قبيلتين، ولهذا اعتزعبد المطلب بهذه المعاهدة، واوصى ابنه الزبير بالاحتفاظ بها من بعده، ثم سلمها هذا الى اخيه ابى طالب،الذى سلمها بدوره الى اخيه العباس [۳۸] .اذن كان الحلف بين شخص (يمثل قومه وعشيرته)، وبين قبيلة باكملها، فقد جاء فى نص المعاهدة: (رجالات بنى عمر من خزاعة ومن معهم من اسلم ومالك). [۳۹] وقد تكون هذه المعاهدة هى الاولى التى تم تدوينها ومن ثم حفظها فى الكعبة المشرفة، وهذه هى النقطة الثانية التى تؤكد اهمية دراسة هذا التحالف لمعرفة التاريخ الجاهلى. وربما كانت هناك اتفاقيات اخرى تم ابرامها قبل هذه المعاهدة، ولكن تبقى هذه اقدم معاهدة وصلتنا اخبارها على اقل تقدير. ومن الامور المهمة ايضا فى هذا الاتفاق، ما جرى من التاكيدات لتحكيمه، وما صدر من اعمال لتاييده وامضائه. وتنبع اهميتها بالنسبة الى التاريخ الاسلامى، من كونها المعاهدة التى احترمتها خزاعة فى السنة السادسة للهجرة، اثناء صلح الحديبية، فاختارت الوقوف الى جانب رسول اللّه (ص)، ولتاكيدها واحترامها الغى الرسول (ص) صلح الحديبية عندما قتل بعض المتحالفين مع قريش جماعة من خزاعة، وقد انتهىالامر الى فتح مكة.

اصناف قريش

كانت هناك جماعتان من قريش وقفت ضد عبد المطلب وحلفائه من بنى خزاعة، وهما بنو امية وبنو نوفل، وكان بنو امية قد ناصبوا هاشما وابناءه العدا فى حياة هاشم نفسه، وليس هناك من سبب يحملهم على العدا سوى الحسد والحنق اللذين امتلات بهما صدور بنى امية على هاشم لما كان يتمتع به من مكانة شريفة بين قومه، وقد اضطر امية الى الجلاء عن الوطن بسبب هذه الخصومة والعيش فى الشام فترة عشر سنوات. واضطر عبد المطلب يوما الى الاستعانة بقوم امه فى يثرب، لاسترجاع الارض التى كان قد غصبها منه عمه نوفل، واستعادها فعلا ـ من عمه، وبقيت الضغائن والخصومات تتوارث بين ابناء بنى امية وبنى نوفل ضد بنى هاشم حتى توصلا الى اتحاد يجمعهما ضد عبد المطلب الذى اضطر بدوره الى التحالف مع خزاعة.

الاحابيش

يعتقد (لامنس) [۴۰] احد المستشرقين الاوروبيين انقريش كانت قد فقدت خصائصها القتالية ايام ظهورالرسول (ص)، واعتمدت فى حربها ضد المسلمين على (الاحابيش) ويتكون (الاحابيش) فى راى (لامنس) منالحبشيين والعبيد السود وبعض قبائل البدو الرحل، الذين كانواعلى استعداد للقتال لقاء اجور معينة، ويرد المستشرقونالاخرون على هذه الفكرة، اذ يذكر المستشرق (منغرى واف) ملخصا عن فكرة لامنس فى الملحق (ا) من كتابه (محمد (ص) فى مكة) ثم يرد عليها هو الاخر، وبما انه سيرد ذكر الاحابيش فى تاريخ حروب الرسول (ص)، وخصوصا فى معركة احد، لذا نحاول تسليط الضوء على هذا، ونحن (المؤلف) نرفضوجهة النظر هذه ولا نقبلها عموما. من الامور التى يستدل بها لامنس على تاييد فكرته، التصرفات التى صدرت من قريش بعد هزيمتها فى بدر، فطبقا لسيرة ابنهشام فان قريش اخذت تفكر بالانتقام وتخطط له، وبعد عودة قافلتها التجارية من الشام سالمة الى مكة، قررت ان تنفق

ماجنته فى هذه الرحلة على شرا الاسلحة وتوفير مستلزمات الحرب، ومضت فعلا فى مسعاها لمحاربة الرسول (ص). لقداتفقت قريش (واحابيشها) مع قبائل من كنانة وتهامة على محاربة رسول اللّه (ص)، [۴۱] وعند شروع المعركة (كانااول من لقيهم اى المسلمين ابا عامر من الاحابيش وعبدان اهل مكة). [۴۲] وليس هناك ما يؤيد وجهة نظر لامنس فى كلتا الفقرتين المذكورتين، ومن البعيد ان يكون (بالاحابيش) عبارة عن الحبشيين والسود، وقد وردت كلمة احابيش فى قصيدة لحسان يخاطب بها قريش، غير انها هى الاخرى لا تساعد على وجهة نظر لامنس، يقول حسان:فسقتم كنانة جهلا من سفاهتكم الى الرسول فجند اللّه مخزيهافجمعتموها احابيشا بلا حسب ائمة الكفر غرتكم طواغيها [۴۳] .اعتبر لامنس كلمة «بلا- حسب»، بمعنى (بلا- نسب)، ولا يوجد فى الابيات السابقة ما يؤيد وجهة نظر هذا المستشرق، حيث يعود الضمير (ها) فى «جمعتموها» الى بنى كنانة، ويكون المعنى: (انكم جمعتم بنى كنانة كما جمعتم طوائف اخرى لا اعتبار ولا قيمة لها لمحاربة رسول اللّه (ص». ويذكر لامنس ادلة اخرى كلها من هذا القبيل، اذ ليس هناك ما يساعد على الاعتقاد ان الاحابيش (الحبشيون) والغلمان السود) كانوا مرتزقة، وقد ذكرت كلمة (احابيش) فى بعض الموارد مثل شعر حسان وشعر كعب بن مالك [۴۴] ولكنها كانت تستخدم، ويراد بها الجماعة من الناس ليس الا، سوا فى الموردين الاولين او فى المورد الذى يقول: ان حليس بن زبان، او بن يزيد، كان (سيد الاحابيش)، ففى هذا المورد اطلقت كلمة احابيش على جماعة خاصة من الناس، وقد اعتمد لامنس على كلمة احابيش فى هذه الموارد واستنتج ان المرادمنها (الاحباش والغلمان السود). الا انه ينبغى ان يعرف المقصود الحقيقى بكلمة (احابيش) ومن هم الجماعة الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم. الذى يظهر من الروايات ان الاحابيش كانت تطلق على قبائل بنى‌الحارث بن عبد مناة (من كنانة، و (عضل) و (دليش) (من بنى‌الحصون)و (مصطلق) و (حيا) (من خزاعة) [۴۵] .وطبقا لرواية الدر المنمق [۴۶] التى ينقلها عن ابن ابى‌ثابت، فان قريش بعد ان اخرجت خزاعة وبنى بكر من مكة واصبحت بعيدة عن انصارها من بنى قضاعة وبنى اسد، خافت ان يتعرض انصارها الى الغزو من قبل بنى بكر، فعقد عبدمناف تحالفا مع القبائل المذكورة، وتم ابرام هذا الحلف فى منطقة تبعد عشرة اميال عن مكة تسمى (حبش) واصبح يعرف المتحالفون ب (الاحابيش). وفى رواية اخرى: ان بنى بكر ارادوا فى زمن (المطلب) او (عبد المطلب) بن عبد مناف ان يطردوا قريش من مكة، فعقد (المطلب) حلفا بين قريش و (الاحابيش) (اى القبائل المذكورة) وبمساعدة (الاحابيش) تم لقريش النصر على بنيبكر فى معركة (ذات نكيف) [۴۷] .وجاء فى الياقوت: ان قائد قريش فى هذه الحرب كان عبدالمطلب، بينما ورد فى (الدر المنمق) ان القائد هو المطلب عم‌عبد المطلب، وفى حرب الفجار كان هؤلاءالاحابيش مع قريش [۴۸] .وبهذا يتضح ان الاحابيش قبائل تحالفت مع قريش ووقفت الى جانبها فى نزاعاتها مع الاطراف الاخرى منذ زمان المطلب «اوعبد المطلب الى فتح مكة. والصحيح فى فكرة لامنس هو ان قريش انما لجات الى التحالف مع الاحابيش لخوفها من الاعدا وخشيتها من تغلب الخصوم عليها، ولكن هذا لا يعنى ان قريش فقدت قدرتها على القتال، بل قد يعنى ان قريش كانت بحاجة لمثل هؤلاء الحلفاء وهى منهمكة فى تجارتها لتستطيع بمساعدتهم رد العدوان عنها ودفع الاعدا من التعرض لمصالحها، ومما لاشك فيه ان حلفاء قريش كانوا يتلقون منها بعض الاموال، وليس ببعيد ان تكون ثروة قريش من جملة العوامل التى دفعت الاحابيش للتحالف معها، فالتحالف لا يخلو من مكاسب مادية لكلا الطرفين، خصوصا ان الاحابيش لم يكونوا من قبائل كبيرة او معروفة فى شبه الجزيرة العربية. اما كون الاحابيش جميعا من الحبشيين او العبيد السود، فهذا مالا يمكن استفادته من نصوص الروايات، وتاييده. اعتمد لامنس فى رايه على كلمة احابيش، وقد ذكرت وجوه ومعان عديدة لهذه الكلمة دون ان ياتى ذكر لراى لامنس والمعنى الذى فهمه منها، واكثر الوجوه قبولا ما افاده ابن‌الاثير [۴۹] حيث قال: «التحبش والتجمع».

الحياة المعنوية والاجتماعية فى مكة

اشاره

مرت الاشارة فيما سبق، الى انه طبقا لما ورد فى القرآنالكريم فان ابراهيم وابنه اسماعيل كانا قد بنيا الكعبة فى وادغير ذى زرع، واستقر حولها ابناء ابراهيم بسعيهم وكدحهم ثمهناك انشا ذلك المعبد التوحيدى العظيم. تعتبر مرحلة التوحيد وعبادة اللّه الواحد الاحد متاخرة زماناعن مرحلة الشرك وعبادة الارباب المتعددين فى تاريخ الاديان، من وجهة نظر علماء الاديان. واذا نظرنا الى تاريخ التحولات الفكرية فى المجتمع البشرى، فاننا نرى مرحلة التوحيد ارقى مرتبة من مرحلة الشرك وتعدد الالهة، وفى قصة ابراهيم (ع)، التى يذكرها القرآن الكريمويشير فيها الى التحول الروحى لابراهيم (ع) من عبادة الظواهر الطبيعية الى عبادة اله العالمين، اشارة رمزية الى تحول الانسان الفكرى من الشرك الى التوحيد، وهذا لا يتنافى مع كون الانبياء موحدين منذ البداية، فان الشرك مقدم من الناحية الطبيعية على التوحيد، واول مهمة للانبياء والمبعوثين الالهيين، محاربة الجهل الذى هو جزء من الطبيعة البشرية. وان الشىء الفطرى المغروس فى النفس الانسانية والذى بينه اللّه تعالى انما هو الاعتقاد بالخالق والصانع، اما الاعتقاد بالتوحيد والايمان به فهذا ما يعلمه الانبياء. فكلمة (لا اله الا اللّه) اقرار بالتوحيد، لا الخالق والصانع. وطبقا لما جاء فى القرآن الكريم فان قوم نوح كانوا يعبدون الاصنام، بينما كان نوح، الذى شرفه اللّه تعالى بالنبوة، يدعوهم الى ترك عبادة الاصنام والارتقاء بتفكيرهم الى مستوى اعلى. تمثل مرحلة الشرك ادنى مراتب التفكير، ولهذا فهى من الناحية التاريخية اقدم من مرحلة التوحيد، وفى الوقت الذى جعل ابراهيم (ع) وابنه اسماعيل من الكعبة مقرا للعبادة وبيتا للّه سبحانه، نجد من جاء بعدهم قد ارتد بهم التفكير كباقى ابناء زمانهم، الى ادنى المستويات، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الكعبة المشرفة الى محل تنصب فيه الاصنام، ويعبد فيه الارباب كباقى المعابد عند العرب. جاء فى الروايات وفى اخبار العرب ايام الجاهلية: ان الذى اتى بعبادة الاصنام هم خزاعة وبالذات رئيسهم عمر بن لحى، فهو الذى جاء بالاصنام من الشام ووضعها فى الكعبة. وتقول روايات اخرى: ان ابناء اسماعيل كانوا ياخذون معهم عند السفر احجارا من الكعبة للذكرى والاعتزاز، ينصبونها فى اى مكان يحلون فيه، ثم يبدؤون بالطواف حولها، وبالتدريج غشيتهم الغفلة عن اللّه واخذوا يعبدون هذه الاحجار من دونه. ان تقدم الشرك على التوحيد شىء طبيعى كتقدم الجهل على العلم والتعقل، [۵۰] ولهذا السبب عادت الكعبة ثانية لتتحول كباقى المعابد الى بيت للاصنام، لكن ذلك لم يقضعلى الاعتقاد الراسخ فى اعماق النفس الانسانية بالصانع الذى خلق الكون والحياة، وظل اهل مكة يعتقدون باللّه الاله الخالق الذى هو اكبر من بقية الالهة، ففى الوقت الذى يقدمون نذورهم وهداياهم وقرابينهم الى الالهة الصغار التى يطوفون حولها ويعبدونها دوما، وهم يقولون كما جاء فى القرآن الكريم: (ما نعبدهم الا ليقربونا الى اللّه زلفى) «الزمر: ۳» او يقولون:هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه: (ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه) «يونس: ۱۸». لقد حفظ لنا تاريخ العرب فى الجاهلية عددا كبيرا من اسماء هذه الاصنام، كما ورد ذكر بعض منها فى القرآن الكريم فى الايات (۱۹، ۲۰، ۲۱) من سورة النجم: (افرايتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الاخرى، الكم الذكر وله الانثى). كان (مناة) على ساحل البحر بين مكة والمدينة، وكان اهل المدينتين (مكة والمدينة) يقدمون له المزيد من القرابين والنذور، ويكنون له قدرا خاصا من التعظيم والتبجيل. ولا يكتمل حج الاوس والخزرج وكلاهما يستوطن يثربالى الكعبة الا بعد ان يزوروا مناة، وبعد زيارة مناة يحلقون رؤوسهملا قبلها. [۵۱] .اما (اللات) فهو احدث من مناة، وكان محله الطائف، ومنها كان سدنته وخدامه. ويبدو ان العزى كان احدث من الاثنين (اللات ومناة) واكبر منهما، بل هو اكبر اصنام قريش قاطبة، وكان الكل يزوره ويقدم له القرابين والنذور، وكانت من بين الاسماء التى تتردد كثيرا فى قريش: (عبد اللات) (عبد مناة) و (زيد اللات) (وعبدالعزى) ويحكى ذلك عن عبادتهم لهذه الاسماء. ومن اصنام قريش المهمة (هبل) وقد جعل له مكان داخل الكعبة، وتم صنعه من العقيق على هيئة انسان، وقد صاغت له قريش يدا من الذهب جعلتها مكان يده اليمنى المقطوعة اصلا، وكان قد وضع امامه سبعة اقداح (اسهم)، يرجع اليهاعادة فى اجرا القرعة للامور المهمة والمعقدة، واذا ما واجه شخص مشكلة ما يعود الى هذه الاسهم، ويختار واحدا منها، ثم يقرا ما كتب عليه من كلمات لتخبره بعاقبة عمله. ان كانت خيرا او شرا. وغالبا ما يرجع الى هذه الاسهم لحسم احدى المشاكل الاجتماعية المهمة التى كانت تعانى منها قريش بل العرب جميعا، وهى كيفية معرفة الاب الاصلى للمولود فى ضوء العلاقات غير الشرعية واختلاط الدماء

وتردى اوضاع الزواج والطلاق، وما الى ذلك من مشاكل سناتى على بحثها لاحقا. كان يتم حسم المشكلة التى تنشا من صعوبة تشخيص الاب الحقيقى للمولود باجرا القرعة على سهمين من السهام السبعة الموجودة الى جانب هبل، وقد كتب على احد هذين السهمين كلمة (صريح) بينما كتب على الاخر كلمة (ملصق)، فاذا اصابت القرعة (الصريح) اصبح المولود ابنا حقيقيا لذلك الاب المشتبه، واذا ما اصابت (الملصق) ارتفعت ابوة هذا الاب.اوقل ارتفعت بنوة هذا المولود المشتبه لهذا الاب. [۵۲] .وعندما غلب المسلمون فى معركة احد صاح ابو سفيان زعيم المشركين (اعل هبل). يوضح تاريخ العرب قبل الاسلام ان القبائل العربية كانت تتخذلها اوثانا خاصة، فلكل قبيلة صنمها الخاص الذى لا تشاركها بهالقبائل الاخرى وان كانت تحترمه وتقدسه، فمثلا اتخذت قبيلة هذيل (سواعا) وقبيلة كلب (ودا) او (ودا) وقبيلة مذحج (يغوث) بينما اختصت قبيلتا حمير وخيوان ب (نسر) و (يعوق) على التوالى. [۵۳] وقد وردت اسماء هذه الاوثان فى سورة نوح، ويفهم من السورة المباركة ان قوم نوح كانوا هم ايضا يعبدون هذه الاوثان. بالاضافة الى هذه الاصنام التى كانت تعبد على امتداد شبه الجزيرة العربية والتى كانت لها اسماؤها الخاصة، كان هناك ثمة اشياء اخرى عبدها الناس من دون اللّه، واطلق عليها اسم (الانصاب) او (النصب) التى وردت فى القرآن الكريم فى سورة المائدة الاية (۳)، التى استعرضت الحرام من اللحوم فقالت: (وما ذبح على النصب) وذكرت (الانصاب) فىالاية (۹۰) من السورة الشريفة نفسها كواحدة من المحرمات التى تعرضت لها السورة. والانصاب او النصب عبارة عن احجار كانت توضع امام الاصنام لتذبح عليها القرابين المقدمة لتلك الاصنام، وكان ينبغى ان تلطخ بالدم حتى تخضب تماما وتصطبغ جميع اجزائها به. والغبغب او العبعب هو اسم للمكان الذى تذبح فيه القرابين. وقال بعضهم: انه الحفرة التى ينحدر اليها الدم، من فوق الانصاب، او الاخدود الذى تكدس به النذور والقرابين المقدمة للصنم. والقربان اسم مشتق من (القرب) وهو الحيوان الذى يذبح فى مراسم خاصة من اجل التقرب به الى الرب. وتسمى الحيوانات التى كانت تقدم كقرابين فى شهر رجب ب (العتيرة)، وتقدم القرابين عادة للوفاء بالنذر او الوفاء بالعهداو لاتمام مراسم الحج والزيارة. وتحترم الاصنام ما دامت لا تتعارض مع مصالح الزوار والعباد، وفى هذا المجال قصة طريفة اوردها ابن الكلبى فى (الاصنام) وجاء فيها انه حينما اراد الشاعر المعروف امرؤ القيس الهجوم على بنى اسد انتقاما لدم ابيه، ذهب الى صنم من الاصنام يدعى (ذو الخلصة) يطلب استشارته بالامر وبعد ان اجرى القرعة فى السهام الموضوعة امام الصنم، وقعت القرعة على «الناهى» اعادها ثلاث مرات فلم تصب غير (الناهى) و (الناهى) كناية عن النهى عن ذلك العمل، فغضب امرؤ القيس، وحملعلى الاسهم فكسرها وضرب بها وجه الصنم، ثم شتمه وقال له: لو كان المقتول اباك لما نهيتنى عن هذاالعمل [۵۴] .كانت الشمس والقمر كذلك من ارباب العرب، ولهذا سمى بعضهم بعبد شمس، وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك فى الاية (۳۷) من سورة فصلت: (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر). وجاء فى الايتين (۵و۶) من سورة الرحمن (الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان) وقال فى سورة الانعام الاية ۹۶: (فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا). تشير سورة الرحمن ايضا الى ان قسما من العرب كانوا يعبدون بعض النجوم والاشجار، وقد ورد فى قصة العزى ان امراة شريرة كانت تختفى ورا اشجار ثلاث، كان خالد بن الوليد قد قطعها بامر من الرسول (ص)، فوجد تحتها امراة سودا شعثاء الشعر. وتظهر هذه القصة صحة الاخبار التى تتحدث عن عبادة الاشجار عند العرب، وقد شجب القرآن جميع الارباب المتخذة من دون اللّه، ونهى عن عبادتها، وقال فى الكتاب الكريم: ان الشجر والنجم انما هى مخلوقات للّه عز وجل تاتمر بامره. ويرى المؤلف ان تاويل بعض المفسرين الذى ورد فى الاية الكريمة بانه نوع من العشب غير صحيح، حيث يذهب اكثر المفسرين الى ان المراد بالنجم، الذى اقسم به البارى فى سورة النجم بقوله: (والنجم اذا هوى) «النجم: ۱»، هو الثريا، واقسم بنجم آخر فى سورة الطارق: (والسماء والطارق، وما ادراك ما الطارق، النجم الثاقب) «الطارق:۱-۳». ويبدو ان الليل والنهار هما ايضا من الاشياء التى عبدها العرب، وكانوا لها يعكفون، او انها كانت على الاقل تنال منهم احتراما وتقديسا، هذا ما يمكن استخلاصه من بعض الايات فى سورتى الانعام وفصلت، فقد ورد فى مقام الرفض والنهى عن ذلك ان اقسم اللّه تعالى بهما باعتبارهما آيتين من آيات اللّه فى هذا الكون، ففى سورة الشمس اقسم اللّه تعالى بالشمس والقمر

بقوله: (والشمس وضحاها، والقمر اذا تليها، والنهار اذا جليها) «الشمس: ۱-۳». وفى سورة الليل: (والليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلى) «الليل: ۱-۲». وفى سورة المدثر: (كلا والقمر، والليل اذ ادبر، والصبح اذا اسفر) «المدثر: ۳۲-۳۴». توضح هذه الاقسام الالهية، بالشمس والقمر والليل والنهار والصبح، المكانة غير الاعتيادية والاحترام والتقديس التى كانت تحظى بها هذه الظواهر الطبيعية عند العرب، ففى الوقت الذى يلفت به البارى جل شانه من خلال القسم الانظار الى هذه الظواهر باعتبارها ظواهر طبيعية، يشير الى انها معلولة له ومؤتمرة بامره، حيث قال فى سورة التكوير: (اذا الشمس كورت، واذا النجوم انكدرت) «التكوير: ۱-۲»، وفى موضع آخر يستعرض التحولات والتغيرات التى تحدث فى الطبيعة من قبيل (ادبر)، (اسفر)، (جليها)، (يغشيها)، ليؤكد على انها امور زائلة لا تستقر على حال، وقد يوحى ايضا القسم بالسماء والارض كما فى: (والسماء وما بنيها، والارض وما طحيها) «الشمس: ۵-۶». قال بعضهم: ان الشمس كانت عبارة عن وثن من اوثان العرب. [۵۵] وورد فى كتاب (المحبر) اسم الشمس اثناء استعراضه لتلبية الاصنام، غير ان الظاهر ان المقصود بالشمس التى استعرض تلبيتها المخبر هى نفس الشمس السماوية، وكانت تلبية الذين يعبدون الشمس طبقا لما قاله المخبر (ص۳۱۲) كما ياتى: لبيك اللهم لبيك لبيك ما نهارنا بجره ادلاجه وحره وقره لا نتقى شيئا ولا نفره حجا لرب مستقيم بره. وارى (المؤلف) عدم صحة بعض الكلمات الواردة فىالمحبر، وقد بادرت (المؤلف) الى اصلاحها، فنجره بدل بجره، ونضره بدل نفره. جاء فى قصة (المنافرة بين عبد المطلب وثقيف) التى وردتفى (المنمق) ان الكاهن او القاضى الذى حكم بينهم كان قد اقسم ب (الضياء والظلم)، وقد ورد قسم مشابه فى سورة التكوير: (والليل اذا عسعس، والصبح اذا تنفس) «التكوير:۱۷-۱۸» واقسم فى سورة الواقعة بمواقع النجوم واعتبره امرا عظيما: (فلا اقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمونعظيم) «الواقعة: ۷۵-۷۶».

الحج و العمرة

تبلغ مكة فى موسم الحج والعمرة اوج حركتها وحيويتها المعنوية، ولقد اجرى الاسلام تغييرات مهمة فى مناسك الحج الجاهلى وآدابه، وجعله واجبا عينيا على كل مسلم مرة واحدة فى حياته ان استطاع اليه سبيلا، والذى ابطله الاسلام من مناسك الحج الجاهلى تلك الامور المتصلة بالاصنام اوالتى لا- تليق بالاداب العامة، وحافظ على تلك المراسم التى تؤكد التوحيد والاخلاص للعبادة للّه وحده وتبنى السلام وتشيع الامن العام وترسخ الوحدة بين المسلمين، كما شدد على اقامة المناسك التى من شانها ان تزيل الامتيازات الطبقية او الاقتصادية او العنصرية وتقوى رابطة الاخوة بين المسلمين جميعا، بما فيهم الفقرا والاغنياء، الضعفاء والاقوياء دون فرق بين احد منهم. لما حج النبى (ص) خطب الناس بعرفة وقال (ص): ان اهل الشرك والاوثان كانوا يدفعون من عرفة اذا صارت الشمسعلى رؤوس الجبال كانها عمائم الرجال فى وجوههم، ويدفعون من مزدلفة اذا طلعت الشمس على رؤوس الجبال فانها عمائم الرجال فى وجوههم، وانا لا- ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس وغسل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غدا ان شاء اللّه قبل طلوع الشمس هدينا مخالف لهدى اهلالشرك والاوثان. [۵۶] .كانت قريش ترى لنفسها امتيازات واحكام خاصة فى الحج، بعبارة اخرى كان لها حجمها الخاص، فهى لا تخرج عن اطار حدود الحرم ولا ترى الوقوف بعرفات جزأ من الحج، بل تراه واجبا على اهل الحل، فقط، وهم اولئك الذين ياتون من خارج حدود الحرم، بينما كان يجب على باقى الناس ان يخلعوا ما عليهم من ملابس ولا يدخلوا فى مناسك الحج الا- بعد ان يرتدوا ملابس يشترونها او يستعيرونها من قريش، فى وقت كان القرشيون يؤدون مناسكهم بلباسهم العادى دون تغيير او تبديل. وفى حال عجزهم عن الحصول على ملابس قرشية شرا او اعارة كان عليهم ان يطوفوا عراة كما ولدتهم امهاتهم. وقد شجب البارى جل شانه هذه الفاحشة ونهى عنها فى محكم كتابه الكريم: (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللّه امرنا بها قل ان اللّه لا- يامر بالفحشاء اتقولون على اللّهما لا- تعلمون) «الاعراف: ۲۸». ينقسم العرب فى ادائهم لمراسم الحج الى مجموعتين: مجموعة (الحمس) ومجموعة (الحلة) او اهل الحل، ولكل من المجموعتين اعمالها الخاصة فى الحج، وقد اضاف البعض مجموعة ثالثة سماها (الطلس) وهم الذين يحجون بمناسك بعضها من الحمس وبعضها الاخر من اهل الحل. والحمسهم اهل قريش

وقبائل خزاعة والقبائل التى لها صلة ونسب بقريش. وقد استغلت قريش موقعها فى سدانة الكعبة المشرفة، فاتخذت لنفسها امتيازات خاصة، كالتى اشرنا اليها من عدم الوقوف بعرفات والطواف بنفس ملابسهم دون حاجة الى تبديلها كما هو الحال مع اهل الحل، غير انهم الزموا انفسهم التزامات اخرى وشددوا عليها، فاذا نسكوا لم يدخروا لبنا، ولم يحولوا بين مرضعة ورضاعها حتى يعافه، ولم يجزوا شعرا ولاـظفرا، ولم يدهنوا، ولم يمسوا النساء ولاـ الطيب، ولم ياكلو الحما، ولم يلبسوا فى حجهم وبرا ولاـ صوفا ولا شعرا، يلبسون الجديد، ويطوفون بالبيت فى نعالهم لا يطاون ارض المسجد تعظيما له،ولا يدخلون البيوت من ابوابها [۵۷] .كان اكثر العرب يكفون عن الحرب والنزاع فى الاشهر الحرم: ذى القعدة وذى الحجة ومحرم. وقد اتبع هذا التقليد اصلا كما يبدو لوقوع الحج فى هذه الاشهر الثلاثة، ولبلوغ التجارة ذروتها فى هذا الموسم من السنة، ومن الواضح ان مناسك الحج تبدا فى ذى الحجة، غير ان حركة السوق تكون مع توافد الزوار وتقادم الحجيج فى ذى القعدة، ولا تنتهى الا بعد رحيلهم الى اوطانهم. وقد يمتد ذلك الى المحرم، ولكى تؤمن الطرق وتمنع الغارات ويشعر الناس بالاطمئنان، فتزدهر التجارة، وينشط السوق، فلا بد من فرض مثل هذا الموسم السلمى. والذى يشعر فيه الزوار بالامان، ويجد فيه التجار المناخ المناسب لنمواسواقهم وتوسع حركتهم التجارية. اما العمرة فموعدها شهر رجب، الذى الحق هو الاخر بالاشهر الحرم، مع ان هناك من بين القبائل العربية من لاـ يؤمن بهذا الموسم ولاـ يقيم له وزنا، كقبيلتى (طىء) و (خثعم) اللتينلاـ تقيمان حرمة للحج او الكعبة. كان الناس يبداون تجمعهم فى سوق عكاظ منذ الايام الاولى لشهر ذى القعدة، ويقيمون هناك عشرين يوما يقضونها بالبيع والشرا وتبادل البضائع فى حركة دائبة حتى يغادروا السوق الى مكان آخر يدعى (مجنة) يمكثون فيه عشرة ايام، وكان يموج بالحركة، وتزدهر فيه التجارة، وبعد انقضاء ذى القعدة ودخول ذى الحجة يغادر الناس (مجنة) ويتجهون الى مكان آخريعرف ب (ذى المجاز) ينشغلون فيه بالتجارة ايضا حتى ياتى اليوم الثامن او ما يسمونه بيوم التروية، وهو آخر ايام التجارة، وفيه يبدا الاستعداد لمغادرة (ذى المجاز) الى عرفة، واول شىء يقومون به هو تخزين المياه اللازمة لحملها معهم الىعرفات حيث لا ماء هناك، ومن هنا سمى هذا اليوم بيوم التروية (اى يوم الارتوا من الماء). ومن ثم يشرع بمناسك الحج ومراسم العبادة، حيث تلبى كل قبيلة تلبيتها الخاصة بها، وتردد شعار الولاء لالهتها. كانت قريش وباقى العرب تحرم دخول اسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز قبل عقد الاحرام وارتدا الملابس الخاصة به، وبدخول الانسان حالة الاحرام يصبح فى حالة روحانية خاصة تصده عن ارتكاب التجاوزات والاعتدا على الاخرين، ويستبطن هذا الامر نقطتين مهمتين: الاولى: اعتياد العرب على الاعتدا والغصب والغزو، الامر الذى تحول الى عادة وسنة من سننهم، لا يمتنعون عنها الا حينما يبدا الموسم التجارى السنوى، وتنشط الاسواق العامة بحركة البيع والشرا والكسب. الثانية: رغم تحول هذه الحالة اى حالة الاعتدا والغزو الى صفة عامة لجميع العرب تقريبا، الا انه كان يرفضها الوجدان العام ولا يقرها الضمير الباطنى، لهذا كانوا ومنذ القدم يمتنعونعن هذه الاعمال ويابون ارتكابها عند دخولهم فى حالات دينية وروحية معينة. يبدو ان الدخول فى حالة القداسة الدينية (الاحرام) والتجارة كانا توامين، فمن ناحية يطمئن الوجدان الدينى وتكون الاحساسات والمشاعر الروحية والمعنوية فى حالة من السكينة والاستقرار، ومن ناحية ثانية تجد التجارة مناخا جيدا من الامن والامان يساعد على نموها ويوفر للقوافل التجارية طرقا آمنة وسوقا مزدهرة. وبناء على هذا فان هذه الاشهرالثلاثة المتتالية التى تسمى الاشهر الحرم، تمثل قمة الحيوية الروحية وذروة النشاط الاقتصادى والاجتماعى وتكثر فيها الافراح والاحتفالات. لقد اقر الاسلام هذه الاشهر الحرم، ووجد فيها فرصة جيدة لتاكيد اهتمامه بالامن وحرصه على رفاه الناس واستقرارهم، ثمعمل على تهذيب مناسك الحج مما علق بها من مظاهر الشرك وشوائب الجاهلية، وفى الوقت نفسه اقر ما فيه من طقوس تعود بالنفع المادى والمعنوى على الناس، واضاف اليه مناسك ترقى به من الجانب الروحى وتضفى عليه مسحة عبادية وروحية خاصة. فمن التقاليد التى نهى عنها الاسلام مسالة (الصرورة) وتطلقعلى الحجة الاولى للشخص ويقال لصاحب هذه الحجة (الصرور). اذ يبدو ان العرب قد اعتادوا فى الجاهلية على ترك المجرمحتى لو ارتكب ذنبا عظيما كالقتل، وعدم التعرض له فى الحرم المكى فيما لو ادعى انه صرور ولم يسبق له ان حج او تعرفعلى ما يجب اجتنابه فى موسم الحج. لقد نهى الرسول (ص) عن ذلك، وقال: «لا صرورة فى الاسلام»، ودعا الى معاقبةالمذنبين

والاقتصاص منهم وعدم السماح لهم بارتكاب ما من شانه انتهاك حرمة الحرم المكى.وقال البعض: ان الصرورة تعنى الرهبانية واعتزال‌النساء. [۵۸] .

سوق عكاظ

يقع سوق عكاظ مسير ثلاثة ايام بلياليها عن مكة، ويفتح هذا السوق ابوابه فى شهر ذى القعدة من كل عام وقيل فى شوال غير ان الرواية الاولى اقرب الى الصحة لما قيل من انه يفتح فى الاشهر الحرم. ويعتبر سوق عكاظ من اهم الاسواق السنوية فى شبه الجزيرة العربية على الاطلاق، فلو فتح فى غير هذه الاشهر لتعرض الى الغزو والنهب والسلب. قال ياقوت فى ذيل ترجمته لعكاظ: «قال الاصمعى: عكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثيرا، وبه كانت ايام الفجار، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون اليها». وهذا دليل على ان الحج والتجارة كانا يقترنان عند عرب الجاهلية، ففى ظل الحج وحرمته الدينية يتمتع الاقتصاد بالامن والازدهار، وفى ظل الاقتصاد يتوجه الناس الى المعابد واماكن الزيارة، وفضلا عن كون عكاظ اجتماعا دينيا واقتصاديا، فهو منتدى لاشاعة الثقافة والادب والمسائل السياسية، فالقبائل تتحدث عن مناقبها ومفاخرها، والشعرا ينشدون اشعارهم، وتعقد هناك معاهدات الصلح والسلام. «كانوا ينزلون دومة الجندل اول يوم من ربيع الاول، فيقيمون اسواقها بالبيع والشرا والاخذ والعطاء، وكان يعشوهم فيها اكيدر وهو ملكها وربما غلب على السوق كلب، فيعشوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك الى آخر الشهر، ثم ينتقلون الى سوق هجر من البحرين فى شهر ربيع الاخر فتكون اسواقهم بها، وكان يعشوهم فى هذا السوق المنذر بن ساوى احد بنى عبداللّه بن دارم وهو ملك البحرين ثم يرتحلون نحو عمان من البحرين ايضا فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون ارم وقرى الشحر من اليمن فتقوم اسواقهم بها اياما، ثميرتحلون فينزلون عدن من اليمن ايضا فيشترون منه اللطائم وانواع الطيب، ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء، فتقوم اسواقهم بها، ويجلبون منها الخرز والادم والبرود وكانت تجلب اليها من معافر، ثم يرتحلون الى عكاظ فى الاشهر الحرم، فتقوم اسواقهم ويتناشدون الاشعار ويتحاجون، ومن له اسير سعى فى فدائه، ومن له حكومة ارتفع الى من له الحكومة، وكان الذى يقوم بامر الحكومة فيها من بنى تميم، وكان آخر من قام بها منهم الاقرع بن حابس التميمى، ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج، ثم يرجعون الى اوطانهم وقد حصلواعلى الغنيمة، وآبوا بالسلامة». [۵۹] .وكان ملك الحيرة يبعث الى هناك قوافل تجارية، تحمل معها اكثر ما تحمل الطيب وخاصة المسك، ويبدو ان المسك ياتى من طريق التبت او افغانستان او من بلاد ما ورا النهر، وينتقل من فارس الى الحيرة وشبه الجزيرة العربية، ومن هناك يشترى الادم والحرير والوكاء [۶۰] والحذا والبرود من العصب والوشىء والمسير [۶۱] والعدنى [۶۲] .وذكرالحرير من جملة هذه البضائع المشتراة، يبدو انه اشتباه، لان الحرير كان يصدر من فارس والصين الى الروم والمغرب. وكانت احدى هذه القوافل قد تسببت فى حرب طاحنة هى حرب الفجار. لم يكن عكاظ مجرد سوق لتبادل البضائع، وانما كان ايضا ناديا ثقافيا وادبيا عاما، يلقى فيه الشعرا آخر قصائدهم، ويتصيد فيه الشبان عشيقاتهم الجميلات من فتيات القبائل العربية المختلفة، وقد ادت احدى حالات العشق هذه الى نشوب احدى حروب الفجار، وكان من بين القبائل العربية من لا تقيم اية حرمة لهذه الاسواق ولا ترعى فيها الا ولا ذمة، فيسبب ودخولها حالة من الهلع وفقدان الامن والاستقرار، وقد اطلق على هؤلاء اسم «المحلون»، بينما كانت هناك طائفة من العرب وظيفتها حماية المظلوم وردع الظالم والحيلولة دون اراقة الدماء، ودعى هؤلاء ب (الذادة المحرمون).

ايام الحج

يبدو من كلام القلقشندى فى صبح الاعشى ان الاسفار التجارية للعرب كانت تقترن دائما بموسم الحج والزيارة، وتبدا هذه الاسفار من الشام فى شهر ربيع الاول، وتنتهى الرحلتان معا (رحلة الحج، ورحلة التجارة) فى شهر ذى‌الحجة فى الحجاز. ونظرا لارتباط التجارة

بالحج وحصولهما معا فى موسم واحد، فلا بد ان يكون محل هذا الموسم محلا ثابتا من السنة، ومع الالتفات الى ان البضائع يجب ان تعرض فى الاسواق فى فصل معين من السنة، فلا بد ان نقول ان الاسفار التجارية حول شبه الجزيرة العربية تبدا فى فصل معين من السنة الشمسية، وتنتهى فى فصل معين ايضا من هذه السنة، ويمكننا القول بالالتفات الى كلمة ربيع الاول ان هذا السفر يبدا فى الربيع وينتهى فى آخر الخريف. وبناء على ذلك فان ايام الحج واقامة هذه الاسواق الشهيرة كانت فى اواخر الخريف واوائل الشتاء، وهذا شىء طبيعى بالنسبة الى المناخ فى شبه الجزيرة العربية، ففصل الخريف هو الفصل الذى تنضج وتجنى فيه اهم الثمار وهى التمور، وبما ان القبائل العربية تجتمع فى موسم الحج والتجارة فى سوق عكاظ، فينبغى ان يكون تجمعها هذا فى وقت مناسب من حيث المناخ لاقامة هذه المراسم العبادية والقيام بالنشاط التجارى المطلوب واقامة حفلات الفرح والابتهاج. ولم تحظ مسالة المناخ وارتفاع درجات الحرارة بالاهمية ذاتها بالنسبة الى قوافل التجارية القادمة من بلاد الشام وسواحل الخليج الفارسى والبحر العربى، باتجاه اليمن، ومن هناك الى الحجاز لانها اعتادت السفر والفته، ولان اقصى ما يمكن ان تصله درجة الحرارة فى صنعاء (۲۸ل) فوق الصفر صيفا، كما ان شهرى حزيران وتموز هما اشد الشهورحرارة هناك [۶۳] .اما الشهور العربية فهى شهور قمرية، والسنة عبارة عن (۱۲) شهرا قمريا، وتقل عن السنة الشمسة بعشرة ايام واحدى وعشرين ساعة واثنتى عشرة دقيقة. وبهذا يصبح الفرق بين التاريخ القمرى والتاريخ الشمسى شهرا واحدا تقريبا فى كل ثلاث سنوات. وبعبارة اخرى تعادل كل ثلاث سنوات شمسية ثلاث سنوات قمرية وشهرا واحدا. وبناء على ما ينقله ابو ريحان البيرونى، [۶۴] فان السنة المعتبرة لدى الاقوام السامية (العبرانيين والصائبة والحرانيين) هى السنة الشمسية، اما الاشهر فهى بحساب السنة القمرية، لانهم كانوا يحسبون الايام والاحتفالات والاعياد وفقا للسنة القمرية، ولكنها تنطبق مع فصول السنة الشمسية، وذلك لانهم كانوا يكبسون سبعة اشهر قمرية فى كل (۱۹) سنة قمرية، لكى تنطبق ايام الاعياد والمناسبات الدينية الموزعة وفقا لاشهر القمرية على فصول السنة الشمسية. وكان العرب يكبسون الاشهر بما يقرب من هذا، وقد اخذوا هذا الحساب عن اليهود، وجروا عليه لما يقرب من (۲۰۰) سنة قبل الاسلام، وكانوا يكبسون (۹) اشهر فى كل (۲۴) سنة بدلا من (۷) اشهر فى كل (۱۹) سنة، وبذلك تنطبق عندهم السنون القمرية مع فصول السنة الشمسية دون تقديم او تاخير، وكان عمل النسيء او الكبيسة يؤديه افراد متمرسون من قبيلة كنانةيعرفون ب (القلمس) [۶۵] .وفى موضع آخر من الاثار الباقية، [۶۶] يقول: كان العربفى الجاهلية، يعملون بالاشهر القمرية كما هى عليه بعد الاسلام، الا انهم كانوا يكبسونها، فكان حجهم يدور علىالفصول الاربعة، بسبب الكسر المتبقى من جرا الفرق بين السنة القمرية والسنة الشمسية (وهو (۱۰) ايام و (۲۰) ساعة). ومن ثم ارادوا ان يكون الحج موافقا لموسم المحصولات الزراعية والمنتجات الحيوانية كالجلود وغيرها، فجعلوا موسم الحج ثابتا على مدار السنين وذلك لانهم كانوا ينسئون الشهر، حيث يضيفون كسور السنة القمرية الى نفس السنة القمرية بعد مضى شهر واحد من السنة الشمسية، وكان المتولى لهذا العمل هو احد افراد قبيلة كنانة من (القلامس)، حيث يخطب فى موسم الحج معلنا اضافة هذا الشهر الى السنة، ويسمى الشهر الذى يليه بالاسم نفسه، فاذا اضيف شهر الى السنة القمرية فى اول السنة فيسمى الشهر المضاف محرما، والشهر الذى بعده، والذى هو صفر بالحقيقة، يسمى ايضا محرما. وقد توافق العرب فى الجاهلية على هذا العمل، وكانوا يسمونه النسيء، اى التاخير او الاضافة، فالنسيء الاول كان فى المحرم، ففى سنة النسيء الاولى ذات ال (۱۳) شهرا يكون محرمان متتابعان، فيصير صفر محرما وربيع الاول صفرا وهكذا يستمر النسيء حتى يقع المحرم فى ايامه الحقيقية، ومن ثميبداون بالنسيء، ويستمد دوران الشهر القمرى على فصول السنة الشمسية الاربعة حتى يقع فى ايامه الحقيقية (۳۲) سنة. وايام هجرة الرسول (ص) كان النسيء قد وصل الى شعبان، اى ان شعبان الواقعى جعلوه محرما اى اول اشهر السنة، وجعلوا رمضان الواقعى صفرا، فلبث رسول اللّه (ص) عشر سنين، حتى حلت حجة الوداع، فوافقت فى ذى الحجة، ولذلك قال (ص): «الا وان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق اللّه السماوات والارض، السنة اثنا عشر شهرا، منها اربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»، اراد (ص) ان يقول ان الاشهر الحرم رجعت الى مواضعها وعاد الحج الى ذى الحجة وبطل النسيء. هذا ما ذكره ابو ريحان البيرونى، وهو الاقرب الى الصحة، بل هو الاصح فى راينا والاكثر واقعية

من جميع الارا التى ذكرها المحدثون والمفسرون واللغويون والرواة فى معنى (النسىء)، فقد اوضح ابو ريحان ان كل اربع وعشرين سنة كانت هناك سنة كبيسة من تسعة اشهر، وكان شهر شعبان من السنة الاولى للهجرة هو شهر محرم واقعا، وكان شهر رمضان من تلك السنة هو الشهر التاسع (اى الاخير) من السنة الكبيسة التى انتهت بها دورة الاربعة والعشرين عاما، وكان يجب ان تمر ثمانية اعوام اخرى تقريبا حتى يعود محرم الى موقعه الاصلى من السنة. ولهذا اعلن الرسول (ص) فى السنة العاشرة للهجرة بعد اتمامه لحجة الوداع ان الاشهر القمرية عادت الى مواقعها الاصلية ولا حاجة للنسىء مستقبلا. وقد ورد فى القرآن الكريم ما يؤيد الراى الذى ذهب اليه البيرونى، قال تعالى: (ان عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا فى كتاب اللّه يوم خلق السموات والارض..) «التوبة: ۳۶». وجاء هذا التاكيد على ان عدة الشهور (اى شهور السنة) عنداللّه اثنا عشر شهرا، لينفى ما جرت عليه العادة من جعل السنة الكبيسة ثلاثة عشر شهرا. لقد اكد البارى جل شانه على ان السنة تتكون من اثنى عشر شهرا لا اكثر ولا اقل، ونفى ان تكون السنة ثلاثة عشر شهرا، والنسىء او الكبيسة، طبقا لقول البيرونى، هو اضافة شهر واحد على الاثنى عشر شهرا، اما الاشهر الحرم فهى اربعة فقط، ليتم نفى الشهر الخامس من الاشهر الحرم الذى سيتحقق فيما لو اقرت السنة الكبيسة فيتكرر محرم فيها مرتين. وجاءت الاية التالية لتقول: (انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرماللّه) «التوبة: ۳۷». وتوضح الاية ان النسىء هو زيادة شهر واحد على اشهر السنة الاثنى عشر، جاء (فى لسان العرب ذيل كلمة النساء): (النسىء: شهر كانت العرب تؤخره فى الجاهلية). اى كما نصت عليه الاية الشريفة (زيادة فى الكفر) فقد جرى العرب ايام الجاهلية على هذه السنة (يضل به الذين كفروا) فبزيادتهم هذا الشهر يزدادون ضلالا، اذ يحلون احد الاشهر الحرم عاما ويحرمونه عاما فى اشارة الى السنة الكبيسة (ليواطئوا عدة ما حرم اللّه) ليجعلوا الاشهر الحرم متوافقة مع مصالحهم واهوائهم من خلال النسىء، وبعبارة اخرى ان من شان ذلك النظام (النسىء) ان يغير مواقع الشهور فى السنة، فيصبح شهر ذى الحجة مثلا حراما مرة وحلالا اخرى، وهو الشهر المقدس وشهر الحج والعبادة، لينسجم مع مصالحهم التجارية من خلال انطباقه على فصول السنة الشمسية، لهذا اكتسب امر الغاء النسىء اهمية قصوى من الناحية الدينية والاجتماعية، فبركته لم يعد الحج مقترنا بالتجارة، وخلص مماعلق به من شؤون الدنيا ومشاغل الحياة المادية، ولم تعد ايامه تحدد فى موعد ثابت، وهو الموسم الذى تزدهر فيه التجارة وتعرض فيه المحاصيل الزراعية والصناعية ويكثر فيه البيع والشرا، وعلى الحجاج من الان فصاعدا ان يقصدوا مكة ويشدوا الرحال اليها من اجل الحج وتادية مناسكه واقامة هذه الشعيرة الالهية ليس الا، وبناء على هذا تم اقفال سوق عكاظ الى الابد، واكتسب امر الغاء النسىء اهميته الاجتماعية من خلال اخراج العرب من حالة البداوة والترحال الى حالة الاستقرار والتحضر، اذ لم تعد التجارة شانا موسميا يمارسه اهل البادية فى موسم معين من السنة ويتركونه ما بقى منها، لقدا صبح على القبائل المتنقلة ان تمارس التجارة على مدار السنة وفى جميع الفصول. وكان ذلك من الانجازات المهمة التى حققها الاسلام فى حياة العرب وفتح لهم آفاق التمدن، وعلمهم نظم الحياة وكيفية ادارة شؤون المدن الكبرى فى آسيا وافريقيا.

اديان اخرى فى مكة

ليس لدينا معلومات عن وجود قبائل فى مكة كانت قد اعتنقت اليهودية، فى الوقت الذى كانت توجد مثل هذه القبائل بكثرة فى يثرب واليمن واطرافهما، كما كان هناك من القبائل العربية من دانت بالديانة اليهودية، وسياتى الحديث فى محله عن خصومات هذه القبائل وصراعها مع الرسول (ص)، وكان فى مكة بعض المسيحيين الذين لجاوا اليها من بلاد الروم والحبشة وبلدان اخرى. قال اليعقوبى: «تنصر من احياء العرب قوم من قريش من بنى اسد بن عبد العزى، منهم: عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى، وورقه بن نوفلبن اسد» [۶۷] .وتذكر بعض المصادر التاريخية ان هناك قوما من قريش كانواقد تزندقوا فقالوا بالثنوية. ويقصد بالزنادقة قديما (المانويين)، ثم تحولت الكلمة الى مصطلح يطلق على كل من خالف الدين الاسلامى. جاء فى المحبر ذكر بعض الاسماء (من قريش) التى اشتهر اصحابها فى عدائهم لرسول اللّه (ص) وعبر عنهم ب (زنادقة قريش)، من بين هؤلاء ابو سفيان بن حرب. [۶۸] غير ان ذلك

يتنافى مع الشعار الذى رفعه ابو سفيان يوم احد حيث صاح باعلى صوته: «اعل هبل» الا اذا قلنا ان ابا سفيان اطلق ذلك الشعار باعتباره ممثلا لقوم كانوا يعبدون الاصنام وهم قريش ولا يعبر بذلك عن معتقداته المانوية. ومن الزنادقة او المانويين الذين وردت اسماؤهم فى المحبر: العاص بن وائل السهمى، والد عمر بن العاص، والوليد بن المغيرة المخزومى، والد خالد بن الوليد. وجاء فى المحبر ان المانوية ديانة اقتبسها اهل قريش من نصارى الحيرة. على ان المانوية غير النصرانية، وهى ديانة مستقلة تماما عن النصرانية، وقد تكون اوجه التشابه بين الديانتين فى قضايا الزهد والعبادة، هى التى سببت هذا الخلط بين الاثنتين، خصوصا ان بعض الفرق فى العراق كانت قد اخذت عقائدها من المانوية والمسيحية، الامر الذى اوقع بعض المؤرخين فى مثل هذا الالتباس، وقد استوطن الحيرة قوم كان فيهم المسيحيون وعبدة الاصنام المشركون وربما المانويون ايضا. يقول ابن قتيبة: «وكانت الزندقة فى قريشاخذوها من الحيرة». [۶۹] .ويضيف ابن قتيبة فى الصفحة نفسها: ان جماعة من تميم كانت تدين بالديانة الزرداشتية، وقد عقد صاحب المنمق فصلا خاصا لمن كانت امهاتهم من اليهود من ابناءقريش. [۷۰] .وبمطالعة هذا الفصل الذى افرده المؤلف لهذا الغرض، يتضحعدد القرشيين الذين تزوجوا يهوديات من يهود يثرب وخيبروغيرهم. لكن يبدو ان احدا من هؤلاء الابناء لم يتابع امه فى دينها، بل بقوا على ديانة آبائهم.

مراسم الزواج

كانت العلاقة بين الزوج والزوجة، طبقا لما جاء فى المحبر، [۷۱] على اربعة انواع: ۱- امراة تخطب فتزوج. ۲- امراة يكون لها خليل يختلف اليها، فان ولدت منه قالت: «هو لفلان»، فيتزوجها بعد ذلك. ۳- امراة ذات راية يختلف اليها، فان جاء اثنان فوافياها فى طهر واحد، الزمت الولد واحدا منهما، وهذه تدعى المقسمة. ۴- رجل يقع على امة قوم، فتحمل منه ويكون لها ولد، فان رغب فى ابتياع ذلك الولد فله ان يدعيه، ويكون له فى هذه الحالة حق شرا الامة واتخاذها زوجة له. وكانوا يخطبون المراة الى ابيها او اخيها او عمها او بعض بنى عمها، وكان يخطب الكفء الى الكفء، فان كان احدهما اشف من الاخر فى الحسب ارغب له المهر، وان كان هجينا خطب الى هجين فزوجه هجينة مثله، فيقول الخاطب اذا اتاهم: «انعموا صباحا». ثم يقول: «نحن اكفاؤكم ونظراؤكم، فان زوجتمونا فقد اصبنا رغبة واصبتموها، وكنا لصهركم حامدين، وان رددتمونا لعلة نعرفها، رجعنا عاذرين». وان كان قريب القرابة منه او من قومه قال ابوها او اخوها اذا حملت اليه: «ايسرت واذكرت ولا- آنثت! جعل اللّه منك عددا وعزاوجلدا، احسنى خلقك، واكرمى زوجك، وليكن طيبك الماء»، واذا زوجت فى غربة قال لها: «لا ايسرت ولا اذكرت، فانك تدنين البعدا، وتلدين الاعدا، احسنى خلقك، وتحببى الى احمائك، فان لهمعليك عينا ناظرة واذنا سامعة، وليكن طيبك الماء». [۷۲] .ومن هنا تتبين الاهمية القصوى التى كان يوليها العرب لشرف الشخص وحسبه ونسبه خصوصا عند تزويجه، والاهم من ذلك ما اشرنا اليه سابقا الانتماء القبلى ومنزلة القبيلة التى هى اهم وحدة اجتماعية فى المجتمع العربى الجاهلى آنذاك. وغالبا ما كان يعرف الاشخاص بقبائلهم كما يعرف الافراد حاليا باوطانهم وجنسياتهم. ويظهر من خلال هذا الاستعراض ماكانت عليه المراة من مكانة اجتماعية متردية لا ترقى الى مستوى الرجل باية حال من الاحوال، لذا كان هم الاباء والاقرباء جميعا ان تلد بناتهم ذكورا لا اناثا، فبهؤلاء الذكور تنال القبيلة عزها وترفها، وبهم فقط يفتخر الاباء لا بالبنات مهما كثرن، علما ان التفاخر بالابناء والاباء كان من التقاليد المعروفة التى درج عليها العرب فى الجاهلية حتى صارت تقليدا من تقاليدهم الدينية. لقد جاء فى القرآن الكريم ان العرب كانوا يذكرون مفاخر آبائهم، ويعودون الى التفاخر بها بمجرد اتمامهم لمناسك الحج، وكان يدعوهم لان يذكروا اللّه كذكرهم آباءهم او اشد ذكرا، (فاذا قضيتم مناسككم فاذكرواالله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا...) «البقرة: ۲۰۰». لقد جرت العرب على عدم توريث النساء شيئا مما ترك الاباء والابناء، وكان ذلك من بين المظاهر الكثيرة التى تدل على احتقار المراة وهبوط درجتها فى السلم الاجتماعى الجاهلى، فالذكور وحدهم الذين يرثون لانهم وحدهم القادرون على ركوب الخيل ومهاجمة الاعدا وجلب السلب والنهب، وهم الذين يردون كيد الاعدا عن القبيلة ويشيدون امجادها ومكارمها ومفاخرها، هؤلاء هم وحدهم الذين يرثون آباءهم، اما الصغار، حتى من الذكور، فلا نصيب لهم من الارث قط.

جاء فى بعض المصادر التاريخية ان اول شخص خرج على هذا التقليد الجاهلى فورث ابنته حصة من ماله تساوى نصف ماورثه لابنه هو (ذو المجاسر اليشكرى). هذا وقد جعل الاسلام للبنات والامهات نصيبا من الارث. وفى الوقت الذى كرم فيه الاسلام المراة شجب الاعراف الجاهلية القاضية باحتقارها وحرمانها موقعها وحقوقها فى الحياة: (واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى‌التراب الا ساء ما يحكمون) «النحل: ۵۸-۵۹». فى الاية الشريفة اشارة الى عادة (واد البنات) التى اشتهرت لدى العرب قبل الاسلام، فكان يلجا بعض الاباء الى دفن اولادهم وخاصة البنات وهم احياء، وتشير الاية الشريفة هنا الى الاسباب الاجتماعية لذلك، والتى تتلخص بالخوف من العار الذى يلحق بالاب ومن ثم بالقبيلة اذا ما وقعت البنت بالاسر واخذتها القبائل الغازية معها، كما يوجد هناك سبب آخر كان هو الاخر يدفع الاباء الى دفن اولادهم، حتى الذكور منهم، وقتلهم والتخلص منهم وهو الخوف من الفقر والجوع. لقد شجب القرآن الكريم عملهم القبيح هذا، رفض اسبابه قائلا: (ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم) «الانعام: ۱۵۱». ويقول فى آية اخرى: (ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطا كبيرا) «الاسرا: ۳۱»، ويشير فى سورة التكوير الى دفن البنات احياء، ويهدد مرتكبى هذا العمل بقوله عز وجل: (واذا الموؤدة سئلت، باى ذنب قتلت) «التكوير: ۸-۹». واشتهر الطلاق عند العرب، وكان من يطلق زوجته ثلاث مرات،لا يستطيع العودة اليها بعد. [۷۳] .وكان باستطاعة النساء ان يتزوجن بعد الطلاق مباشرة، وليس‌هناك من عدة يلتزم بها، ولهذا كانت تحدث بعض المشاكل نتيجة الاشتباه فى آباء الاولاد الذين يولدون فى بيت الزوج الثانى، ولا يعلم بالدقة من هو الاب الحقيقى لهم، هل هو الزوج الاول ام الزوج الثانى؟. [۷۴] وقد استطاع الاسلام بتشريعه لعدة النساء حل هذه المشكلة الاجتماعية جذريا. اما المراة التى يتوفى عنها زوجها، فكان عليها ان تعتدسنة كاملة، ولا يسمح لها بالزواج قبل مرور سنة. [۷۵] .وكانت العرب لا تنكح البنات ولا الامهات ولا الاخوات ولا الخالات ولا العمات. وكانت تزوج نساء آبائها، وهو اشنع ما كانوا يفعلون، فيقال للذى يخلف على امراة ابيه (الضيزن). وكان الرجل اذا مات قام اكبر ولده، فالقى ثوبه على امراة ابيه، فورث نكاحها، فان لم يكن له حاجة فيها، تزوجها بعض اخوته بمهر جديد، وقد فرق الاسلام بين رجال ونساء آبائهموهم كثير. [۷۶] .وكانوا يجمعون بين الاختين، فلما جاء الاسلام نهى عن ذلك وحرمه. وكانوا لا يعطون البنات والنساء ولا حتى الصبيان شيئا من الميراث، ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل. ثم ذهب عرب الجاهلية الى ابعد من ذلك حيث جعلوا للورثة الحق فى تزويج المراة او عدم تزويجها، بل كان الورثة يرثون نكاح النساء كما يرثون المال، الى ان انزل اللّه تعالى فى ذلك قرآنا: (ىآ ايها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن...) «النساء: ۱۹».

المساعاة

وهى احد الاعراف المشهورة فى الجاهلية حيث لم يكن العرب يجدون مانعا من ان يضع احدهم ما عنده من الاماء تحت طلب الرجال مقابل اجر معين ياخذه لنفسه، ولا تكون المساعاة الا فى الاماء لانهن كن يسعين على مواليهن فيستطعن ان يجمعن ما يدفعن به الضرائب التى كانت عليهن، وفى حديث عمر انه اتى بنساء او اماء ساعين فى الجاهلية، فامر باولادهن ان يقوموا على آبائهم ولا يسترقوا. ومعنى التقويم ان تكون قيمتهم على الزناة. فيكونوا احرارا، وتلحق انسابهم بآبائهم الزناة. وكان عمر يلحق اولاد الجاهلية بمن ادعاهم فى الاسلام على شرط التقويم، واذا كان الوطء والدعوى‌جميعا فى الاسلام فدعواه باطلة والولد مملوك. قال ابن الاثير: واهل العلم من الائمة على خلاف ذلك، ولهذا انكروا باجمعهم على معاوية فى استلحاقه زياد ابن ابيه. فقد كان ابو سفيان قد وطىء امه فى الجاهلية، وتمت الدعوى(اى دعوى البنوة لابى سفيان) فى الاسلام. [۷۷] .وقد جاء فى المحبر: ومن سنتهم انهم كانوا يكسبون بفروج امائهم، وكان لبعضهن راية منصوبة فى اسواق العرب، فياتيها الناس فيفجرون بها، فاذهب الاسلام ذلك واسقطهفيما اسقط، ولهن اولاد، ونسل كثير معروف. [۷۸] .وقال ابن قتيبة فى المعارف: ان عبداللّه بن جدعان من بنى تيم من قبيلة قريش كانت له اماء يشتغلن

فى (المساعاة) وكان يبيع اولادهن.

الشغار

وهو احد انواع النكاح التى كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام، وصورته ان يقوم ولى المراة او ابوها بتزويج ابنته اومن تقع من النساء تحت ولايته لرجل يقوم هو الاخر بتزويجه ابنته او غيرها ممن تقع تحت ولايته بدون مهر لكلتا الزوجتين، فى عملية اشبه ما تكون بعملية التبادل المعروفة فى البضائع، وقد نهى الاسلام عن نكاح الشغار، غير ان بعض الفقهاء لم يفهم من هذا النهى تحريم لهذا النوع من الزواج، وانما قال بجوازه، اما المهر فباطل، وبطلان المهر لا يوجب فساد النكاح. هذا وقد اورد البخارى حديثا فى صحيحه، يتضمن نهياصريحاعن نكاح الشغار. [۷۹] .

البحيرة و السائبة و الوصيلة و الحامى

ومما اعتادت عليه العرب فى الجاهلية ودرجت عليه ثم جاءالاسلام فنهى عنه: البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، والسبب الذى دعا الاسلام الى شجبها والنهى عنها هو ارتباطها بالشرك وعبادة الاوثان، فقيل: «ان اهل الوبر كانوا يقطعون لالهتهم من اموالهم من اللحم، واهل المدر يقطعون لها من الحرث، فكان مما يجعل اصحاب الوبر ان الناقة اذا نتجت خمسة ابطن، عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا، فشقوا اذنها، فتلك البحيرة. ولا يجز لها وبر، ولا يذكر عليها ان ركبت اسم اللّه، ولا ان حمل عليها شيء، وكانت البانها للرجالدون النساء». [۸۰] .واما اهل المدر والحرث، فكانوا اذا حرثوا حرثا او غرسواغرسا، خطوا فى وسطه خطا فقسموه اثنين، فقالوا «ما دون هذا الخط لالهتهم، وما ذراه للّه» فان سقط فيما جعلوا لالهتهم شيء مما جعلوه للّه عز وجل اقروه وتركوه، وان سقط مما جعلوه لالهتهمشيء فيما جعلوه للّه تبارك اسمه ردوه». [۸۱] .والبحيرة ماخوذة من كلمة بحر: (وهى الناقة اذا شقت اذنها)، وجاء فى لسان العرب انها الناقة او الشاة التى انجبت عشرة بطون. ومثل هذه الناقة تكون موضع احترام العرب، فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها الا المنيف، ولا يمنعها احد من الدخول فى اى مرتع شاءت، كما حرموا على النساء اكل لحمها، وجعلوا لها علامة تميزها عن غيرها بان شقوا اذنها. وقال بعضهم: انها الناقة التى انجبت خمسة بطون آخرها انثى، هذا وقد وردت تعريفات اخرى للبحيرة فى كتب اللغة والتفاسير والاخبار، تتفق جميعها على ان البحيرة لا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا ياكل من لحمها الا بعد ان تكون قد حان اجلها، وقال بعضهم بتحريم لحمها ولبنها على النساء. اما السائبة من الابل فهى التى تطلق عادة بعد نيل الشفاء اولتفريج هم كبير او للنجاة من المصيبة الكبرى والفتنة الشديدة، حيث تسيب ولا يركب ظهرها بعد هذا ابدا، وهناك تعاريف اخرى ذكرت فى هذا المجال. اما الوصيلة فما ورد من اقوال فى باب البحيرة، ورد مثله تقريبا فى تعريف الوصيلة، ومن هذه الاقوال ما جاء فى (لسان العرب مادة وصل): ان الوصيلة: هى الشاة التى ولدت سبعة ابطنعناقين عناقين، فان ولدت فى السابع عناقا قيل: وصلت اخاها فلا يشرب لبن الام الا الرجال دون النساء، وان كانت انثى تركت فى الغنم، وان كانت انثى وذكرا قالوا: وصلت اخاها فلم يذبح، وكان لحمها وقيل لبنها حراما على النساء. وقيل: هى الشاة التى تلد سبعة ابطن، عناقين عناقين، فان ولدت فى الثامنة جديا وعناقا قالوا: «وصلت اخاها»، فلايذبحون اخاها من اجلها، ولا يشرب لبنها النساء، وتجرى مجرى السائبة. اما الحامى فهو الفحل من الابل يضرب الضراب المعدودة قيل: عشرة ابطن، فاذا بلغ ذلك قالوا: «هذا حام»، اى حمى ظهره، فيترك فلا ينتفع منه بشيء، ولا يمنع من ماء ولا مرعى.وقيل: الحامى من الابل، الذى طال مكثه عندهم. [۸۲] .وقد نهت الاية (۱۰۳) من سورة المائدة عن هذه المسميات والمراسم التى وضعت لها لما تضمنته من معانى الشرك والارتباط بعبادة الاصنام، قال تعالى: (ما جعل اللّه من بحيرة ولا سآئبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على اللّه الكذب واكثرهم لا يعقلون). وقال تعالى: (وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء...) «الانعام: ۱۳۹». وقد ادانت الاية (۱۳۶) من سورة الانعام صورة اخرى من صور شركة الاوثان للّه فى

المحاصيل الزراعية (وجعلوا للّه مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا للّه بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى اللّه وما كان للّه فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون).

الازلام

فى نهى اللّه تعالى فى الايـة الثالثة من سورة المائدة عن اتخاذ الازلام كوسيلة يلجا اليها لايقاع القسمة واجرا القرعة وما الى ذلك من امور اعتاد عليها العرب قبل الاسلام حيث قال تعالى: (... وان تستقسموا بالازلام..) «المائدة: ۳» والازلام عبارة عن اسهم من الخشب ذات رؤوس مدبب وسطوحها ملساء، تكتب عليها كلمات بعضها يدعو الى العمل وبعضها الاخر يحذر منه وينهى عنه. قال الازهرى: «الازلام كانت لقريش فى الجاهلية، مكتوب عليها امر ونهى، وافعل ولا تفعل، قد زلمت وسويت ووضعت فى الكعبة يقوم بها سدنة البيت، فاذا اراد رجل سفرا او نكاحا، اتى السادن فقال: اخرج لى زلما، فيخرجه وينظر اليه، فاذا خرج قدح الامر مضى على ما عزم عليه، وان خرج قدح النهى قعد عما اراده، وربما كان مع الرجل زلمان وضعهما فى قرابة، فاذا اراد الاستقسام اخرج احدهما». ويعتقدون انهم يتوصلون ببركة الزلم والسادن الى راى الاله. ولقد نهى عنها القرآن الكريم باعتبارها مظهرا من مظاهر الشرك.

الميسر

ورد النهى عن الميسر فى الاية (۹۰) من سورة المائدة التى شملت عن الخمر والانصاب والازلام، وقد اعتبرت هذه المنهيات رجسا من عمل الشيطان ما وحملت الاية ۹۱ من السورة الشريفة نفسها على الميسر مرة اخرى لانه يورث العداوة والبغضاء بين الناس بواسطة الشيطان: (انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر..). والميسر نوع من القمار، يقول اليعقوبى: ان العرب كانت اذا كان الشتاء ونالها القحط وقلت البان الابل، استعملوا الميسر، وهى الازلام، وتقامروا عليها، وضربوا بالقداح، وكانت قداح الميسر عشرة، سبعة منها لها نصب، وثلاثة لا انصب لها، فالسبعة التى لها انصب هى: الفذ وله جزء، والتوام وله جزآن، والرقيب وله ثلاثة اجزا، والحلس وله اربعة اجزا، والنافس وله خمسة اجزا، والمسيل وله ستة اجزا، والمعلى وله سبعة اجزا، والثلاثة التى لا انصب لها اغفال ليس عليها اسم يقال لها: المنيح، والسفيح، والوغد. وكانت الجزور تشترى بما بلغت ولا ينقد الثمن، ثم يدعى الجزار فيقسمها عشرة اجزا، فاذا قسمت اجزاؤها على السوا، اخذ الجزار اجزاه وهى الراس والارجل، واحضرت القداح العشرة، واجتمع فتيان الحى، فاخذت كل فرقة على قدر حالها ويسارها وقدر احتمالها، فياخذ الاول الفذ وهو الذى فيه نصيب واحد من العشرة اجزا، فاذا خرج له جزء واحد اخذ من‌الجزور جزءا، وان لم يكن يخرج له غرم ثمن جزء من‌الجزور، وياخذ الثانى التوام، وله نصيبان من اجزا الجزور، وهكذا سائر الاقداح [۸۳] وكانت هذه اللعبة معقدة للغاية، لذا كان يتم التقامر بها تحت اشراف شخص متخصص يدعى (الحرضة) و (الرقيب). وقد وردت اوصاف مختلفة لهذه اللعبة، وسردتهاالمصادر التاريخية بصور مختلفة [۸۴] .

الكهانة

الكهنة: جماعة من العرب كانوا يدعون الاطلاع على المغيبات، ويزعمون معرفة الاسرار وقضايا المستقبل. وقد بنوا دعوتهم هذه على ادعاء آخر مفاده انهم يحصلون على تلك المعلومات بواسطة تسخيرهم لكائنات غيبية كالجن او الشيطان، وتدعى احيانا (التابع) او (الرئى). وهناك جماعة اخرى يعرفون بالعرافين، ويدعى هؤلاء معرفة الاسرار وما ستؤول اليه الامور من خلال اطلاعهم على اسبابها ومقدماتها. وكان الشياطين يزودون الكهنة بالمعلومات التى يسمعونها من افواه الملائكة عند صعودهم الى السماء، وقد منع هؤلاء الشياطين من استراق السمع بعد البعثة. ولهذا انتهى امر الكهنة بين العرب. وكان بعض الناس يقومون بامتحان الكاهن واختبار صدق نبوآته من خلال اخفاء شيء ما وسؤاله عنه، فان اخبرهم بنوع ذلك الشيء ومحله، عرضوا عليه قضيتهم الاصلية. وكانت هند بنت عتبة

من بين الكهنة الذين اشتهروا عند العرب، وهى زوجة ابى سفيان وام معاوية، وكانت قد تزوجت من فاكه بن المغيرة الذى اتهمها بالخيانة والزنا عندما وجدرجلا غريبا فى بيته. فاخذ عتبة وابنته هند وجماعة من بنى عبد مناف وذهب بهم الى اليمن ليعرض الامر على احد الكهنة، وكان فاكه قد خرج هو ايضا مع جماعة من قومه (بنى مخزوم) وجلسوا معا عند الكاهن، وقبل ان يعرضوا عليه الامر اختبروه بالسؤال عن شىء كانوا قد اخفوه عنه، فلما اخبرهم عن مكان ذلك الشىء شرحوا له قضيتهم، فبرا هندا من الزنا، وبشرها بان سيكون لها ولد ويصبح سلطانا، وقد سر فاكه لذلك، فاخذيد هند واصطحبها معه، لكنها امتنعت عن مرافقته، وطلبت الانفصال عنه. وبعد ذلك تزوجت هندا من ابى سفيان بن حرب. كان الكهنة يتقاضون شيئا من المال لقاء ما يخبرون به من مغيبات، ويسمى المال الذى يتقاضونه عن ذلك (الحلوان). وقد شبهه الرسول (ص) بالمال الذى تتقاضاه المراة الزانية ثمنا للفاحشة، وجعلهما على حد واحد، فقد ورد فى الحديث: «نهى رسول اللّه (ص) عن ثمن الكلب، ومهر البغى، وحلو ان الكاهن»، [۸۵] كما وادان الكهانة بشدة ونهى عنها. كان الكهنة يهمسون ببعض العبارات ليوحوا للاخرين بانهم يستقون علمهم من الغيب، وكانت عباراتهم تلك عبارة عن كلام يشبه الشعر، ويسمى السجع، وقد نهى الرسول (ص)عن السجع فى الكلام بل حتى فى الدعاء. [۸۶] .لقد حيرت الايات القرآنية الاولى التى نزلت على الرسول (ص) مستمعيها، اذ لم يعرفوا اى نوع من البيان هذا، فلا هو سجع كسجع الكهنة، ولا هو شعر كشعر الشعرا، ولانهم لم يجدوا مثله من قبل جعلوه بين الشعر والسجع، وهذا ما تشير اليه الايات الشريفة (۳۸- ۴۲) من سورة الحاقة وتنكره بشدة: (فلا اقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون). وكان ينظر الى العلوم الطبية وقضايا الفلك والتنجيم وحتى معرفة الاحكام، على انها نوع من الكهانة. [۸۷] وكان اشهر كهنة العرب شق وسطيح، وقد نفت الاية (۲۹) من سورة الطور تهمة الكهانة عن النبى بشدة حيث قالت: (فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون). فثمة فرق بين الايات الربانية النازلة على الرسول (ص) وبين نبؤات الكهنة واخبارهم عن المستقبل وخفايا الامور، فبينما تركز الاولى على هداية الناس ووعظهم ونصيحتهم وارشادهم لما فيه خير الدنيا والاخرة، وتحذرهم من مغبة المعصية والركون الى الظلم والتعدى والجهل، لا نجد الثانية سوى الاخبار عن امور مستقبلية واخرى مخفية قد تخطىء وقد تصيب. وتشير الاية بكلمة مجنون الى اولئك الذين اعتادوا خداع الناس بزعمهم انهم يسخرون الجن لخدمتهم وياخذون معارفهم مما تمليه عليهم هذه المخلوقات من كشف الاسرار والاخبار بالمغيبات. وتدحض الاية الشريفة اتهامات العرب للرسول (ص) بانه (شاعر) بعد ان بهرتهم الايات القرآنية التى كان يتلوها عليهم رسول اللّه (ص)، فلئن العرب كانوا يظنون ان تابعا من الجن اوالشيطان هو الذى يلهم، وان كل شاعر شيطان، فقد ظنوا ان الرسول (ص) شاعر يتلقى الهامه ايضا من الجن او التابع. تقول الايتان (۳۰ و۳۳) من السورة نفسها: (ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون). يبدو ان الناس كانوا يخافون قتل الكهنة والاعتدا على حياتهم، ولا يساورهم الخوف نفسه حين تكون المسالة مرتبطة بشاعر يريدون تصفية حياته وقتله، وهذا ما تشير اليه الاية من طرف خفى، هذا اذا كان المقصود بريب المنون القتل، اما اذا قصد به الموت الطبيعى فلا فرق حينئذ بين الشاعر والكاهن، بل هماعلى حد سوا.

الحنفاء و الحنيفية

يؤكد كتاب السيرة ان هناك جماعة من قريش كانت قد تركت عبادة الاصنام قبل ان يبعث الرسول (ص) ويباشر دعوة الناس الى الاسلام. وهؤلاء هم ورقة بن نوفل، وعبيداللّه بن جحش، وعثمان بن حويرث وزيد بن عمرو بن نفيل، كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحنيف، وهم فى صدد العودة الى دين ابراهيم (ع)، وسمى هؤلاء ب (الحنفاء)، فما هو دين ابراهيم او الحنيفية؟ وما الذى جعل هؤلاء يبحثون عنها، ويحاولون العودة اليها؟ مرت الاشارة سابقا الى ان ابراهيم كان قد بنى الكعبة مع ابنه اسماعيل فى واد غير ذى زرع لتكون معبدا يعبد فيه اللّه وحده، هذا ما سجله القرآن الكريم الذى اوضح ايضا ان دين ابراهيم (ع) كان دينا توحيديا ضد الشرك، وقد اطلق القرآن الكريم على المتدينين بهذا الدين (الحنفاء) او (المسلمين)، قال تعالى: (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان

حنيفا مسلما وما كان من المشركين) «آل عمران: ۶۷»، وقال تعالى: (ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه للّه وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) «النساء: ۱۲۵». اطلقت هذه الاية على دين ابراهيم (الدين الحنيف) وسمت اتباعه المسلمين. وفى الاية (۱۳۵) من سورة البقرة وردت تبرئة ابراهيم (ع) من الشرك وتسمية دينه بالدين الحنيف، ونفت ان يكون يهوديا او نصرانيا: (وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين). لم تنف الاية الشريفة الهداية عن اليهود او النصارى غير انها فضلت ورجحت دين ابراهيمالحنيف عليهما معا فى اشارة الى انه خالص من كل معانى الشرك التى ربما علق بعضها بهاتين الديانتين، بسبب اعتقاد اليهود ان عزيرا ابن اللّه او بسبب اعتقاد النصارى ان عيسى ابن اللّه. ثم جاءت الاية (۳۰) من سورة الروم لتامر الناس باتباع سنة ابراهيم (ع): (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة اللّه التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون). وجاءت هذه الاية فى سياق عدة آيات تحدثت عن الشرك وعبادة الاصنام وحملت عليهما بشدة، فقررت الاية الشريفة ان التوحيد مغروس فى اعماق الفطرة الانسانية، وان من شان الانسان ان يتجه الى التوحيد بدافع من فطرته الا اذا انحرفت هذه الفطرة عن جادة الصواب وبدلت خلق اللّه تعالى وفطرته التى فطر الناس عليها. واخيرا تؤكد الاية على محور مهم هو ان الانسان اذا ترك وفطرته وخلى بينه وبينها فسينتهى الى التوحيد ولا يمكن ان يلجا الى الشرك، وهذا لا يتنافى مع النتائج التى توصل اليها الباحثون والدارسون فى تاريخ المجتمعات البدائية من انها كانت مجتمعات مشركة نظرا لجهل هذه الشعوب بالطبيعة ومظاهرها المختلفة، والذىنتج عنه انحراف الفطرة البشرية وتشوهها. ان الانسان مخلوق عاقل مفكر بالفطرة وفى اصل الخلقة، ولهذا اطلق عليه فى المنطق بانه (حيوان ناطق)، فان النطق والتحدث دليل العقل والتفكير، ولو اعتمد الانسان منذ اللحظات الاولى على قدرته العقلية وطاقاته الفكرية ورفض التقليد ومتابعة الاخرين دون تفكير، لاستطاع الوصول الى الحقيقة واستهجن عبادة الاصنام وترفع عن مظاهر الشرك، ولكن الجهل امر عدمى متقدم على العلم الذى هو امر وجودى. فكان الانسان البدائى يفضل الجهل على العلم لما فى العلم من مشاق ومصاعب لا يتطلبها الجهل لانه امر عدمى، ولهذا فضل الانسان الجهل مع الراحة على العلم مع المشقة وبذل الجهد، ولهذا كان الانسان البدائى مشركا، رغم ان فطرته السليمة تقوده الى التوحيد ونفى الشرك، لكنها تعطلت فماتت منابع النور فيها نتيجة الجهل الذى هو اسبق من العلم واسهل منه. وهذا هو سر تقدم الشرك زمانيا على التوحيد بين الاقوام البدائية. وهكذا يتضح ان القرآن الكريم يستعمل كلمة (حنيف) ويريدبها المسلم والموحد فى مقابل الشرك، ويريد بدين ابراهيم الحنيف الدين التوحيدى المرادف للاسلام، ولا ينبغى ان نفهم من هذا الترادف بين الاسلام ودين ابراهيم (ع) ان كل ماجاء به نبى الاسلام من احكام كان قد جاء به دين ابراهيم الحنيف، بل يتفق الدينان على محور واحد وقاعدة مشتركة هى فكرة التوحيد وعبادة اللّه وحده ونفى كل ما سواه من معانى الشرك وما يتبعها وما يلازمها من اعراض ومتعلقات، ويتاكد ذلك من خلال التامل العميق فى معانى الاية الكريمة: (ان ابراهيم كان امة قانتا للّه حنيفا ولم يك من المشركين) «النحل: ۱۲۰». ولا مبرر لحصول اى نوع من الابهام او اللبس فى اذهان المخاطبين من قبل الرسول (ص) من استعمال كلمة (حنيف) بعد ان كان القرآن الكريم قد نزل بالعربية لهداية قومعرب، وقد اتضح من خلال استعراض الموارد القرآنية التى استعمل فيها هذه الكلمة ان المقصود بها فى جميع هذه الاستعمالات معنى واحدا هو التوحيد وعبادة اللّه وحده ورفض الشرك. ولهذا لا نجد حاجة لمتابعة اشتقاقات هذه الكلمة واستعمالاتها فى باقى اللغات ذات العلاقة باللغة العربية كالسريانية والحبشية، علما ان مثل هذا التتبع قد يكون شيئا مهما ولازمالمن اراد الاحاطة بعلم اللغات، ولا نجد ضرورة لهذا الجهد فيما اذا كان هدفنا معرفة معانى هذه الكلمة فى عصر الرسول (ص) فحسب، اذ يكفينا تتبع معانيها واستعمالاتها الواردة فى القرآن الكريم. والمراد بالحنيف هو الذى رفض عبادة الاصنام وكل ما يتصل بها من معانى الشرك، وكانت قريش واهل مكة جميعا ما زالوا يتذكرون ان جدهم ابراهيم (ع) هو صاحب الدين الحنيف الذى حارب الاصنام ورفض عبادتها، ولهذا اعتزل اولئك الاربعة قومهم، ووقفوا جانبا ينظرون الى قريش وهى تطوف حول تلك الاحجار وتقدم لها الاضاحى والقرابين فى يوم من ايام اعيادها، فاخذوا يحدثون انفسهم قائلين: «لقد ضيع هؤلاء الناس دين ابيهم ابراهيم (ع)، فما هذه الصخرة التى يطوفون حولها؟ انها لا تسمع ولا ترى ولا تنفع ولا تضر، فليبحثوا عن دين لهم،

فهذه لا تملك من امرها شيئا». عندها بداوا البحث عن (الحنيفية) اى دين ابراهيم (ع) فاعتنق كل من ورقة بن نوفل وعبيداللّه بن جحش وعثمان بن حويرث الدين المسيحى، واعتزلهم زيد بن عمرو، غير انه لم يعتنق دينا جديدا، كما انه ظل ممتنعا عن عبادة الاصنام وعن اكل لحم الميتة ولحم القرابين، ومن هنا قال عنه الرسول (ص): «انه يبعث امة وحده». لقد نسخت رسالة ابراهيم (ع) (جدالعرب وبانى الكعبة) بصورة تدريجية فى مكة، واندرست معالمها، ولم يبق فى ذاكرة الناس سوى شىء واحد، كانوا يتذكرونه جيدا، ذلك ان ابراهيم (ع) كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين. ولم تخل مكة من بعض العقلاء واهل المنطق الذين كانوا يتاملون عادات قومهم وعبادتهم المنحرفة، فيستيقظ وجدانهم ويتذكرون ابراهيم (ع) والهه الواحد وحنفيته، فيتركون عبادة الاصنام، وكان يطلق على هؤلاء (الحنفاء) وقد عاصر بعضهم الرسول (ص).

قضاة العرب

كان يقال للقاضى فى الجاهلية (حاكم)، يقول اليعقوبى: «كان للعرب حكام ترجع اليها فى امورها وتتحاكم فى منافراتها ومواريثها ومياهها ودمائها». [۸۸] كانت اكثر المشاجرات فىالجاهلية تدور حول الحسب والنسب او الشرف والامجاد التى تصنعها الاسر او آباء الطرفين المتنازعين، وكما اشرنا فيما سبق فان قوام القبيلة الحسب او مجموع ما حققه الاباء من مكرمات ومفاخر، وما قام به افراد هذه القبيلة واجدادها مناعمال كبرى، وكانوا يتنازعون حول هذه الامور فى الاماكن العامة والنوادى والاسواق العامة وعلى مراى ومسمع من الناس. وقد يحسم التنافر اخيرا عند الحاكم برجوع المتخاصمين اليه، ويبدو ان اكثر هذه المنازعات كانت تحل عند الكهنة المعروفين الذى كانوا عادة من قبائل واماكن اخرى. وكانوا يختبرون الكاهن كما اشرنا سابقا قبل عرض قضيتهم عليه، فان نجح فى الاختبار واجابهم بصورة صحيحة عن درالخبىء اى الشىء المخبا بادروا الى عرض الموضوع عليه بعد تحديد غرامة معينة يدفعها الطرف المدان فى التحكيم الى الطرف الغالب الذى يسمى عادة (المنفر). وغالبا ما تكون هذه الغرامة عددا من الابل ياخذها الغالب ويذبحها ثم يدعو الى وليمة عليها. ان بعض المنازعات كانت تتفجر لاسباب مالية او لاحقاق بعض الحقوق كمنافرة عبد المطلب وحرب بن امية حول المطالبة بدم احد اليهود. وكان هذا اليهودى من اهل نجران يقال له اذينة فى جوار عبد المطلب بن هشام، وكان يتسوق فى اسواق تهامة بماله، وان حرب بن امية غاظه ذلك، فالب عليه فتيانا من قريش وقال لهم: «هذا العلج الذى يقطع الارض اليكم ويخوض بلادكم بماله من غير جوار ولا امان! واللّه لو قتلتموه ما خفتم احدا يطلب بدمه»، قال: «فشد هاشم بن عبد مناف بن‌عبد الدار بن قصى عليه وصخر بن عامر فقتلاه، وكان معهما ابن مطرود الخزاعى»، قال: «فجعل عبد المطلب لا يعرف له قاتلا حتى كان بعد، فعلم من اين اتى، فاتى حرب بن امية فانبه لصنيعه وطلب بدم جاره، فابى حرب ذلك عليه، وانتهى بهما التماحك واللجاج الى المنافرة، فجعلوا بينهما النجاشى ملك الحبشة فابى ان ينفذ بينهما، فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبداللّه بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب فاتياه». وقد حكم عبد العزى لصالح عبد المطلب، واستدل على حكمه بدليل يمكن ان يكون مؤشرا مهما على طبيعة العرب ايام الجاهلية حيث قال: «يا ابا عمرو، اتنافر رجلا هو اطول منك قامة، واوسم منك وسامة، واعظم منك هامة، واقل منك لامة، واكثر منك ولدا، واجزل منك صفدا، واطول منك مذودا؟! وانى لاقول هذا وان فيك لخصالا انك لبعيد الغضب، رفيع الصيت فى العرب، جلد المريرة، تحبك العشيرة»، واغلظ لنفيل، وقال: من انتكاس الدهر ان جعلناك حكما. وقد قدمت هذه المنافرة الى شخص عادى وليس كاهن. اما المنافرة الاخرى التى وقعت لعبد المطلب مع طائفة ثقيف حول مسالة مالية، فقد تم الرجوع فيها الى كاهن فى الشام يدعى عزى سلمة العذرى، وقد وردت تفاصيل هذه المنافرة فى المنمق ص ۹۴ – ۹۷. وقد قالت ثقيف قبل ان يصدر حكم الكاهن لصالح عبد المطلب على لسان جندب بن الحارث: «اقض لارفعنا مكانا، واعظمنا جفانا، واشدنا طعنا»، بينما قالعبد المطلب: «اقض لصاحب الخيرات الكبر، ومن كان ابوسيد مضر، وساقى الحجيج اذا كثر». [۸۹] .وقد اشرنا سابقا الى ان هناك اشخاصا آخرين من كل قبيلة يقومون مقام القضاة او الكهنة عند الضرورة، وقد ذكر اليعقوبى فى تاريخه وصاحب المحبر اسماء

هؤلاء. فمثلا ذكر عبد المطلب وولداه الزبير وابو طالب من جملة الحكام، وكذلك حرب وابنه ابو سفيان. وذكر من بنى تميم شخص باسم ربيعة باعتباره حكما وقاضيا يجلس تحت قبة خشبية وعلى عرش من خشب (اثناء الحكم كما يبدو). ومن الاحكام التى صدرت فى الجاهلية ثم جاء الاسلام وايدها حكم (القسامة) فى مورد الظن بالقتل، حيث يحلف خمسون رجلا من افراد القبيلة المظنون بها، التى يظن ان احد افرادها قد ارتكب القتل ولا دليل عليه، ويقسم هؤلاء الخمسون انهم من هذا الدم برا، وحينها يحكم ببراتهم، وعليهم دفع دية المقتول فلقد اقر الاسلام (القسامة) بعد ان ادخل عليها تعديلات وتغييرات معينة.

الجاهلية

سميت هذه المرحلة، التى وصفناها بشكل مختصر، بعد الاسلام بمرحلة الجاهلية، ويقصد بها كما جاء فى القرآن الكريم الفترة التى سبقت الاسلام، وطبقا لما اوضحه كولدزيهر [۹۰] فان الجاهلية لا- تعنى الجهل وعدم المعرفة، وانما تعنى حسب الادلة والشواهد الكثيرة التى ذكرها كولدزيهر (الجاهلية) مقابل (الحلم) وفى القرآن الكريم تعنى مجموعة القيم والاخلاق والثقافة والمقاييس المقابلة للاسلام والتى تقف بوجهه، قال تعالى: (افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من اللّه حكما لقوم يوقنون) «المائدة: ۵۰»، وقال عزوجل: (يظنون باللّه غير الحق ظن الجاهلية) «آل عمران: ۱۵۴»وفى خطاب نساء النبى قال تعالى: (وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى) «الاحزاب: ۳۳». واستظهر بعض المفسرين من تعبير (الجاهلية الاولى) وجود مرحلتين من الجاهلية، الجاهلية الاولى، والجاهلية الثانية او الاخيرة. اما ظاهر الاية فيوحى بان المقصود بهذا التعبير هو الاشارة الى الجاهلية قبل الاسلام. وقد سلط القرآن الكريم مزيدا من الضوء على معنى الجاهلية بقوله: (اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) «الفتح: ۲۶» فقد وصف اللّه تعالى مرحلة الجاهلية بالعصبية والحمية الشخصية، بينما اتصف الرسول والمؤمنون معه بالسكينة والوقار، حيث قال فى‌الاية عينها: (فانزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين).واشار الى المعنى ذاته تقريبا الدكتور جواد على [۹۱] .حيث ذكر ان كلمة الجهل لا- يراد بها المعنى المتداول اليوم، وانما يراد بها المعنى المقابل للسكينة والصبر، وعلى حد قول گولدزيهر المقابل (للحلم) حيث يقول تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) «الفرقان: ۶۳». ومن البديهى ان المقصود بالجاهليين هنا ليس فاقدى المعرفة او غير المتعلمين، وانما يراد بهم المتكبرين واهل العصبية البغيضة. واخيرا فان المقصود بالجاهلية كما يظهر من استعمالات القرآن الكريم لها هى المرحلة التى سبقت الاسلام بكل مافيها من العصبية والتفاخر والتخاصم وعصيان اللّه تعالى والتعالى على اوامره ونواهيه. وبكلمة اخرى فان الجاهلية تعبيرعن الصفات التى اشتهر بها العرب قبل الاسلام، وكما يقول گولدزيهر: فانهما كالتقابل بين التوحش (البربرية) والتحضر والتعلم.

سيرة الرسول من الولادة حتى البعثة

الطبيعة المجتمع الاجاهلى الذى ولد فيه الرسول

من خلال الاستعراض الاجمالى للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والروحية التى كان عليها مجتمع شبه الجزيرة العربية بصورة عامة والمجتمع المكى بوجه خاص فى القرن السادس الميلادى، اتضح ان ذلك المجتمع كان مهيئا لاستقبال دين الهى جديد، ففى محيط مكة كانت هناك مجموعة من التجار الاغنياء، وجميعهم من اشراف قريش وسادتها، يرزح تحتهم جمع غفير من الفقرا والمحرومين الذين يشكلون الغالبية الساحقة فى المجتمع. وقد نمت تلك الاقلية المتحولة واثرت على الاغلبية الفقيرة التى كان يلجئها الفقر الى طلب المال بالربا حتى لو كانت الارباح اضعافا مضاعفة كما عبر القرآن الكريم. اما العبيد والغلمان فكان اكثرهم من الحبشيين السود الذين يحتلون ادنى المراتب فى النظام الطبقى الجاهلى، فى وقت كانوا يقضون اوقاتهم فى الاعمال الشاقة التى يصعب على غيرهم

تحملها. والى جانب هذا، كان المجتمع يفتقد الى القانون او النظام الذى يحفظ للفقير حقه ويأخذ من القوى ما اغتصبه من حقوق الضعفاء. امام هذا الواقع، كان الضعفاء يضطرون الى الاحتماء باحد الاشراف لحفظ مالهم وارواحهم، فيطلبون منه الحماية او الجوار او الامان وما الى ذلك، وكان الاقوياء من جانبهم لايجدون طريقا لتحقيق مآربهم سوى طريق القوة والقهر، واذاما تعادلت الكفة مع خصومهم التجاوا الى الحاكم او الكاهن ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليس من الضرورى ان ياتى حكم الحاكم طبقا لموازين العدل والانصاف بالشكل الذى جاء بها الاسلام فيما بعد بل غالبا ما يتحرى الكاهن فى حكمه القوى والاكثر بسطة فى المال والجسم والحسب والنسب فيحكم لصالحه، وقد اتضح ذلك من خلال الامثلة التى ذكرت فيما سبق. وفى الوقت الذى كان يحافظ فيه الشرفاء وسادة القوم على الاعراف والعادات التى وجدوا آباءهم عليها، نجد الطبقات الاخرى التى ترزح تحت يد الجور والفقر وتذوق مرارة هذه الاعراف وتكتوى بنارها، لا تتحمس لها ولا تظهر قدرا كافيا من الايمان بها، لهذا ظهرت مجموعة من القوم انفت عبادة الاصنام واتجهت الى دين ابراهيم الحنيف او اعتنقت الدين المسيحى. كان التجار واصحاب القوافل لا يامنون على بضائعهم وارواحهم وهم يسلكون طرقهم التجارية عبر الصحرا، ولهذا كانوا يتوسلون بالقوة او المال لدفع هجمات قطاع الطرق والغزاة عليهم، وقد اشتهر الغزو والاغارة حتى لم يعد شيئا مذموما فى ذلك العصر، بل كان امرا يدعو للفخر والاعتزاز سيما اذا ما اقترن بالجسارة والشجاعة. ومن الطبيعى ان يفرز مثل هذا المحيط جماعة من العقلاء واصحاب الفكر والفطرة السليمة، يكون همهم الاصلاح والهداية، وفى الوقت الذى نجد هؤلاء يعتزلون قومهم وديانتهم، نجدهم من جانب آخر يبحثون عن طريق للخلاص، وعن وسيلة يستطيعون من خلالها انقاذ قومهم وهدايتهم. وكانت مكة مهيأة اكثر من غيرها لظهور مثل هؤلاء وذلك لاشتداد الحاجة فيها الى الامن والاستقرار والنظام، فانتجمع الثروة ونمو التجارة كان بامس الحاجة الى الامن والقانون، كما ان انهماك التجار فى تجارتهم كان يعكره قلقهم المتزايد من النهب والسلب والسطو الذى لا سبيل لتجنبه سوى اقرار قانون عام يهابه الجميع وينضوون تحت لوائه. فى مثل هذا المجتمع ولد رسول اللّه (ص)، الذى لم يرق له بما كان يتمتع به من مواهب واستعدادات فطرية وطبيعية وبفضل الهداية الالهية وتوجيهات العقل اوضاع هذا المجتمع الذى عبر عنه بالجاهلية، ووجد ان اصلاح نواقصه جميعا وهداية قومه بل البشرية ككل يكمن فى توحيد اللّه و (اسلام‌الوجه) اليه، لهذا اعتزل مجتمعه الجاهلى وما يعبدون، والتجاالى غار فى احد الجبال يفكر ويتامل حتى اخذت العناية الالهية بيده وتم اصطفاؤه من بين الناس جميعا ليتحمل مسؤولية اصلاح المجتمع الانسانى واجرا احكام اللّه فيه، وفى يوم وساعة معينين لا نعلمهما بالضبط بعث لانقاذ الناس من‌الضلال، وقد امر ان يبدا بعشيرته الاقربين الى ان بدا النور الالهى يسطع ويتعالى فعم مكة والمدينة وشبه الجزيرة العربية ومن ثم العالم اجمع، فتنورت جميع الانحاء بالنور الالهى.

مولد الرسول

ولد الرسول فى مكة من اب قرشى هو عبداللّه بن عبدالمطلب، وام قرشية ايضا من بنى زهرة هى آمنة بنت وهب بن‌عبد مناف، وقد كانت ولادته المباركة يوم الاثنين من شهر ربيع‌الاول. وقيل: من شهر رمضان، وهو قول ضعيف. وقد وقع اختلاف فى اليوم الذى ولد فيه، فقيل: اليوم الثانى من شهر ربيع الاول، وقيل: فى الثامن منه، وقيل: فى العاشر منه، وقال آخرون: انه فى اليوم الثانى عشر، بينما ذهب اكثرالشيعة الى انه فى السابع عشر من ربيع الاول [۹۲] .وقد وقع الاختلاف نفسه ايضا فى السنة التى ولد فيها (ص) حتى اصبح من غير الممكن تحديد السنة التى ولد فيها على وجه الدقة والجزم. هناك حادثتان تم ضبطهما فى حياة الرسول (ص) وفى التاريخ الاسلامى بصورة دقيقة، لما كان لهما من اهمية خاصة، الحادثة الاولى: هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة، التى اصبحت فيما بعد بداية التاريخ الاسلامى، وهى فى الاول من المحرم السنة الاولى للهجرة، المطابق ل (۱۶ كانون الثانى عام۶۲۲ م)، ويقال ان هجرة الرسول (ص) كانت يوم الاثنين فى الثامن من ربيع الاول الموافق (۲۰ ايلول عام ۶۲۲ م). والحادثة الثانية: السنة التى توفى فيها الرسول (ص) وهى السنة الحادية عشرة للهجرة الشريفة، فى شهر صفر او ربيع الاول، ويتطابق هذا التاريخ مع العام ۶۳۲ م، وقد جر الاختلاف

فى تاريخ ولادته (ص) الى اختلاف فى عمره الشريف بين۶۳،۶۵، ۶۰ سنة. [۹۳] .واذا كان الراى الاشهر هو ۶۳ عاما، فسيكون عمره وقت الهجرة ۵۲ سنة تقريبا، وكل الاحاديث الاخرى فى حياته (ص) فيما عدا هجرته ووفاته (ص) كالبعثة والمولد تبقى مبنية على افتراضات غير دقيقة. وقد ذهب المشهور الى انه بعث وهو فى الاربعين من عمره، وقيل: ان بعثته كانت فى الثالثة والاربعين من عمره، بناء على رواية عن ابن عباس. ويمكن الافتراض بان بدء دعوته (ص) كان فى حدود الاربعين من عمره الشريف (ليس على وجه الدقة والقطع) فهناك روايات تقول: انه مكث عشر سنوات فى مكة بعد البعثة، واخرى تقول: انه اقام بها ثلاثة عشر عاما، ويبدو ان اكثر الرواة قد ذهبوا الى انه بعث فى الاربعين من عمره، انسجاما مع الاعتقاد الشائع بان سن الاربعين هو سن الكمال. اما من حيث الواقع فان من الناس من يبلغ الكمال العقلى والروحى قبل هذه السن بفترة طويلة، وبالعكس هناك من يتاخر كماله بعد هذه السن او انه لا يبلغ الكمال ابدا، اما العناية الالهية فلا تتاخر لتنتظر بلوغ الاربعين عاما، اذا ما توفرت فى الشخص مقومات البعثة قبل هذا التاريخ. وان هذا النوع من الملاحظات والترتيبات الزائدة انما هى من خيال الانسان ووهمه. وعلى اية حال، فان الاعتقاد الراسخ بان سن الكمال هو سن الاربعين، وبالنتيجة فانه سن البعثة، وبعد المقارنات اللاحقة واضافة سنوات الاقامة الثلاث عشرة التى امضاها الرسول (ص) فى مكة بعد البعثة، ثم السنوات العشر التى امضاها فى المدينة، وبعد البناء على ان عمره (ص) كان ثلاثة وستين عاما، استنتجوا ان عام ولادته كان فى عام (۵۷۰ م) كاقرب الاحتمالات. وبهذا لم يعرف على وجه الدقة لا عام ولادته (ص) ولا عام بعثته، ومن هنا يتضح السبب الذى دفع المسلمين لاختيار عام الهجرة الذى كان مسلما ومعروفا بصورة دقيقة عند الجميع كمبدا للتاريخ حين طرحت مسالة تحديد تاريخ معين للمسلمين، وقدمت حوله الاقتراحات المختلفة فى حينها لهذا التاريخ. ما تجدر الاشارة اليه هو قولهم: ان ولادة الرسول (ص) كانت فى عام الفيل، اذ من الطبيعى ان تتخذ الاحداث المهمة التى تبقى الى امد فى اذهان الناس ومحاوراتهم كمبدا للتاريخ، وعام الفيل، وهو العام الذى حدثت فيه حملة ابرهة، كان حدثا مهما يليق بان يكون مبدا لتاريخ ولادته (ص) غير ان الموجود هو انعام الفيل لا يطابق تماما عام (۵۷۰ م)، ففى هذا العام تقريبا سقطت حكومة (الحبشيين) فى اليمن بايدى الفرس (وهرزديلمى) مع العلم ان الاحباش بقوا يحكمون فى شبه الجزيرة العربية بعد عام الفيل لمدة، فحكم اليمن اثنان من اولاد ابرهة بعد وفاته، ومن هذه الناحية لم تتفق جميع الروايات على ان عام ولادته (ص) كان هو عام الفيل. قال الكلبى مثلا: ان عام الفيل كان قبل ولادة الرسول (ص) ب (۲۳) سنة، ونقل عن مقاتل انه كان قبل ولادة النبيب (۴۰) عاما [۹۴] .وبالنتيجة فان التلفيق بين الروايات واحتساب العام الذى ولدفيه يؤديان الى ان يكون عام (۵۷۰ م) هو عام ولادة الرسول (ص) وقد يكون ذلك هو الواقع فعلا. اما كون الرسول ولد فى عام الفيل، وان عام الفيل هو (۵۷۰ م) فهذا ما لا يمكن الركون اليه، بل قد يكون امرا بعيدا على ضوء الاختلافات التى نقلت فى تاريخ عام الفيل. فقد اعتبر المسعودى عام الفيل موافقا لسنة ۸۸۲ بتاريخ ذى القرنين. [۹۵] وبما انهم قالوا: ان ولادة الرسول كانت فى ربيع الاول وبعد خمسين يوما من واقعة الفيل، وبما ان هذه الواقعة (اى حملة ابرهة) كانت قد حدثت فى يوم الاثنين۱۷محرم عام ۸۸۲ اسكندرى (او ذو القرنين سلوكى). [۹۶] فعلى ضوء هذه الارقام والحسابات، توصلوا الى نتيجة مفادها ان ولادة الرسول (ص) كانت فى العام (۵۷۰م). بينما توصل السهيلى [۹۷] الى ان ولادته المباركة كانت فى ۲۰ نيسان (ابريل) المطابق لشهر ربيع الاول، علما ان هذا التاريخ كان قبل الغاء النسىء، وقد اشرنا سابقا الى ان العرب كانوا يطبقون الاشهر القمرية على السنة الشمسية من اجل تثبيت موسم السوق التجارية، ولهذا اتفق شهر ربيع الاول مع شهر نيسان.

مصادر سيرة الرسول قبل البعثة

لا توجد بين ايدينا معلومات وفيرة عن حياة الرسول (ص) بين ولادته وبعثته التى تمتد الى فترة طويلة تقدر طبقا للمشهور باربعين عاما، وقد سجل لنا اهل السير بعض الحوادث عن ولادته (ص) ورضاعه، وسفره الى الشام مع عمه، ومشاركته فى حرب الفجار وحلف الفضول، وكذلك عن زواجه من خديجة، ومشاركته فى ترميم الكعبة وحله لازمة رفع الحجر الاسود. وقد جرى قسم من هذه

الاحداث جريا طبيعيا لاينطوى على امور خارقة للعادة او معاجز، بينما تضمن القسم الاخر احداثا فيها كرامات وامور خارقة للقوانين السائدة ومعاجز، ولا نجد نحن المسلمين مانعا من قبول كل هذه المعاجز والخوارق، وليس هناك من مبرر لردها وانكارها بعد ان آمنا ان الرسول (ص) مبعوث الهى يحظى برعاية اللّه القادرعلى كل شىء وعنايته. اما اذا لوحظت هذه الحوادث بالمنظار التاريخى المحض وفى ضوء ما جرت عليه السنن الالهية فى ربط الامور باسبابها الطبيعية، فاننا يمكن ان نجد تفسيرا آخر لهذه الروايات التى تتحدث عن امور خارقة للعادة، ويمكن اعتبارها نوعا من التمثيل والرمز، واذا ما حاولنا فى هذا الكتاب توجيه هذه الروايات المبنية على المعاجز وجهة تمثيلية رمزية بما يتسع له المجال فاننا نقوم بذلك من اجل ان لا يفقد هذا المجهود بعده التاريخى العام، ويتحول الى كتاب دينى محض. فالكتاب الدينى يكتب عادة لاهل الديانة خاصة، اما الكتاب التاريخى الذى يجب ان يكتب بطريقة اخرى تحفظ له شموليته وعموميته، فلا يختص باهل ديانة معينة، وبذلك سوف لا يقف التعصب حائلا دون قراته، لهذا لا ينبغى الربط بين اعتماد المؤلف وتاكيده على توجيهه هذه الحوادث وجهة طبيعية، وبين معتقداته الدينية التى لا تختلف عن معتقدات عامة المسلمين.

وفاة عبداللّه و مرحلة الرضاعة

كان عبداللّه والد الرسول (ص) قد ذهب فى احدى القوافل التجارية الى الشام، وترك خلفه زوجته آمنة، وهى حامل برسول اللّه، فى مكة، وفى طريق عودته مرض فبقى عند اهل‌ام ابيه عبد المطلب، وظل هناك حتى فارق الحياة. بناء على القول المشهور فان الرسول (ص) كان ما يزال فى بطن امه عند وفاة ابيه عبداللّه، بينما قال آخرون: انه كان له من العمر (۲۸) شهرا حين وفاة والده، وهناك قول ثالث: بانه كان ابن سبعة اشهر. [۹۸] وكانت العادة قد جرت على ان يقوم اشراف مكة بايداع اطفالهم عند مرضعات فى البادية لينشاوا ويتربوا فى تلك البيئة النقية، والدليل على ذلك ما جاء فى طبقات ابن سعد: «انه قدم مكة عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يطلبن الرضاع، فاصبن الرضاع كلهن الا حليمة بنت عبداللّه بن‌الحارث، فعرض عليها رسول اللّه (ص) فجعلت تقول: يتيم ولامال له، وما عس امه ان تفعل؟ فخرج النسوة وخلفنها، فقالت حليمة لزوجها: ما ترى؟ قد خرج صواحبى، وليس بمكة غلام يسترضع الا هذا الغلام اليتيم، فلو انا اخذناه، فانى اكره ان نرجع الى بلادنا ولم ناخذ شيئا، فقال لها زوجها: خذيه عسى اللّه ان يجعل لنا فيه خيرا، فجاءت الى امه واخذته منها، ووضعته فى حجرها، فدر ثدياها وتدفقا لبنا، فشرب رسول اللّه (ص) حتى روى وشرب اخوه، وكان اخوه لا ينام من الغرث، فقالت امه: يا ظئر، سلى عن ابنك، فانه سيكون له شان، واخبرتها ما رات وما قيل لها فيه حين ولدته، وقالت: قيل لى ثلاث ليال: استرضعى ابنك فى بنى سعد بن بكر، ثم فى آل ابى ذؤيب، قالت حليمة: فان ابا هذا الغلام الذى فى حجرى ابو ذؤيب، وهو زوجى، فطابت نفس حليمة وسرت بكل ما سمعت، ثم خرجت به الى منزلها، فحدجوا اثاثهم، فركبت حليمة وحملت رسول اللّه (ص) بين يديها، وركب الحارث شارفهم، فطلعا على صواحبها بوادى السرر، وهن مرتعات، وهما يتواهقان، فقلن: يا حليمة ما صنعت؟ فقالت: اخذت واللّه خير مولود رايته قط، واعظمهم بركة. قالت النسوة: اهو ابن عبدالمطلب؟ قالت: نعم! قالت: فما رحلنا من منزلنا ذلك حتى رايت الحسد من بعض نسائنا».

غسل القلب و تطهيره

طبقا للروايات الواردة فى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبرى: «انه لما بلغ (ص) اربع سنين كان يغدو مع اخيه واخته فى البهم قريبا من الحى، فاتاه الملكان هناك فشقا بطنه واستخرجا علقة سودا فطرحاها، وغسلا بطنه بماء الثلج بطست من ذهب، ثم وزن بالف من امته فوزنهم، فقالاحدهما للاخر: دعه، فلو وزن بامته كلها لوزنهم». [۹۹] .وقد ذكرت هذه الرواية فى تفسير سورة (الشرح) وجاء فى سورة اخرى على لسان موسى وهو يدعو ربه (رب اشرح لى صدرى) «طه: ۲۵»، وتشير الاية الكريمة من ورا المعنى اللفظى الى معان مجازية عميقة، منها سعة الصدر، وانشراح القلب لتحمل الهموم الكبار، وبعد النظر، والاستقامة على الطريقة، وتطهير القلب

من هوى النفس ونزغ الشيطان ليصبح مهيا لاستقبال الاوامر والنواهى الالهية. اما ما ذكرته تلك الروايات من اخراج القلب وتطهيره، فيبدوانها كانت تشير الى معان رمزية حول طهارة قلب الرسول (ص) وما ينبغى ان يكون عليه النبى (ص) من طهر وسلامة وسعة صدر وخلوص نية، ولا ينبغى ان نحمل هذه الروايات على معانيها اللفظية وحسب، والا فان هذا القلب الذى فى الصدر لايمثل الا عضلة لضخ الدم لتستمر الحياة، اما شؤون النفس وقواها الروحية فيبدو ان مكانها الظاهرى الدماغ، او الاصح والادق ليس لها مكان مادى خاص.

وفاة آمنة و عبد المطلب

كان الرسول (ص) فى السادسة من عمره حين فارقت امه آمنة الحياة، ويقال: انها كانت قد تركته (ص) فى يثرب عند اهل ام عبد المطلب وقد توفيت فى طريق عودتها الى مكة فى (الابوا) بين مكة والمدينة، وتقول الرواية: ان مرضعة الرسول (ام ايمن) كانت ترافقه، وهى التى عادت به الى مكة بعدوفاة امه. [۱۰۰] .وتولى عبد المطلب امر الرسول (ص) بعد وفاة امه، وبقى الرسول فى رعايته الى حين وفاته فى الثمانين من عمره، وقيل: فى المائة والعشرين من عمره، وكان عمر الرسول (ص) حينئذ ثمانية اعوام، ويقال: ان عبد المطلب كان قد اوصى اباطالب ان يتولى امر رسول اللّه (ص) من بعده لكونهما (ابوطالب وعبداللّه والد الرسول) ابنى عبد المطلب من ام واحدة.

عناية ابى طالب برسول اللّه

لقد احسن ابو طالب رعاية ابن اخيه رغم فقره وحاجته، وتنقل الروايات قصصا غريبة عن مدى الحاجة والعوز اللذين كانعليهما ابو طالب، بينما هناك روايات تصف ابا طالب بانه كان من اهل التجارة والثروة، وكان كثير السفر الى الشام لاغراض تجارية، وفى روايات اخرى انه كان تاجر عطور ويتاجراحيانا بالقمح. [۱۰۱] .وتنقل الروايات ان ابا طالب كان قد اصطحب الرسول (ص) فى احدى اسفاره التجارية الى الشام، وكان عمره آنذاك اثنىعشر عاما، وبهذا فاننا لا نملك الا ان نتامل قليلا فى تلك الروايات التى تتحدث عن فقر ابى طالب وعوزه بعد ان كان من تجار قريش واشرافها.

قصة بحيرا

شاهد احد الرهبان المدعو (بحيرا) رسول اللّه (ص) فى سفره الى الشام مع عمه ابى طالب فى بصرى من اعمال الشام ولمح فيه علامات النبوة، فاسر الامر الى عمه ابى طالب وحذره من كيد اليهود وحثه على رعايته وحمايته من شرهم. ولو لمحنا شيئا من المبالغة فى رواية (علامات النبوة) وفى اخبار (بحيرا) عن الغيب، ولكن لا يمكننا انكار حقيقة ان الرسول (ص)، وبغض النظر عن منزلته الالهية العليا، كان ذا شخصية يمتاز بها عن اقرانه واترابه، وبناء على هذا فلن يكون تشخيص مثل تلك العلامات الكبرى، التى تنبى بمستقبل لامع، امرا صعبا او استثنائيا من قبل عالم روحانى كبحيرا. وكثيرا ما نصادف فى حياتنا تنبؤات عن بعض الاطفال الاذكياء المميزين، ثم يتبين فيما بعد صدق تلك التنبؤات وعدم ابتعادها عما يتحقق فى الواقع بصورة عامة. فقد تكون الرواية صحيحة من حيث الاصل، وان (بحيرا) تنبا فعلا لهذا الصبى النابغة بمستقبل عظيم، فاوصى عمه بضرورة المحافظة عليه والاهتمام بتربيته وحراسته من كيد الاعدا، اما تفاصيل القصة وجزئياتها فقد تكون من اضافات الرواة.

ايام الفجار و مشاركة الرسول فيها

الفجار على مرحلتين، عرفتا ب (الفجار الاولى) و (الفجارالثانية)، وسميت بالفجار لانها وقعت فى الاشهر الحرم، فى الموسم الذى

يفتتح فيه سوق عكاظ، وكان السبب الاصلى لها هو هتك حرمة الاشهر الحرم. والفجار مشتقة من (الفجور)،اذ كثيرا ما تتغلب طبائع العرب فى الغزو والاغارة على الحدود والاعراف التى وضعتها القبائل العربية والتزمت بالحفاظ عليها. ولا يعرف تاريخ هذه الحرب بشكل دقيق ولا يوجد بين ايدينا تفاصيل كاملة عن مجرياتها، اذ لم يدون تاريخها الا بعد فترة طويلة من وقوعها، اى فى القرن الاول والثانى الهجريين، فمن الطبيعى ان يحفل مثل هذا التاريخ بالاختلافات والتناقضات. قال اصحاب السير: ان الرسول (ص) شارك فى هذه الحرب فى مرحلتها الثانية، ويقول الاصفهانى: ان ايام الفجار الثانية كانت عبارة عن يوم نخلة، ويوم الشمطة، ويوم العبلاء، ويوم عكاظ، ويوم الحرة. [۱۰۲] واستمرت لاربع سنوات متواصلة. [۱۰۳] وكانت كل واحدة منها تبدا فى موسم سوق عكاظ، اما طرفا النزاع فهما قريش والمتحالفون معها من جانب، وقبائل هوازن من جانب آخر. ويقول صاحب الاغانى فى الصفحة نفسها: «ان الرسول (ص) شارك فى الحرب فى جميع فصولها الا فى يوم (نخلة)، من السنة الاولى»، ولكنه نقل عن ابى عبيدة ان رسول اللّه كان قد شارك فى يوم (نخلة) ايضا، وكان عمره اربعة عشر عاما، وكانت مشاركته فى دعمه لاعمامه ومساندته لهم فى الرمى، اى بتزويدهم بالنبل، وينقل عن الرسول (ص) قوله: «كنت انبل اعمامى». وجاء فى تفسير ذلك ان الرسول كان يجمع النبل القادم من العدو ويجعله فى متناول اعمامه. وذكر صاحب الاغانى ان عمر الرسول كان وقتئذ (۲۸) سنة. [۱۰۴] وهذا ما يصعب تصديقه، لان الرجل اذا بلغ كان هذا العمر فستكون مشاركته بالحرب مشاركة مباشرة، ولا يكتفى بجمع النبل واحضاره للمقاتلين! ويقول ابن الاثير: «ان الرسول كان له من العمر عشرون عاما ايام تلك الحرب»، وهذا بدوره لا يمكن تصديقه للسبب عينه. كانت قريش قد هزمت فى يوم (نخلة) ولاذت بالحرم، ولهذا السبب، وبسبب حلول الليل ايضا توقفت الحرب. وينقل ابن الاثير عن الزهرى قوله: ان الرسول لم يشارك فى هذه الحرب، فلو كان حاضرا لما هزمت قريش، غير ان ابن الاثير يرد على هذا التعليل، ويقول: ان اصحاب الرسول (ص) كانوا قد هزموا بعد بعثته كما فى احد مثلا فكيف لا يمكنان يهزموا قبل البعثة. [۱۰۵] .وقال صاحب الاغانى: «ان الرسول اشترك فى يوم (الشمطة)) (فى السنة الثانية فى الفجار الثانية) وينقل عن الرسول قوله: «انه ما حمل على ناحية الا وهزم من كان فيها»، ويضيف فى ص ۶۴: ان الرسول شارك فى جميع معارك حرب الفجار الا فى يوم (نخلة) كانت مشاركته بتحضير النبل لاعمامه، وكان عمره عشرين عاما، وكذلك اشترك فى حرب الابوا المعروفة بمعركة (ملاعب الاسنة) وكان قد اصيب فيها». ويحتمل كثيرا ان يكون الرسول (ص) قد اشترك فعلا فى هذه الحروب بناء على صحة القولين المنقولين عنه (ص)، احدهما: «كنت انبل على اعمامى»، والاخر: «ما سرنى انى لم اشهده، انهم تعدوا على قومى، عرضوا عليهم ان يدفعوا اليهم البراض صاحبهم فابوا». [۱۰۶] .يمكن الجمع بين الروايات، التى تذهب الى انه كان صغيرا لم يشترك فى الحرب بصورة مباشرة، وبين الروايات التى تدعى مباشرته للحرب كاى مقاتل آخر، بالقول ان المجموعة الاولى من الروايات تتعلق ببداية الحرب، والتى كان عمر الرسول (ص) حينها فى حدود الاربعة عشر او الخمسة عشر عاما، حيث اقتصر فى مشاركته على مساعدة اعمامه فى تحضير النبل، اما المجموعة الثانية فتتعلق باواخر الحرب حيث بلغ حينها الثامنة عشر او اكثر، ولم يعد يكتف بتلك المشاركة، بل اصبح يقاتل بصورة مباشرة. اما سبب رضا الرسول عن مشاركته فى الحرب وادانته لخصوم قريش فيها اى (هوازن) رغم ان (البراض) الداخل فى جوار قريش كان فاسقا وخمارا وقاتلا، فربما يعود لاصرار (هوازن) على تسلم البراض بالقهر لتنزل به القصاص وتقتله، ورفضوا كما يفهم من مضمون الروايات، وان لم يظهر ذلك فيها بشكل صريح قبول الدية، وبادروا الى الحرب دون تورع عن سفكالدماء وقتل المزيد من الناس. [۱۰۷] .

حلف الفضول و مشاركة الرسول فيه

تم التوصل الى (حلف الفضول) بعد عودة قريش من حربالفجار، وكان الرسول (ص) حينها قد بلغ العشرين من عمره الشريف، ويبدو ان هذا الحلف الذى ابرم فى شهر ذى القعدة كان افضل واشرف حلف عقده عرب الجاهلية على الاطلاق. وقيل: ان الرسول (ص) كان حاضرا حين ابرام الحلف فى بيت عبداللّه بن جدعان، ونقل عنه (ص) قوله: «ما احب ان لى بحلف حضرته بدار ابن

جدعان حمر النعم وانى اغدر به، هاشم وتيم تحالفوا ان يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة، ولو دعيت به لاجبت، وهو حلف الفضول». [۱۰۸] لقد عقد هذا الحلف لاخذ حق المظلوم من الظالم فى مكة، فكان لا يامن العربى ولا غيره على ماله هناك، وكان من بين من اشتهر من قريش بالاغارة على اموال الناس: العاص بن وائل السهمى (ابو محمد بن العاص) الذى اخذ مالا لشخص من بنى زبيد ولم يدفع ثمنه، فشكا الزبيدى امره الى حلفائه وكان منهم بنوسهم، فلم يكتف هؤلاء الاحلاف وهم (بنو عبد الدار ومخزوم وسهم وعدى وجمح) بعدم نصرته بل اعانوا عليه، فلجا الزبيدى الى جبل قبيس، وكان قد وصل الى هناك قبل طلوع الشمس، وبينما كان القرشيون يطوفون حول الكعبة نادى الزبيدى بظليمته وطلب النصرة من قريش، وكان من بين الذين سمعوا نداه اعضاء حلف المطيبين، اى بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم، فاجتمعوا فى منزل عبداللّه بن جدعان، وكان من اشراف قريش واغنيائها، فتعاهدوا على ان يقفوا الى جانب المظلوم وينازعوا الظالم حتى ياخذوا الحق منه. [۱۰۹] وذكرت هذه الرواية سببا آخر لحلف الفضول وهو التنازع على مناصب بنى عبد الدار.

الزواج من خديجة

كانت خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى قد تزوجت من رجلين قبل زواجها من رسول اللّه (ص)، احدهما (ابو هالة التميمى)، وقد انجبت منه ولدا اسمه هند، دخل الاسلام فيما بعد وكان من البدريين، وقد روى عنه الامام الحسن بن على (ع) حديثا واصفا اياه ب (خالى). وشهد هند مع اميرالمؤمنين معركة الجمل، وقتل فيها، وانجبت خديجة من زوجها الثانى (عتيق بن عابد المخزومى) بنتا اسمتها هند ايضا، (هوند اسم مشترك بين الذكور والاناث). وتشرفت هى الاخرى بالاسلام. كانت خديجة على قدر كبير من الثراء، وكثيرا ما كانت تستاجر العمال وترسلهم فى قوافل تجارية الى الشام وغيرها من الاسواق. وطبقا للرواية التى اوردها ابن سعد فى طبقاته: [۱۱۰] لما بلغ رسول اللّه (ص) خمسا وعشرين سنة قال له ابو طالب: «انا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا، وهذه عير قومك وقد حضر خروجها الى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لاسرعت اليك»، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، فارسلت اليه فى ذلك وقالت له: «انا اعطيك ضعف ماعطى رجالا من قومك». قال: اخبرنا عبداللّه بن جعفر الرقى، قال ابو طالب: «يابن اخى، قد بلغنى ان خديجة استاجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما اعطته، فهل لك ان تكلمها؟» قال: «ما احببت!» فخرج اليها فقال: «هل لك يا خديجة ان تستاجرى محمدا؟ فقد بلغنا انك استاجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون اربع بكار» قال: «فقالت خديجة: لو سالت ذاك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سالت لحبيب قريب؟». واخيرا ذهب الرسول (ص) الى الشام فى قافلة تجارية لخديجة، ورافقه فى سفره هذا غلام لها يدعى ميسرة، وقد فتح اللّه على يد رسوله، فكانت رحلة تجارية ناجحة وصفقة رابحة، فاعجبت خديجة باخلاق رسول اللّه وامانته خلال السفر، وزادها قناعة غلامها ميسرة الذى نقل لها اعجابه هو الاخر برفيقه وما لاحظه، من امور تستدعى التقدير والثناء، فما كان منها الا ان اعربت عن رغبتها بالزواج منه، ولما بلغ احد الاشخاص الرسول (ص) ذلك استجاب لهذه الرغبة، فقامعماه ابوطالب وحمزة بخطبة خديجة من عمها عمرو بن اسدوتم الزواج. وكان الرسول قد بلغ (طبقا للروايات) الخامسة والعشرين من عمره حينها فكان يصغرها بخمسة عشر عاما. وقد تحدثت الاخبار عن معاجز وكرامات حصلت للرسول (ص) فى سفره هذا الى الشام، وعن نبوءات تنبا بها راهب مسيحى يدعى (نسطور) حول نبوته (ص)، نقول بشانهاما سبق منا الاشارة اليه، وهو اننا لا نرى فى تنبؤ الرهبان بمستقبل شاب لفت الانظار بحدة ذكائه وعلو همته وشدة استقامته، امرا خارقا للعادة، بل ذلك امر ميسور لكل انسان يتمتع بقدر بسيط من الذكاء والفراسة. لكن ان يتنبا رجل دين مسيحى بنبوة انسان غريب، قد يكون ذلك امرا مستبعدا. اما اذا كان الغرض من الحاق هذه القصة بالرواية المذكورة هو التدليل على صدق النبوة، او للفخرو الاعتزاز، فان الرسول غنى عن مثل هذه الشهادات، وغير محتاج لتلك المفاخر، وله من افعاله واقواله خير دليل على صدق نبوته، وقيلها جميعا القرآن الكريم. والملفت فى رواية الزواج من خديجة هو رغبة

هذه المراة، التى هى من اشرف واغنى نساء قريش، بالزواج منه (ص)، وهذا دليل على علو منزلته وجلال قدره وطيب سمعته. فمع ماله من شرف الحسب والنسب غير انه كان فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا. اما اعمامه فقد بلغ فيهم الفقر فى حينها حداحاروا معه فى اعالته (ص). فلا يمكن لمن هذه حاله ان يستقطب اهتمام الناس ويكسب احترامهم وتقديرهم الا بالخلق الحسن والمعاملة الطيبة والمودة للناس. لقد بلغ رسول اللّه (ص) المنزلة الاجتماعية المرموقة التى جعلت امراة من اشرف واغنى نساء قريش تعرض الزواج عليه (ص). وقد وردت تفاصيل كثيرة فى موضوع هذا الزواج، ومنها ما قيل: «ان خويلد ابا خديجة سقى من الخمر حتى اخذت فيه ثم دعا محمدا (ص) فزوجه». نقول ان الامر الذى دفع خديجة الى طلب الزواج من الرسول (ص) هو مكانته الاجتماعية واشتهاره فى مكة بالصادق الامين، وذلك لم يدع مجالا للتردد امام ابى خديجة ولم يكن بحاجة لان يلجا الى السكر لاصدار الموافقة، كما اننا لم نعثرعلى ما يشبه هذه الحادثة فى قريش، ولو صحت تلك الرواية فسيحكم على هذا الزواج بالفساد والبطلان فى وقته. فالرواية تكذب نفسها بنفسها، ويحتمل ان تكون مما دسه اعداء بنى هاشم، وخصوصا اعداء ابناء فاطمة (ع) والعلويين، فان فاطمة ومن ثم اولاد الرسول (ص) وائمة الشيعة انما كانواحصيلة هذا الزواج.

اولاد الرسول من خديجة

روى ابن سعد [۱۱۱] عن هشام بن محمد الكلبى عن ابن‌عباس، قال: «كان اول من ولد لرسول اللّه (ص) بمكة قبل النبوة القاسم، وبه يكنى، ثم زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم ام كلثوم، ثم ولد له فى ا»سلام عبد اللّه فسمى الطيب والطاهر، وامهم جميعا خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى، وامها فاطمة بنت زائدة بن الاصم، وكان اول من مات من ولده القاسم، ثم مات عبداللّه بمكة، فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع ولده فهو ابتر، فانزل اللّه تعالى: (ان شانئك هو الابتر) «الكوثر: ۳».

مشاركة الرسول فى ترميم الكعبة

ان الرسول (ص) كان قد ساهم فى شبابه وقبل بعثته فى ترميم بناء الكعبة، وقد وقع اختلاف فى تقدير وتحديد عمر الرسول (ص) حينئذ، حيث قال الازرقى: «ان الرسول (ص) كان غلاما» واضاف الازرقى: «فنقلوا الحجارة ورسول اللّه يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحى، ينقل معهم الحجارة على رقبته، فبينا هو ينقلها اذ انكشفت عزة كانت عليه فنودى يا محمد عورتك، وذلك اول ما نودى واللّه اعلم، فما رؤيت لرسول‌اللّه (ص) عورة بعد ذلك... فشد رسول اللّه (ص)ازاره، وجعل ينقل معهم». [۱۱۲] .وقال ابن اسحاق: «فلما بلغ رسول اللّه (ص) خمساوثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبناء الكعبة». [۱۱۳] .ويعتقد ان رواية ابن اسحاق هى الاصح، فسنرى ان الرسول حين اختير ليحكم فى قضية الحجر الاسود والاختلاف الذى وقع فيمن ينال شرف رفعه، قالوا: «هذا الامين» وذلك لاينسجم مع كونه طفلا او غلاما. وقد وقع اختلاف ايضا فى اسباب ترميم الكعبة، فقال ابن‌سعد: «كانت الجرف مطلة على مكة، وكان السيل يدخل من اعلاهاحتى يدخل البيت فانصدع، فخافوا ان ينهدم». [۱۱۴] .وروى الازرقى فى تاريخ مكة: «ان امراة تجمر الكعبة، فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها، وكانت الكسوة عليها ركاما بعضها فوق بعض، فلما احترقت الكعبة توهنت جدرانها من كل جانب». وذكر الازرقى فى المصدر نفسه قضية السيل. وكانت جدران الكعبة قصيرة على ما يبدو، كما ان بنيانها كان من الحجر الذى وضع دون ملاط يشده الى البعض، حيث جاء فى سيرة ابن هشام: [۱۱۵] «انها كانت رضما فوق القامة، فارادوا رفعها وتسقيفها ولهذا وقعت تلك السرقة المعروفة للكعبة، حيث جاء فى الصفحة نفسها من سيرة ابن هشام، ان نفرا سرقوا كنزا للكعبة، وقيل ان ابا لهب عم الرسول (ص) وعدوه اللدود كان احد المشاركين فى هذه السرقة. كان باب الكعبة ملاصقا للارض، وبحيث يمكن الدخول الى داخلها، ويبدو ايضا ان الكعبة لم يكن لها سقف، وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، واخذوا خشبها، فاعدوه لتسقيفها، واذنوا لاهلها اى اهل السفينة ان يدخلوا مكة فيبيعون ما معهم من متاع على ان لايعشروهم، وكانوا يعشرون

من دخلها من تجار الروم، ويقول ابن هشام: «وكان بمكة رجل قبطى نجار فتهيا لهم فيانفسهم بعض ما يصلحها». [۱۱۶] .وفى رواية اخرى للازرقى: انه كان فى السفينة رومى نجاربناء يسمى باقوم كان قد ساعدهم فى بنائها [۱۱۷] .وبعد تهيب وخوف من غضب اللّه، قامت قريش بهدم جدر ان الكعبة، قال الازرقى: «فلما وضعوا ايديهم فى بنائها قالوا: ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الابسلم، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه، ففعلوا ذلك وبنوها بساف من حجارة وساف من خشب بين الحجارة حتى انتهوا الى موضع الركن فاختلفوا فى وضعه، وكثر الكلام فيه، وتنافسوا فى ذلك، فقال بنو عبد مناف وبنو زهرة: هو فى الشق الذى وقع لنا، وقالت تيم ومخزوم: هو فى الشق الذى وقع لنا، وقالت سائر القبائل: لم يكن مما استهمناعليه فقال ابو امية المغيرة: يا قوم، انما اردنا البر، ولم نرد الشر، فلا تحاسدوا ولا تنافسوا، فانكم اذا اختلفتم تشتتت اموركم وطمع فيكم غيركم، ولكن حكموا بينكم اول من يطلع عليكم من هذا الضح. قالوا: رضينا وسلمنا فطلع رسول اللّه (ص) فقالوا: هذا الامين قد رضينا به فحكموه. فبسط رداءه، ثم وضع فيه الركن، فدعا من كل ربع رجلا، فاخذوا باطراف الثوب، فكان من بنى عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان فى الربع الثانى ابو زمعة بن الاسود، وكان اسن القوم، وفى الربع الثالث العاص بن وائل، وفى الرابع ابو حذيفة بن المغيرة، فرفع القوم الركن، وقام النبى (ص) على الجدار ثموضعه بيده». [۱۱۸] .وتدل هذه الرواية على رجاحة عقل الرسول، وحسن تدبيره، وحدة ذكائه، وكفاءته، ولا غرو فى ذلك، فمن استطاع ان يغير الوجه الاجتماعى والسياسى لجزء مهم من العالم المتحضر، لا بد ان يكون له مثل هذا العقل وتلك الكفاءة، ولا نجد مبررالرد الرواية وعدم قبولها. وكما اوضحنا فان ارتفاع الكعبة كان بحدود تسعة اذرع ولم يكن لها سقف، وانما تدلى الكسوة على الجدار من الخارج وتربط مناعلى الجدار من بطنها. [۱۱۹] .وقال الوليد بن المغيرة اثناء البناء: «لا تدخلوا فى عمارة بيت ربكم الا من طيب اموالكم، ولا تدخلوا فيه مالا من ربا، ولا مالا من ميسر، ولا مهر بغى، وجنبوه الخبيث من اموالكم، فان اللّه لا يقبل الا طيبا، ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام، فقاموا يدعون ربهم ويقولون: «اللهم ان كان لك فى هدمها رضا فاتمه». ولكن ما جمعوه من النفقة لم يكن كافيا البيت كله، لانهم لم ياخذوا من الاموال الحرام خصوصا اموال الربا، والسرقة فتشاوروا فى ذلك، فاجمع رايهم على ان يقصروا عن القواعد، ويحجروا مايقدرون عليه من بناء البيت ويتركوا بقيته فى الحجر، وعليه جدار مدار يطوف الناس من ورائه، ففعلوا ذلك، وجعلوا فى بطن الكعبة اساسا يبنون عليه من شق الحجر ستة اذرع وشبرا، فبنوا على ذلك، فلما وضعوا ايديهم فى بنائها قالوا: «ارفعوا بابها من الارض واكبسوها حتى لا تدخلها السيول ولا ترقى الا بسلم، ولا يدخلها الا من اردتم، ان كرهتم احدا دفعتموه»، ففعلوا ذلك وبنوها بسافمن حجارة وساف من خشب بين الحجارة. [۱۲۰] .فبنوا اربعة اذرع وشبرا، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعا على هذا الذرع، ورفعوها بمدماك خشب ومدماك حجارة، حتى بلغوا السقف، فقال باقوم الرومى: «اتحبون ان تجعلوا سقفها مكبسا او مسطحا؟»، فقالوا: «بل ابن بيت ربنا مسطحا». قال: «فبنوه مسطحا، وجعلوا فيه ست دعائم فى صفين، فى كل صف ثلاث دعائم من الشق الشامى الذى يلى الحجر الى الشق اليمانى، وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا... وزوقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلوا فى دعائمها صورالانبياء وصور الشجر وصور الملائكة، فكان فيها صورة ابراهيم خليل الرحمن وهو شيخ يستقسم بالازلام، وصورة عيسى ابن مريم وامه»، ويبدو ان هذه الصور من اعمال الروم المسيحيين وخاصة صورة عيسى ومريم عليهما السلام والافان القرشيين مشركون ولا يعتقدون بالمسيحية. وقيل: «لما كان يوم فتح مكة دخل رسول اللّه (ص) فارسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم، ثم امر بثوب وامر بطمس تلك الصور فطمست، قال: ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وامه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور الا ما تحت يدى فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وامه ونظر الى صورة ابراهيم فقال: قاتلهم اللّه، جعلوهيستقسم بالازلام، ما لابراهيم وللازلام». [۱۲۱] .

سيرة الرسول من البعثة حتى الهجرة

موقف الرسول من عقائد وعادات قومه قبل البعثة

ان ما وصل الينا من حوادث عن حياة الرسول (ص) تعتبر قليلة جدا، ولا تمثل سجلا وافيا لاربعين عاما او اكثر من حياة حافلة بالاحداث كحياة الرسول (ص)، ويبدو ان اكثر الذين رووا سيرته ونقلوها الى الناس لم يعاشروا الرسول (ص) ولم يرافقوه طيلة حياته فهناك فقط قلة من اصحابه (ص) رافقته منذ البعثة وحتى الهجرة، غير ان تقدم سنهم لم يمهلهم الى حين بدا الرواة والمحققون حملتهم لتدوين تفاصيل الحياة النبوية بناء على رواية الصحابة الاوائل، وجعلها فى متناول الناس، بل توفوا قبل مرحلة التدوين او استشهدوا فى المعارك والغزواتالتى وقعت خلال حياة الرسول (ص). كان احد هؤلاء ابا بكر بن ابى قحافة الذى رافق الرسول (ص) فترة طويلة جدا، وكان قرينه فى السن تقريبا، غير انه لم يعش بعد الرسول (ص) سوى سنتين، بينما قتل الصحابى الاخر حمزة، عم الرسول واخوه بالرضاعة، فى معركة احد، ودفنت معه احداث وذكريات مهمة، اما الامام على بن ابى طالب (ع) فلم يكن له من العمر حين البعثة النبوية سوى عشرة اعوام، فهو لا يستطيع استحضار تفاصيل الاحداث التى عاشها الرسول (ص) ايام شبابه بصورة كاملة. ورغم كل هذا فاننا يمكن ان نهتدى بذلك القدر المحدود من الاحداث التى ثم تدونيها الى المقام الذى كان عليه الرسول (ص) من حسن الخلق، وحدة الذكاء، ورجاحة العقل والتدبير، وشدة حبه للخير، ومثال ذلك ما قاله (ص) حول حلف الفضول. ويستشف من بعض الروايات التى نقلت هنا وهناك ان الرسول (ص) كان دائم التفكير والتامل فى واقع قومه قبل البعثة، وفى الوقت الذى كان يرفض فيه كل المظاهر والاخلاق والاعراف الباطلة، كان يراعى تقاليدهم الدينية بالقدر الذى لاتترك معه اى اثر فى نفسه، وبعبارة اخرى كان يتجنب استفزازهم والظهور بمظهر التحدى لهم دوما، ومن البديهى ان ذلك لا يعنى قبول عبادة الاصنام واقرارها، او العمل بماجرى عليه الناس من اعراف جاهلية قبيحة، فهم برغم اعتقادهم بسوء تلك العادات، مثل الزنا والغزو وارتكاب القتل والسرقة وقطع الطريق وما الى ذلك، غير انهم كانوا لا يمتنعون عنها، وقد مرت الاشارة الى هذا المعنى فى مسالة تجديد بناء الكعبة حيث قيل انهم كانوا لاينفقون على هذا البناء من اموال الربا والسرقة او من اموال القمار والزنا، ولهذا كانت الاموال التى تجمع لهذا الغرض قليلة. كان الرسول (ص) فى موقفه من دين قومه يراعى ظواهر الامور، فنحن نعلم ان الكعبة كانت تغص بالاصنام، وان العرب اعتادوا على الطواف حولها، يوميا او كل عدة ايام، سبعة اشواط، وكان الرسول قبل البعثة، وفى كل مرة يعود فيها من التحنث والانقطاع فى غار حراء، يذهب قبل كل شىء الى البيت ويطوف حول الكعبة، ثم ينصرف الى ممارسة شؤون حياتهالعادية [۱۲۲] .

التحنث فى غار حراء

مرت الاشارة سابقا الى ان هناك جماعة من مكة ابوا متابعة دين آبائهم، واعتزلوا قومهم وما يعبدون، وذهبوا يبحثون عن دين افضل، فاعتنق ثلاثة من هؤلاء الديانة المسيحية، وهم: عثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، وعبيداللّه بن جحش، اما الشخص الرابع، وهو زيد بن عمرو بن نفيل، فقد ظل على حيرته حتى وافاه الاجل، وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد واجه اذى من عمه الخطاب ابن نفيل، فاضطر الى الابتعاد والالتجاء الى جبل حراء،الذى يبعد عن مكة مسافة ثلاثة اميال [۱۲۳] .وقد روى ابن اسحاق انه كان يوجد فى جبل حراء غار تذهب اليهقريش ايام تحنثها [۱۲۴] .والتحنث يعنى (التبرر)، وقيل: هو التعبد واعتزال الاصنام. وقال ابن سيده: «وهذا عندى على السلب، كانه ينفى بذلك الحنث، الذى هو الاثم، عن نفسه، كقوله تعالى: (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) «الاسراء: ۷۹» اى انف الهجود عن عينك، ونظيره تاثم وتحوب، اى نفى الاثم والحوب، وللعرب افعال تخالف معانيها الفاظها، يقال: فلان يتحنث من كذا، اى يتاثم منه، وقوله: يتحنث من كذا، اى يفعل فعلا يخرج بهمن الحنث، وهو الاثم والحرج». [۱۲۵] .اما عن كيفية هذا التحنث الذى كانت تفعله قريش والاسباب التى تدعوها اليه، فهذا ما لا نملك معلومات كافية عنه، ووردفى رواية لابن اسحاق: «ان رسول اللّه (ص) كان قبل البعثة يتحنث شهرا كاملا فى كل سنة فى غار حراء، وكان يطعم كل فقير ياتيه». ويضيف ابن اسحاق قائلا: «وكان مما تتحنث به قريش ايام الجاهلية». ولم توضح العبارة بالدقة ما اذا كانت قريش تتحنث شهرا فى كل سنة ايضا، وهل تتحنث قريش جميعها، (وهو احتمال بعيد) او بعضها؟. كما ان الرواية لم تبين جهات اخرى لهذا التحنث، فربما كانت هناك اماكن اخرى للتحنث غير جبل

حراء. وجاء فى هذه الرواية، ان الرسول (ص) كان يعود بعد شهر من التحنث الى مكة، وقبل ان يباشر اى عمل يذهب ويطوف حول الكعبة سبعة اشواط وبعدها ينصرف الى بيته. وهكذا كان رسول اللّه (ص) يكرر هذا العمل فى كل عام حتى نزل‌عليه الوحى، وبعثه اللّه نبيا، وكان ذلك فى شهر رمضان. وهناك رواية اوردها الطبرى عن ابن شهاب الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، وقد نقلتها عن رسول اللّه (ص) بصيغة المتكلم مرة وبصيغة الغائب مرة اخرى، قالت: «كان اول ما ابتدىء به رسول اللّه من الوحى الرؤيا الصادقة، كانت تجىء مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ثم يرجع الى اهله فيتزود لمثلها، حتى فجاه الحق، فاتاه جبريل فقال: يا محمد، انت رسول اللّه. فجثوت لركبتى ثم رجعت ترجف بوادرى، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروع. ثم اتانى فقال: يا محمد انت رسول اللّه، قال: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق، فتبدى لى حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، انا جبريل وانت رسول اللّه. قال: اقرا، قلت: وما اقرا؟ فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق) فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر، فواللّه لا يخزيك اللّه ابدا، فواللّه انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرا الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقالت: اسمع من ابن اخيك، فسالنى فاخبرته خبرى، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك. قلت: امخرجى هم؟، قال: نعم، انه لم يجىء احد مثل ما جئت به الا عودى، ولئن ادركنى يومك لانصرنك نصرا مؤزرا. ثم ان اول ما نزل عليه من القرآن بعد (اقرا)، (ن والقلم ومايسطرون) و (ياايها المدثر) و (الضحى). تشتمل الرواية السابقة على نقاط مهمة ينبغى الاشارة اليها تباعا. اول هذه النقاط الرؤيا الصادقة، او قولها: كان اول ما ابتدى به رسول اللّه من الوحى الرؤيا الصادقة، والرؤيا الصادقة هى الرؤيا التى تتجسد وقائعها وما شاهده النائم فيها على الواقع حقيقة، ولكن لا يمكن ان يصدق مثل هذا المعنى على ما نحن فيه، فان مثل هذه الرؤى تتكرر وتشيع، ثم ما هو وجه الشبه بينها وبين فلق الصبح؟ النقطة الثانية قول الرواية: ان اول ما نزل على رسول اللّه (ص) من القرآن الكريم (اقرا باسم ربك) اذن ما الذى نزل فى تلك الرؤيا الصادقة التى كانها فلق الصبح؟ لا يمكن اعطاء اجابات صحيحة ودقيقة على هذه الاسئلة، اذلم يسبق لاحد الالتفات اليها، او انه قد التفت اليها لكنه تركها دون اجابة، او اننى لم اطلع على الاجابات، واعترف بعدم اطلاعى على معلومات كثيرة قالها او سجلها علماء السيرة. اما ما يمكن ان يقال عن قولها: «اول ما ابتدى به رسول‌اللّه (ص) من الوحى الرؤيا الصادقة. فان الرواية قد تكون فى صدد بيان مقدمات الوحى لا الايات نفسها التى نزلت‌عليه (ص)، او تلك المقدمات التى كانت نتيجة تفكيره العميق بالعالم والخالق ومصير الانسان، وباقى المسائل التى كشفت له، ليس عن طريق الوحى و (القول) و (الكلام) و (القرآن)، وانما بالطريقة التى يمكن ان يصل اليها كل المفكرين والمتعمقين بمسائل الكون وقضايا الخلق والانسان، وتنكشف لهم بواسطتها حقائق مهمة وخطيرة. كالتفكر الذى قاده الى الاقتناع ببطلان الدين الذى كان عليه قومه ومعاصروه، وجعله متيقنا بضلالتهم، وقاطعا بعدم جدوى تلك الاصنام وعجزها عن النفع او الضر. لقد ثبت له ان الشمس والقمر والليل والنهار كلها موجودات مسيرة لا تملك الا ان تجرى ضمن نظام شامل وضعته لها قوة هى اعلى واقوى من هذه الموجودات واشرف منها جميعا. لقد اتضح لرسول اللّه (ص) ان تلك الاعمال السيئة والافعال القبيحة كلها، التى كان يقوم بها اهل مكة وباقى العرب من الفسق والفجور والحرب والجدال والغزو واكل المال بالباطل واحتقار النساء وواد البنات، نابعة من اخلاق فاسدة صنعها هؤلاء واعتادوا عليها، ولا سبيل لاصلاح اوضاعهم الاجتماعية وتبديل قيمهم الاخلاقية وتزكية نفوسهم وتطهيرها الا بنظام جديد، ودين الهى يندفعون الى تطبيقه، من خلال ايمانهم واعتقادهم الراسخ به. لقد آمن الرسول (ص) ان لا سبيل الى توحيد العرب وانقاذهم من حالة الانحطاط التى كانوا عليها ما دامت القيم القبلية والعصبيات العنصرية تحكمهم وتسيطر عليهم، كما آمن ايضا، قبل بعثته، ان الطريقة الوحيدة التى يمكن من خلالها تغيير اوضاع الناس وانقاذهم من حالة التخبط والضياع، انما تكمن فى رجوعهم الى اللّه تعالى وايمانهم به وحده دون غيره، ليشرع لهم من الدين ما يمكن ان يبدل ضعفهم قوة، وتمزقهم وحدة، وضلالهم هدى ورشادا،

وحينها لن تستطيع قوة اخرى قهرهم واستعبادهم واستضعافهم. لقد كانت هذه الكشوفات والرؤى تمثل مقدمة وتوطئة للوحى، وهى التى عبرت عنها الرواية بالقول: «اول ما ابتدى به من الوحى الرؤيا الصادقة كانت تجىء مثل فلق الصبح»، وجاء فى الرواية: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه الليالى». والتحنث كما قلنا حالة روحانية كان يصل اليها بعض اهل مكة احيانا فيقومون اضافة الى تادية عباداتهم الخاصة، كالطواف حول الكعبة، وتقديم القرابين للاصنام، واداء مراسم الحج، والامتناع قدر الامكان عن اللغو فى القول وارتكاب المعاصى باعتزال الناس والذهاب الى اماكن خاصة يختلون فيها بانفسهم، غير انه لا يعرف الان ما هى العوامل التى كانت توصلهم الى مثل هذه الحالة الروحية وتمنحهم اياها؟جاء فى رواية ابن اسحاق عن عبيد بن عمير: [۱۲۶] .«ان رسول اللّه (ص) كان يذهب فى كل سنة شهرا الى هناك ويتحنث». وجاء فى رواية الطبرى كذلك عن ابن شهاب الزهرى، عن عائشه، والتى نقلنا فقرات منها قبل قليل، ومما جاء فيها: «ثم حبب اليه الخلاء، فكان بغار حراء يتعبد فيه»، وقلنا ان هذا التحنث حدث للرسول (ص) بعد ما شاهده من الرؤيا الصادقة، او مقدمات الوحى، اما بعد نزول الوحى فقد انتابته حالة خاصة من الخوف والخشية، عبرت عنها الرواية بالقول: «فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق»، اى هممت ان ارمى بنفسى من شاهق، لقد كانت نتيجة تلك الحالة ان دفعته الى اعتزال القوم و (التحنث) الذى ادى بدوره، ونتيجة التفكر العميق باوضاع الناس الاجتماعية والدينية، الى اكتشاف ضلال القوم وبطلان عقائدهم. وبعد هذا الانكشاف والوضوح اللذين تما للرسول عن حالة المجتمع اخذ يعتزل الناس اكثر ويشعر بالحاجة الى الاختلاء بنفسه، والاستغراق فى التفكير بمصير الانسانية وما حصل له من حالات خاصة من التجلى، واتخاذ الموقف المناسب من هذه المستجدات، وبينما هو على هذه الحالة من التحنث والتطهر والسمو الروحى، نزل عليه الوحى الحقيقى بصورة جبرئيل بنداء: (اقرا) فلما طرق النداء سمعه ارتجف جسمه كما جاء فى الرواية: «فجثوت على ركبتى ثم رجعت ترجف بوادرى، فدخلت على خديجة، فقلت: زملونى زملونى، ثم ذهب عنى الروع، ثم اتانى فقال: يا محمد، انت رسول اللّه. قال: فقلت: فلقد هممت ان اطرح نفسى من حالق، فتبدى لى حين هممت بذلك فقال: يامحمد، انا جبريل، وانت رسول‌اللّه. قال: اقرا. قلت: وما اقرا؟ قال: فاخذنى فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق» فقرات، فاتيت خديجة، فقلت: لقد اشفقت على نفسى، واخبرتها خبرى، فقالت: ابشر فواللّه لا يخزيك اللّه ابدا، فواللّه انك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدى الامانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بى الى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرا الكتب وسمع من اهل التوراة والانجيل، فقال: هذا الناموس الذى انزل على موسى بن عمران، ليتنى كنت حيا حين يخرجك قومك». وجاء فى حديث آخر رواه الطبرى [۱۲۷] عن عبداللّه بن‌شداد، قال: «اتى جبريل محمدا (ص) فقال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟ قال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. فقال: ما اقرا؟، فقال: فضمه، ثم قال: يا محمد، اقرا. قال: وما اقرا؟ قال: (اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق) «العلق: ۱-۵» حتى بلغ (علم الانسان ما لم يعلم) قال: فجاء الى خديجة، فقال: يا خديجة، ما ارانى الا قد عرض لى. قالت: كلا واللّه ماكان ربك يفعل ذلك بك، ما اتيت فاحشة قط، قال: فاتت خديجة ورقة بن نوفل فاخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة، ان زوجك لنبى، وليلقين من امته شدة، ولئن ادركته لاؤمنن به» ويفهم من عبارة: «ما ارانى الا قد عرض لى» ان هناك شعورا بالاضطراب والدهشة كان ينتاب الرسول (ص) فى بداية نزول الوحى. ما عسى يكون هذا الامر المزعج؟ ان الابهام الذى ورد كما قلنا فى رواية الطبرى عن عبد اللّه بن‌شداد بقوله: «قد عرض لى» يمكن ان يرتفع بما ورد فى رواية ابن اسحاق عن عبد الملك بن عبداللّه بن ابى سفيان الثقفى، غير اننا يجب ان نقول اولا: ان هذه الرواية كان قد اوردها ابن‌هشام بصورة ناقصة مبتورة، ولم يذكر فيها المورد الذى نستنداليه. لقد ورد هذا الجزء بصورة كاملة ومفصلة فى جزء من نص سيرة ابن اسحاق التى نشرها محمد حميد اللّه معتمدا على نسخة القرويين. [۱۲۸] ووردت ايضا فى رواية الطبرى عن سلمة بن محمد بن اسحاق، عن وهب بن كيسان، [۱۲۹] ولم ترد هذه النقطة ايضا فى سيرة ابن هشامفى نقله لرواية وهب بن كيسان. [۱۳۰] .ونحن نحتمل ان تكون رواية عبد الملك بن عبداللّه فى‌الطبرى، قد ادمجت مع رواية وهب بن كيسان، فان اغلب عبارات الروايتين متكررة. اما الذى ورد فى كل من سيرة ابن هشام وسيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)

وتاريخ الطبرى فهو القول بان سورة (اقرا) كانت اول ما نزل به جبرئيل على النبى (ص) وان النبى كان حين نزول هذه السورة نائما. ففى رواية ابن هشام: [۱۳۱] «فجاءنى جبريل (ع) وانا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرا. قال: قلت: ما اقرا؟، قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم ارسلنى، فقال: اقرا. قال: قلت: ما اقرا؟. قال: فغتنى به حتى ظننت انه الموت.... قال: فقلت: ماذا اقرا؟، ما اقول ذلك الا افتداء منه مخافة ان يعيد ما صنعه بى؟، فقال: (اقرا باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم، الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم) «العلق: ۱- ۵» قال: فقراتها، ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى فكانما صور فى قلبى كتابا». ساعود الى قصة النوم هذه، اما ما اريد بيانه هنا فهو الشيء الذى ورد فى الرواية التالية، والذى يمكن ان يكون تفسيرا لقوله: «قد عرض لى»، ذلك هو قوله (ص) الذى جاء فى سيرة ابن اسحاق (نسخه القرويين ص ۱۲۱): [۱۳۲] «ولم يكن فى خلق اللّه عز وجل احد ابغض الى من شاعر او مجنون، كنتلا اطيق ان انظر اليهما فقلت: ان الابعد يعنى نفسه لشاعر او مجنون. ثم قلت: لا تحدث قريش عنى بهذا ابدا. لاعمدن الى حالق من الجبل فلاطرحن نفسى منه فلاقتلنها فلا ستريحن»...الى ان يقول: «وانصرفت راجعا الى اهلى حتى اتيت خديجة، فجلست اليها، فقالت: يا ابا القاسم، اين كنت؟ فواللّه لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، فقلت لها: ان الا- بعد لشاعر او مجنون. فقالت: اعيذك باللّه يا ابا القاسم من ذلك، ماكان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصلة رحمك». كان حديث خديجة مع النبى (ص) وجوابها على عبارة: «ما ارانى الا قد عرض لى» التى وردت فى رواية عبداللّه بن شداد هو جوابها نفسه على ما ورد فى رواية وهب بن كيسان اوعبد الملك بن عبداللّه: «الابعد شاعر او مجنون». فمن الواضح ان هذا الامر الذى ازعجه وعرض له انما هو ما كان يفكر به الرسول (ص) من (انه شاعر او مجنون) [۱۳۳] وهو الذى جعله يقول: «لاعمدن الى حالق من الجبل فلاطرحن نفسى منه». ان ما ورد فى رواية ابن شهاب الزهرى، عن عروة بن الزبير،عن عائشة، والتى وردت فى تاريخ الطبرى، ونقلناها نحن، تؤيد هذه النقطة التى اشرنا اليها، لقد جاء فى ذيل الرواية المذكورة قوله (ص): «ثم كان اول ما نزل على من القرآن بعد (اقرا)، (ن والقلم وما يسطرون، ما انت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لاجرا غير ممنون، وانك لعلى خلق عظيم، فستبصرو يبصرون) «القلم: ۱- ۵». وتتلو هذه الايات من السورة نفسها الايات: (باييكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين...) «القلم: ۶ - ۷» التى لم تذكرها الرواية، واعتقد انها نزلت فى المناسبة نفسها. اما ما تبقى من آيات فى هذه السورة، فتكشف مضامينها عن انها انزلت فيما بعد، كما ان سورة (اقرا) او (العلق) لم تنزل كلها فى بدايات الوحى، بل الذى انزل منها بادىء الامر هو اول السورة الى قوله تعالى: (علم الانسان ما لم يعلم). كما صرحوا بذلك. اما كيف تؤيد بداية سورة القلم النقطة المشار اليها؟ ذلك لانها اخرجت الرسول (ص) من حالة الشك والاضطراب المشار اليهما فى قوله: «انى اخشى ان يكون فى جنن»، حين خاطبته قائلة: (ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون، وان لك لاجرا غير ممنون، وانك لعلى خلق عظيم، فستبصرو يبصرون) وفى ذلك اشارة الى المعنى نفسه الذى تحدثتعنه خديجة حيث قالت: «اعيذك باللّه يا ابا القاسم من ذلك، ما كان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك مع ما اعلم من صدق حديثك وعظم امانتك وحسن خلقك وصلة رحمك». [۱۳۴] .ثم تاتى بقية الايات تباعا لتسلى الرسول وتطمئنه حيث تقول: (فستبصر ويبصرون، باييكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين). ورغم ان الوحى كان ما يزال فى بدايته، ولم يصدر بعد الامر بالانذار، لكن الايات تتجه الى معنى آخر جاء فى متن الرواية وهو ان النبى (ص) قال: «ان الا بعد يعنى نفسه لشاعر اومجنون، ثم قلت: لا تحدث قريش عنى بهذا ابدا» فياتى القرآن الكريم ليطمئن الرسول (ص) ويسليه ويقول له: (فستبصرو يبصرون، باييكم المفتون، ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين). اما ما جاء فى رواية وهب بن كيسان فى سيرة ابن هشام والطبرى، ورواية عبد الملك بن عبد اللّه فى سيرة ابن اسحاق، من ان سورة العلق انزلت على الرسول (ص) وهو نائم، فان ذلك له علاقة بتلك العبارة من الرواية التى قالت: «جاءنى جبرئيل وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرا» والنبى (ص) لم يكن يكتب، وربما كان لا يقرا ايضا. فحينعرض عليه هذا الكتاب وهو نائم وقيل: «اقرا»، قال اولا- «ماقرا؟» بمعنى اننى لا اقرا. قال: «فغتنى به حتى ظننت انه الموت، ثم

ارسلنى فقال: اقرا، قال: فقلت: ماذا اقرا؟ ما اقول ذلك الا افتداء منه ان يعود لى بمثل ما صنع بى»، وهنا قال له: (اقرا باسم ربك الذى خلق...) الى ان يقول: «فانصرف عنى، وهببت من نومى، وكانما صور فى قلبى كتابا». وربما قالوا بعد هذا ان النبى (ص) يقرا ولكنه لا يكتب. لكن لا- توجد فى رواية عائشة اشارة الى الكتابة، حيث قال له جبرئيل: «اقرا»، وقال الرسول: «ما اقرا»؟ اى بمعنى ماذا اقرا؟ وليس بمعنى لا- اقرا، او لا- استطيع القراءة. والقراءة هنا لا- تعنى قراءة الشىء المكتوب، بل تعنى قراءة الشىء دون كتابة، كما يقرا الشخص القرآن عن ظهر قلب، اوكما نقرا سورة الحمد فى الصلاة. على اية حال، فان ما جاء فى رواية وهب بن كيسان من ان سورة (اقرا) انزلت على النبى (ص) وهو نائم، يمكن اعتباره نوعا من الرؤيا الصادقة، وليس المراد به المعنى الحرفى للنوم، بل النوم المرتبط بالحقيقة والواقع، فان ما قيل له فى النوم كان واقعا فعلا وحقيقة، وهو آيات انزلت عليه. ولكن عائشة كانت قد روت ان بداية الوحى كانت كالرؤيا الصادقة، ثم حدث التحنث، ثم بعد ذلك انزلت سورة (اقرا)، ولهذا فان معنى الرؤيا الصادقة هو ما سبقت منا الاشارة اليه.

خلق العالم و خلق الانسان

وهنا يطرح السؤال التالى: لماذا كان اول الوحى واول آية (اقراباسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق)؟ هل توجد نكتة معينة فى الموضوع؟ نعتقد انه من المحتمل ان (يكونالسر فى هذا وذاك) ان هاتين المسالتين، اى (خلق العالم وظهور الخلقة بصورة عامة وظهور الانسان فى عالم الطبيعة)، ظاهرتان انشغل بهما تفكير علماء الطبيعة الكبار والفلاسفة الطبيعيين والالهيين، وهما مسالتان بقيتا دون حل الى الان. ماهى بداية العالم؟ وكيف وجد عالم المادة هذا؟ هناك نظريتان معروفتان فى هذا المجال، والنظريتان يقدمان تفسيرا لظهور العالم من المادة الاولى، غير انهما لم يقدما شيئا حول خلق وظهور المادة الاولى نفسها. وعلى كل حال، فان مسالة خلق العالم كانت ولا تزال مثار اللجدل، وهكذا كانت مسالة خلق الانسان. فمن اى شىء وجد الانسان؟ هل انه ناتج عن تطور حيوان آخر، ام انه خلق بهذه الصورة التامة والهيئة الكاملة؟ وهل ان هذا الكلى الطبيعى الذى فى اذهاننا وجد فجاة ودون مقدمات؟. هذه ايضا من المسائل التى دار حولها كلام كثير، وطرحت كاجابة عليها نظريات وتفسيرات عديدة. ولهذا كان اول خطاب سماوى يوحى الى الرسول (ص) يشير الى القوة التى اوجدت هاتين الظاهرتين العجيبتين اللتين عجزت العقول والافكار عن ان تجد تفسيرا لهما. وهذا نفسه دليل على ان الرسول كان على ارتباط وعلاقة (بالمبدا) اى بما وراء الطبيعة، يتوجه اليه على انه خالق وصانع للظواهر الخارقة والامور المعقدة.

كيفية الوحى

كيف كان هذا الوحى؟ ما يظهر من الروايات هو ان الرسول كانت تنتابه حالة خاصة اثناء نزول الوحى اشبه ما تكون بحالة الاغماء والغيبوبة. جاء فى احدى الروايات وفى وصف حالة الرسول (ص) عند نزول الوحى انه: «كرب له وتربدوجهه». [۱۳۵] وورد فى رواية اخرى من المصدر نفسه: «وقد لذلك ساعة كهيئة السكران». اما اذا نزل عليه الوحى وهو راكب، فتصف الرواية حال الناقة كالتالى: «فترغو وتفتل يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحى» وتضيف: «وانه ليتحدر منه اى العرقمثل الجمان.... [۱۳۶] .وعن عائشة: «ان الرسول قال لما ساله الحارث بن هشام عن كيفية نزول الوحى عليه: احيانا ياتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو اشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال، واحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فاعى ما يقول. وقالت عائشة: «ولقد رايته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وان جبينه ليتفصد عرقا». وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: «كان النبى اذا نزلعليه الوحى يعالج من ذلك شدة، قال: كان يتلقاه ويحرك شفتيه كى لا ينساه، فانزل اللّه عليه: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) لتعجل باخذه (ان علينا جمعه وقرآنه) «القيامة: ۱۷» انعلينا ان نجمعه فى صدرك، قال: (قرآنه) ان يقراه، قال: (فاتبعقرآنه)، «القيامة: ۱۸» قال: انصت (ان علينا بيانه) «القيامة:

۱۹»ان نبينه بلسانك، قال: فانشرح رسول اللّه (ص)». كل هذه الروايات تجمع على شيء واحد، ذلك هو دخول الرسول (ص) فى حالة من الشدة الغير العادية حين نزول الوحى عليه، ولا يمكن ان يقال عنها بانها مرض جسدى او نفسى، اذ لم ير حتى الان مرض جسمى او نفسى ياتى على اثره كلام من العلو والبلاغة بحيث يعجز الفصحاء عن تقليده وتتضاءل قدرة البلغاء عن مجاراته، ويحتوى على معان من السمو والرفعة بحيث ما زالت تكتب العقول المفكرة فى تفسيرها مئات وآلاف الكتب. وعبثا يحاول بعض الكتاب الغربيين اكتشاف نوع المرض الذى يزعمون ان الرسول (ص) كان يشكو منه، فسيكلفون انفسهم مشاق البحث عنه دون جدوى! ان شيئا كهذا الذى يوصف لم يشاهد فى قائمة الامراض والاعراض والعلل، سواء الجسدية منها او النفسية. نعم، هناك فى الامراض البدنية والنفسية حالات تنتاب المريض فياخذ بالهذيان والكلام الغير متزن. ولكن ما نوع هذا المرض الذى كانت نتيجته كتابا سماويا هو مقتدى البشرية ومهتداها؟.

يا ايها المدثر

تؤكد اشهر الروايات ان اول آية نزل بها الوحى على الرسول (ص) هى (اقرا) اى الاية الاولى من سورة العلق، وقد صرحت رواية ابن شهاب الزهرى التى اوردها الطبرى ص۱۱۵۵ ان اول ما نزل على الرسول (ص) سورة (اقرا) الى (علم الانسان ما لم يعلم). بينما ذهبت رواية ابى سلمة التى سمعها عن جابر بن عبداللّه الانصارى الى ان آيات (يا ايها المدثر) كانت هى الايات الاولى التى نزل بها الامين على رسول اللّه (ص). غير ان الصحيح هو ان سورة (اقرا) الى قوله تعالى: (علم الانسان ما لم يعلم) كانت هى فاتحة القرآن واول آياته، حيث بدات بالتاكيد على ان اللّه هو الخالق لهذا العالم والبارى لهذا الانسان، وبعد ان لفتت انتباه الانسان الى ذلك، حولت الانظار الى مسالة العلم والتعلم، وجعلت ذلك بمثابة المائز الاساسى الذى امتاز به الانسان على سائر المخلوقات بما فيها الملائكة، حيث صرحت الايات (۳۱- ۳۳)، من سورة البقرة على ان اللّه علم آدم الاسماء كلها ثم دعاه الى ان يعلم الملائكة تلك الاسماء. ونعتقد ان السبب وراء ورود بعض الروايات، مثل رواية ابى‌سلمة، عن ان آيات (يا ايها المدثر) كانت هى الايات الاولى فى النزول، يعود الى ان تلك الايات كانت اول ما نزل على الرسول (ص) بعد فترة انقطاع حزن لها الرسول (ص) كثيرا، وكان يجوب الجبال، ويدعو اللّه سبحانه وتعالى، حتى انه عاد يوما الى منزله خائفا وجلا بعد ان شاهد شيئا فى السماء، فدعا الى ان يدثر، وهنا نزل عليه الوحى بالايات (يا ايها المدثر، قم فانذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر) «المدثر:۱ -۵» فكانت هذه الايات الكريمة اول ما هبط به الوحى على صدر الرسول بعد فترة انقطاع اليمة. وفى الوقت الذى لفتت فيه سورة (العلق) الانتباه الى خلق العالم والانسان جاءت الايات الاولى من سورة المدثر لتامر الرسول (ص) ان ينذر قومه ويدعوهم الى الاسلام، فهى اول آيات التبليغ والاعلان عن الرسالة، ولهذا فالمقصود من انها اول الايات كما جاء فى الرواية اى انها اول آيات الانذار والتبليغ والاعلان عن رسالة الرسول (ص).

المسلمون الاوائل

كانت خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (ص) اول من آمن به وايده وآزره. اما فى شان من آمن به اولا من الرجال فقد اختلفت الروايات فى كونه اما على بن ابى طالب (ع) او زيد بن حارثة او ابو بكر بن ابى قحافة.

على بن ابى طالب

كان على بن ابى طالب (ع) يبلغ من العمر حين نزول الوحى احد عشر عاما، وكان يقيم مع رسول اللّه (ص) فى المنزل نفسه، وجاء فى رواية لابن اسحاق ان من نعم اللّه سبحانه وتعالى على الامام على (ع) ان كانت نشاته وتربيته على يد الرسول (ص) وفى منزل واحد جمعهما معا منذ الطفولة. فبعد ان تعرضت قريش للقحط واصابها الفقر والجوع، ذهب الرسول (ص) الى عمه العباس وكان اكثر بنى

هاشم ثراء وطلب اليه الذهاب الى عمه الاخر ابى طالب وكان اكثر بنى هاشم عيالا واضعفهم حالا ليطلبا منه التخفيف من عياله، بان يتعهد كل واحد منهما باعالة احد ابنائه الذكور. فوافق العباس ورافق الرسول الى ابى طالب الذى استجاب هو الاخر للاقتراح وخيرهما بين ابنائه بعد ان احتفظ بعقيل لنفسه، فاخذ العباس جعفرا واختار الرسول (ص) عليا، وهكذا بقى على (ع) مع رسول اللّه (ص) منذ ذلك الحين وحتى نزول الوحى وبعثة الرسول (ص) فآمن به على (ع) وصدقه ونصره. جاء فى الروايات ان عليا (ع) كان يرافق ابن عمه فى جولاته بين جبال مكة وشعابها خفية عن ابيه ابى طالب، وكانا يصليان معا هناك ويعودان عند الغروب. وذكرت الصلاة هنا فى اشارة الى انها كانت اول ما نزل من الفرائض على رسول اللّه (ص) ولهذا كانا يصليانها خارج مكة وبعيدا عن اعين القوم الى ان عثرعليهما يوما ابو طالب وهما واقفان للصلاة، فسال ابن اخيه: «اى دين هذا الذى انتما عليه؟» فاجابه (ص): «هذا دين اللّه وملائكته ورسله، هذا دين ابينا ابراهيم (ع)، وانت احرى القوم بالدخول فى هذا الدين وتاييدنا ونصرتنا فى دعوتنا هذه». فاجابه ابوطالب: «يا ابن اخى، انى لا استطيع الخروج من دين آبائى واجدادى، ولكن اعلم انه سوف لن يستطيع احد ان يلحق بكم مكروها ما دمت حيا». وعندما نعلم ان عليا (ع) قد كبر وتربى فى بيت الرسول (ص) منذ نعومة اظفاره، فلا غرابة حينئذ من ان يكون اول الناس اسلاما واقدمهم ايمانا، بل سيكون ذلك امرا بديهيا، ولو صدر من على (ع) شىء يستشف منه كراهته الدخول فى الاسلام (معاذ اللّه) لظهر ذلك ووصل الينا، ولا يجد المتتبع صعوبة فى التوصل الى هذه الحقيقة حتى مع قطع النظر عن الروايات والوقائع التى نصت عليها.

زيد بن حارثة المعروف بزيد الحب

كان زيد بن حارثة الكلبى ثانى رجل يدخل الاسلام طبقا لقول ابن اسحاق اى الرجل الاول بعد على بن ابى طالب (ع)، وكان زيد مولى لرسول اللّه (ص) اعتقه فدعاه ابنا له. نقل قصة اسره وتحريره ابن هشام فى سيرته، [۱۳۷] وابن سعدفى طبقاته. [۱۳۸] .لقد كان زيد بن حارثة، فضلا عن سبقه فى الاسلام، من اقرب الصحابة لرسول اللّه (ص)، وزيد من بنى كلب العائدين لقضاعة، وامه سعدى من بنى معن الذين يرجع اصلهم الى قبيلة طىء، وعندما كانت امه فى زيارة لقومها بنى معن مع ولدها زيد تعرضت ديارهم لغزو من قبل بنى القين بن جسر، الذين اخذوا معهم زيدا وهو فى سن الصبا اسيرا، ثم باعوه فى سوق الحباشة على رواية ابن هشام، وفى سوق عكاظ وفقا لرواية ابن سعد. وكان قد اشتراه حكيم بن حزام الاسدى لعمته خديجة زوجة الرسول (ص) باربعمئة درهم، وكان حكيم بن حزام طبقا لما جاء فى سيرة ابن هشام قد اشتراه مع مجموعة من الغلمان وجاء بهم الى مكة فعرضهم على خديجة لتختار احدهم عبدا لها، فاختارت زيدا على غيره، ثم وهبته لرسول اللّه (ص) بعد زواجها منه، وكان بنو كلب قد ذهبوا الى حارثة فاخبروه بما جرى، فقرر السفر الى مكة مع اخيه شراحيل ليشترى زيدا من سوق النحاسة ويعود به، وهناعرض حارثة على الرسول (ص) مبلغا من المال لقاء تحرير زيد، فلما عرض الرسول (ص) الامر على زيد فضل زيد، الذى بهرته اخلاق الرسول (ص)، البقاء معه (ص) على السفر مع ابيه وعمه، وكان الرسول (ص) قد حرره واعلن فى حجر اسماعيل ان زيدا بمثابة ابن له وسيرته من بعده، فعاد كل من والد زيد ووالدته الى ديارهم وهما راضيان مسروران، فصار يدعى زيد بعدها زيد بن محمد (ص)، فنزلت الايات الكريمة: (وما جعل‌ادعياءكم ابناءكم..) و (ادعوهم لابائهم) «الاحزاب: ۴، ۵» فعاد زيد مرة اخرى زيد بن حارثة. وبهذا يتضح ان زيدا كان احد افراد عائلة الرسول (ص) عند نزول الوحى، فمن الطبيعى جدا ان يكون اول من آمن به بعدعلى (ع) وخديجة، ولو ان الرسول (ص) اخبر عليا (ع) بنزول الوحى عليه قبل اخبارها لكان اسبق منها فى الاسلام. لقد قام معاوية بعد توليه الخلافة بابلاغ عماله فى جميع الامصار بضرورة النيل من على بن ابى طالب (ع) وشتمه والانتقاص منه فى السر والعلن وعلى المنابر فى المساجد وفى التجمعات الخاصة والعامة. وظل الامر هكذا حتى ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز عام (۹۹- ۱۰۱ه) على اقل تقدير، واذا كان السب قد انتهى حينها، فان اثره وما تركه فى النفوس لم ينته حتى بعد قرون لاحقة، فلم يال اعداء على (ع) جهدا فى النيل منه والاساءة اليه، غير انهم عجزوا عن ان يمسوا شيئا من فضائله (ع)، سيما فضائله المسلمة كسبقه الى الاسلام، حيث لم يستطيعوا اخفاءها عن الناس، لذا حاولوا تقديم زيد بن حارثة عليه،

غير انهم فشلوا فى هذا ايضا، وكانت شمس على (ع) اسطع من ان يحجبها هؤلاء رغم كل ما بذلوه من اموال طائلة وجهود كبيرة.

ابوبكر بن ابى قحافة

يعود نسب ابى بكر الى بنى تيم بن مرة من قبيلة قريش، واسمه عبداللّه وابوه عثمان، ولقب ابو بكر بالصديق والعتيق، ويوصف بالرقة وحسن المعاشرة، وقيل انه كان محبوبا فى قومه وكانعالما بانساب العرب، يعرف زينهم من شينهم. [۱۳۹] .وكان يعمل بالتجارة، فعند اسلامه كان يملك اربعين الف درهم، سخرها لخدمة الاسلام وتقوية شوكته، حتى انه لم يعد يملك يوم هاجر مع رسول اللّه (ص) الى المدينةسوى خمسة آلاف درهم. [۱۴۰] .ورد فى روايات كثيرة ان ابا بكر كان اول من اسلم، ولا تعارض بين هذه الروايات والروايات التى تؤكد على انعليا (ع) كان اول من آمن، وذلك لان الطائفة الاولى تتحدثعن اول الناس اسلاما من غير عائلة الرسول (ص)، بينما تختص الطائفة الثانية من الروايات بذكر عائلة الرسول (ص) وافراد اسرته التى كان على (ع) واحدا منها. هذا وقد اورد الطبرى فى تاريخه رواية تقول: ان هناك جماعة سبقت ابا بكر الى الاسلام، غير انها لمتذكر اسماء هؤلاء الجماعة، لذا لايمكن الاعتماد عليها [۱۴۱] .

الدعوة السرية و الدعوة العلنية

طبقا للروايات (ومنها الرواية التى اوردها الطبرى ص ۱۱۷۴) فان دعوة الرسول (ص) الى الدين الجديد، ظلت سرية لثلاث سنوات من تاريخ البعثة، حتى امر باعلانها من خلال الاية الشريفة: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) «الحجر:۹۴» ثم الاية: (وانذر عشيرتك الاقربين) «الشعراء: ۲۱۴». وخلال هذه الفترة آمنت جماعة، اما بدعوة ابى بكر وتاثيره طبقا لبعض الروايات او بواسطة اشخاص آخرين.

رواية ابن اسحاق

ومن بين الذين آمنوا بتاثير ابى بكر طبقا لرواية ابناسحاق [۱۴۲] عثمان بن عفان (من بنى امية)، والزبير بن العوام (من بنى اسد من قريش)، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابى وقاص (وكلاهما من بنى زهرة)، وطلحة بن عبيداللّه (من بنى تيم).

اعتراض على رواية ابن اسحاق

ورد على رواية ابن اسحاق هذه اعتراضان: الاول، ما جاء اول الرواية التى اوردها الطبرى (ص ۱۱۶۸) من ان ابابكر كان يدعو من يعاشرهم ويجالسهم ويطمئن اليهم الى الاسلام، وكان عمر ابى بكر حينها نحو (۳۸) سنة، وليس بينه وبين الرسول (ص) سوى عامين فقط، بينما كان عمر كل من طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص (۱۸، ۱۶، ۱۷) سنة على التوالى، فمن المستبعد ان يكون اصدقاء وجلساء ابىبكر، البالغ من العمر (۳۸ عاما)، شبابا فى عمر المراهقة امثال طلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص، الذين تقول عنهم الرواية انهم كانوا: «ممن يغشاه ويجلس اليه». اذا لو صح اسلام هؤلاء فى هذه السن حقا، فمن المستبعد ان يكون اسلامهم على يدابى بكر. اما الاعتراض الثانى على الرواية، فهو ان الاشخاص المذكورين قد ذاع صيتهم ولقوا شهرة فيما بعد حتى اصبحوا نتيجة اعمالهم من (العشرة المبشرة) واختارهم عمر مع على بن ابى طالب (ع) فى الشورى التى عينها لينتخبوا خليفة من بينهم، لقد حفز انتخاب عمر لهؤلاء فى الشورى السداسية، وانتخابه لهم كمرشحين للخلافة من بعده، رواة الاجيال القادمة لان يعدوا هؤلاء الستة من ضمن الذين اسلموا بتاثير ابى بكر وارشاده، وانهم اقدم اسلاما من غيرهم. ورغم انه لا شك فى ان هؤلاء كانوا من المسلمين الاوائل، وقد اسلموا وهم ما زالوا شبابا، غير ان تقدمهم على الاخرين موضع شك، سيما ان هناك روايات اخرى تحكى عن تقدم اسلام اشخاص غيرهم.

كان اولاد واحفاد اصحاب الرسول يعتبرون تقدم آبائهم واجدادهم فى الاسلام، او كونهم من المسلمين الاوائل من دواعى الفخر العظيم لهم ولعوائلهم، لهذا فهم لا يابون صناعة بعض الروايات والاخبار فى هذا الصعيد. فمثلا ادعى ابناء سعد بن ابى وقاص ان اباهم كان ثالث المسلمين. ويمكن القول انه لو كان سبقه الى الاسلام من الامور المسلمة واليقينية، لكان قد اختاره عمر كميزان فى تعيين حقوق المسلمين من بيت المال بدل اختياره الاشتراك فى معركة بدر، وكما نعلم فان مسالة السبق الى الاسلام كانت قد طرحت حين اراد عمر كتابة دعوات العطاء للمسلمين، غير انها لم تقبل لانها كانت من الامور المبهمة التى لا يمكن تحديدها بدقة، وربما بسبب كثرة المدعين لها. ولهذا تم الركون الى اعتبار المشاركة فى معركة بدر كمقياس ومعيار فى تجديد الاعطيات.

تاييد للنقد الثانى

وما يؤيد الماخذ الثانى رواية اخرى اوردها ابن سعد فى طبقاته، وهى ان عبد الرحمن بن عوف لم يدخل الاسلام ضمن مجموعة ابى بكر، بل كان اسلامه ضمن مجموعة عثمان بن مظعون. تقول الرواية السابقة المسندة عن يزيد بن رومان ان عثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن‌عوف وابا سلمة بن عبد الاسد وابا عبيدة بن الجراح، كانوا قد ذهبوا الى رسول اللّه (ص) فلما عرض عليهم الرسول الاسلام وبين لهم تشريعاته وقوانينه، اسلم هؤلاء جميعا فى ساعة واحدة، وكان ذلك قبل ذهاب الرسول (ص) الى دار الارقم بن ابى الارقم، ومباشرته الدعوة من هناك. وجاء فى رواية اخرى ان الارقم بن ابى الارقم كان سابع المؤمنين بالرسول (ص)، ولا تنسجم هذه الرواية مع رواية ابن اسحاق، اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار اسلام خديجة، وعلى بن ابى طالب (ع) وزيد، وابى بكر. وان هذه الرواية التى تقول ان الارقم بن ابى الارقم كان سابع رجل فى الاسلام يرويها حفيده، لهذا لا يمكننا اعتباره محايدا وغير منحازالى جده. [۱۴۳] .

احداث الرجال و ضعفاء الناس

روى محمد بن سعد عن الزهرى انه قال: «دعا رسول‌اللّه (ص) الى الاسلام سرا وجهرا، فاستجاب للّه من شاء من احداث الرجالوضعفاء الناس». [۱۴۴] .يؤيد هذا المعنى قائمة المؤمنين الاوائل، وكذلك الروايات‌الاخرى، فقد جاء فى انساب الاشراف: «ان قريشا مشت الى ابى طالب مرة بعد مرة، فكان فى المرة الاخيرة ان اجتمعوا فقالوا: يا ابا طالب، انا قد جئناك مرة بعد اخرى نكلمك فى ابن اخيك ان يكف عنا فلا يذكر آباءنا وآلهتنا بسوء، ولايستغوى اولادنا واحداثنا وعبيدنا واماءنا». [۱۴۵] .واورد ابن سعد فى طبقاته رواية جاء فيها: «فاقام (ص) بالطائف عشرة ايام، لا يدع احدا من اشرافهم الا جاءه وكلمه،فلم يجيبوه وخافوا على احداثهم». [۱۴۶] .ونقل البلاذرى فى انساب الاشراف رواية عن الواقدى، جاء فيها: «ان رجلا من هذيل يقال له عمرو، قدم بغنم له فباعها، ورآه النبى (ص) فاخبره بالحق ودعاه اليه، فقال ابوجهل، وكان خفيفا حديد الوجه والنظر به حول، انظر ما دعاك اليه هذا الرجل، فاياك ان تركن الى قوله او تسمع منه شيئا، فانه سفه احلامنا، وزعم ان من مات منا كافرا يدخل النار بعد الموت، وما اعجب ما ياتى به! فقال الهذلى: اما تخرجونه من ارضكم؟ قال ابو جهل: لئن خرج من بين اظهرنا فسمع كلامه وحلاوة لسانه قوم احداث ليتبعنه، ثم لا نامن ان يكر علينا بهم. قال الهذلى: فاين اسرته عنه؟ قال ابو جهل: انماامتنع باسرته». [۱۴۷] .وبنظرة سريعة الى قائمة المسلمين الاوائل يتبين انهم لم يبلغوا حين اسلامهم الثلاثين عاما. لقد اشير الى ان طلحة بن‌عبيداللّه كان عمره حين قتل فى معركة الجمل عام (۳۶ه) قدتجاوز الستين عاما، وهذا يعنى ان عمر طلحة فى السنة الاولى للهجرة كان اقل من ثلاثين عاما، واقل من عشرين عاما حين دخل الاسلام. ومن المسلمين الاوائل الزبير بن العوام، وهو من قريش،وكان‌عمره حين اسلم ستة عشر عاما. [۱۴۸] .ومنهم عبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة، وكان عمره حين اسلامه ثلاثين سنة، وطبقا للرواية التى اوردها ابن سعد فى الطبقات ان ولادته كانت بعد عام الفيل بعشر سنوات، [۱۴۹] اى عام (۵۷۰م) والا فان عام الفيل نفسه ربما كان بعد هذا العام، كما اشرنا الى ذلك فى ميلاد الرسول (ص). ومنهم

سعد بن ابى وقاص، وهو من بنى زهرة ايضا، وكانعمرهسبعة عشر عاما حين اسلم. [۱۵۰] .ومنهم مصعب بن عمير، وهو من بنى عبد الدار، وكان شابا وسيما، ذا لباس فاخر، وكان عمره حين قتل فى معركة احد نحو اربعين عاما، مما يفيد انه حين اسلم فى مكة كان عمره ثلاثين سنة. ومنهم عثمان بن عفان، من بنى اميه، وكان عمره حين قتل (عام۳۶ه) (۸۳) عاما، وفى رواية اخرى (۷۵ عاما)، وبناء على هذا فان عمره حين دخل الاسلام اما (۳۴ سنة) او (۳۷ سنة). ومنهم الارقم بن ابى الارقم، من بنى مخزوم، الذى وضع داره فى خدمة رسول اللّه (ص)، كان يوم وفاته سنة (۵۵ه) بحدود الثمانين من عمره، مما يفيد ان عمره كان حين دخل الاسلام بين ال (۲۰ – ۳۰) سنة. ومنهم شماس بن عثمان المخزومى، الذى قتل فى معركة احد عن عمر يناهز ال (۳۴) عاما، وبهذا يكون عمره يوم تشرف بالاسلام بين (۲۰ – ۳۰) سنة. وعند استعراض قائمة المسلمين الاوائل واعمارهم يتضح ان ابابكر وربما بعده عثمان، كانا اكبر المسلمين سنا، وكان عمرابى بكر حين دخل الاسلام (۳۸عاما)، ومن الطبيعى ان يكون الانسان فى عمر الاربعين فاكثر اشد ارتباطا بسنن الماضين واكثر تحفظا لها، ويصعب عليه العدول عن دين الاباء والاجداد، بخلاف الشباب الذين يتمتعون باذهان وقلوب اكثر استعدادا لاستقبال الافكار والمعتقدات الجديدة، ويصدق هذا المعنى، بصورة وباخرى على جميع الثورات والتحولات الفكرية والاجتماعية والدينية.

الضعفاء و المستضعفون

يقصد بالضعفاء والمستضعفين فى مكة عادة العبيد والمستعبدون، او حتى الاحرار الذين كانت لهم سابقة رقية فهم من المستضعفين ايضا، لانهم ما زالوا يرتبطون بنوع من العلاقة مع اسيادهم السابقين، وما زالوا يطلق عليهم الموالى. وهناك طائفة اخرى من الضعفاء ايضا، وهم اولئك الذين انفصلوا عن قبائلهم لاسباب مختلفة والجاتهم الظروف الى مكة، فهؤلاء كانوا يلجاون الى احدى القبائل الموجودة فى مكة ويضعون انفسهم فى خدمتها مقابل حمايتها لاموالهم وارواحهم من الاعتداء. ورغم تحالف هؤلاء مع اشراف مكة واثريائها الا انهم كانوا لا يعتبرون من المستوى الاجتماعى نفسه، وانما يصنفون ضمن الطبقات الدنيا داخل المجتمع المكى. ومراجعة سريعة لقائمة المسلمين الاوائل تثبت انتماء غالبيتهم الساحقة الى تلك الطبقات المستضعفة، وكانت قريش نفسها قد اطلقت مصطلح المستضعفين على هذه الجماعة من الناس. وقد نقل ابن سعد فى طبقاته رواية عن يزيد بن رومان تقول: «كان عمار بن ياسر من المستضعفين الذين يعذبون بمكة... والمستضعفون قوم لا عشائر لهم بمكة، وليست لهممنعة ولاقوة». [۱۵۱] .وروى البلاذرى، [۱۵۲] عن عمر، قال: «انما وليت عمار القول اللّه عز وجل: (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) «القصص: ۵».

اكثر المسلمين الاوائل من الفقراء و المستضعفين

روى الطبرى عن ابى العالية، فى تفسير الاية (۵۲) من سورة الحج ان قريش كانت تعترض على رسول اللّه بقولها:«انما جلساؤك عبد بنى فلان ومولى بنى فلان..» [۱۵۳] .وفى رواية اخرى عنه ايضا: «ان قريش كانت تقول للرسول (ص)، يامحمد، انما يجالسك الفقراء والمساكينوضعفاء الناس». [۱۵۴] .ونقل البلاذرى صاحب انساب الاشراف، عن عروة بن الزبير، قوله: «كان صهيب من المستضعفين» وروى عن مجاهد قوله: «ان القرشيين تهامسوا مع بعضهم حينما شاهدوا صهيبا يمر مع جماعة من اقرانه قائلين: انظروا الى هؤلاء الاراذل! اهؤلاء الذين من اللّه عليهم من بيننا؟». ونحاول هنا استذكار بعض المستضعفين من المسلمين الاوائل الذين صار لهم شان عظيم فيما بعد، وتجدر الاشارة الى ان اكثر هؤلاء الضعفاء او المستضعفين كانوا من الاقنان او من الاحرار الذين سبق لهم الاسترقاق.

اسماء المستضعفين طبقا لما اورده البلاذرى

اشاره

اورد البلاذرى فى انساب الاشراف [۱۵۵] قائمة باسماء المستضعفين، وترجم لحياة كل واحد منهم، وياتى الحديث عن جوانب حياتهم المختلفة ضمن استعراض اصحاب الرسول (ص)، ونحاول هنا الاشارة بصورة اجمالية، الى حياتهم لنقف على اهم الاسباب التى دفعتهم الى اعتناق الاسلام.

عمار بن ياسر

ينتسب عمار بن ياسر الى قبيلة عنس من قبائل العرب الجنوبية، وقد هاجر ابوه ياسر من اليمن الى مكة واقام هناك، ولانه لم يكن ينتمى الى عشيرة فى مكة اضطر الى عقد تحالف مع ابى حذيفة بن المغيرة المخزومى لحفظ حقوقه وحقن دمه. وكان حذيفة قد زوجه من احدى جواريه المدعوة (سمية) فانجبت عمارا، فكان يجب على عمار ضمن القوانين المتبعة فى الجاهلية ان يكون عبدا لابى حذيفة، لانه ولد من جارية له، وشاء ابو حذيفة ان يحرر عمارا، فصار مولا من موالى مكة. وكانت سمية قد تزوجت بعد ياسر الازرق وهو من الغلمان الروميين، وانجبت منه اولادا كانوا جميعا من المملوكين. كان عمار قد التقى بصهيب فى دار الارقم بن الارقم، التى جعل منها الرسول (ص) منطلقا لدعوته المباركة، وفى هذه الدار اعتنق الاثنان الاسلام، ثم دخل الاسلام ايضا كل من ابيه ياسر واخيه عبداللّه وامه سمية، فغضب بنو مخزوم لذلك، وشق عليهم ان يروا مواليهم وقد فارقوا دين القوم وشقوا عصا الطاعة عليهم، فعمدوا الى تعذيبهم والتنكيل بهم، وكان نصيب عمار من هذا العذاب حصة الاسد فقد كانوا يتركونه على الصخرة تحت اشعة الشمس الحارقة، [۱۵۶] اما سمية فقد قتلها ابوجهل المخزومى، فاصبحت اول شهيدة فىالاسلام. [۱۵۷] .وقد بلغت شدة التعذيب حدا لم يطقه عمار، فاضطر الى التفوه بكلمة الكفر تلبية لرغبة معذبيه، واملا فى الخلاص من التعذيب، واحس عمار بعد ذلك بتانيب الضمير، فذهب الى الرسول (ص)، وهو منكسر يشعر بالذنب، فلما روى القصة لرسول اللّه (ص) قال: «ماذا كان يجرى فى قلبك؟» قال عمار: «كان قلبى مطمئن بالايمان». فقال الرسول (ص): «ان عادوا الى تعذيبك فعد الى ما قلت». [۱۵۸] واصبح عمار فيما بعد من رجال الاسلام المشهورين، واختاره عمر ليكون واليا على الكوفة اثناء خلافته فترة من الزمن، ودارت عليه الايام فى خلافة عثمان فنال قسطا وافرا من الابعاد والتشريد والتنكيل، الى ان استشهد مع على بن ابى طالب (ع) فى معركة صفين.

خباب بن الارت

كان خباب بن الارت قد اعتنق الاسلام قبل ان يتخذ الرسول (ص) من دار الارقم بن الارقم منطلقا لدعوته المباركة، وقد دخل الاسلام مع عثمان بن مظعون، كما مرت الاشارة الى ذلك. [۱۵۹] وعده عروة بن الزبير من المستضعفين، وقال: انه كان يتعرض لاذى شديد من قريش فيمحاولة لصده عن الاسلام، واعادته الى سابق عهده، [۱۶۰] .وقيل: انه سادس المسلمين. وخباب من اصل عراقى من منطقة كسكر، [۱۶۱] وهى منطقة زراعية عامرة تبدا بواسط وتمتدحتى البصرة، ومركزها فى العهد الساسانى (خسرو شابور) ثمبنى الحجاج فيما بعد مدينة واسط وجعلها عاصمة لتلك المنطقة ومركزا لها. وكان ابو خباب قد اسر وبيع فى مكة، فدخل فى ملك امراة تدعى ام انمار بنت سباع الخزاعية، وكانت من احلاف بنى زهرة فى مكة. وكلمة ارت التى يدعى بها ابو خباب جاءت بسبب لكنة خاصة فى لسانه حيث كان لا يحسن النطق بالعربية. فهو اما ان يكون من آراميى العراق او من انباطه. ولعله كان من اصل ايرانى سكن منطقة كسكر. وكان ابناؤه يدعون انتساب ابيهم الى قبيلة بنى سعد بن زيد مناة بن تميم لاثبات عروبته الخالصة ودفع الشبهات التى كانت تحوم حول اصلهم، غير ان ذلك لا ينسجم كما هو واضح مع لكنة ابيهم الغير عربية. وقيل: ان الارت تزوج ام سباع، وان خبابا كان اخا سباع من امه وعلى اية حال فان ام انمار قد اطلقت خبابا، فصار واحدا من الموالى الاحرار، وكان يشعر بالمرارة من وضعه

الاجتماعى المتدنى، ويتوق الى من يرفع عنه الضيم الذى كان يعيشه، فلم يتردد فى اعتناق الدين الجديد الذى وعد بالقضاء على هذا النظام الطبقى وازالة آثاره المقيتة، لكنه واجه صنوفا من الاذى والتعذيب، قلما واجهها غيره، لافتقاده الى من يحميه ويلوذ به من سطوة قريش، رغم كل هذا لم يتراجع عنايمانه ولو ظاهريا. [۱۶۲] .اشتغل خباب بالحدادة لتامين معيشته ومتطلبات حياته، وكان له دين على العاص بن وائل السهمى (ابى عمرو بن العاص) فاشترط عليه الاخير العودة عن الاسلام كشرط لتسديد دينه فابى ذلك، وقال: لن اتخلى عن الاسلام حتى يموت العاص فاقاضيه يوم القيامة. فقال العاص: اذن فلينتظر ليقبض دينه فى ذلك اليوم. كان خباب من اصحاب امير المؤمنين على بن ابى طالب (ع) وتوفى فى الكوفة عام (۳۷ه) عن عمر يناهز ال (۷۳) عاما.

صهيب بن سنان

كانت حال صهيب تشبه حال الارت والد خباب، فهو من اسرى الروم البيزنطيين، وذو لكنة واضحة لا تخفى على العرب، اذ لم يكن يجيد النطق بالعربية. لكنه جعل لنفسه اوجعل له ابناؤه نسبا عربيا، اذ ادعوا انتسابه الى قبيلة (نمر بن قاسط) وكان ابوه سنان عاملا على الابلة من قبل الملك الايرانى «خسرو». وكانت ديارهم فى الموصل الى جانب الفرات من ناحية (الجزيرة) وكان الروم قد وصلوا الى هناك، واخذوا صهيبا اسيرا، وبقى هناك حتى كبر فصار فى عربيته (لكنة) خاصة، وقد اشتراه فيما بعد رجل من بنى كلب وعاد به الى مكة، ثم اشتراه فيها عبداللّه بن جدعان التيمى، وهو من اشهر اثرياء مكة، وكان صهيب لا يزال مع آل جدعان حتى بعث اللّه محمدا (ص) نبيا. لا تخفى آثار الوضع فى هذه القصة، فعبد اللّه بن جدعان كان قد مات قبل البعثة بعشر سنوات، [۱۶۳] بينما توفى صهيب بناء على ما جاء فى الروايات فى سنة (۳۸) ه عن عمر يناهز السبعين عاما، وبهذا يكون عمره يوم هجرة الرسول (ص) (۳۲) عاما، ويوم بعثته (۱۹) عاما. وبعد ان كان عبداللّه بن جدعان قد مات قبل البعثة بعشر سنين، فاذا ما جعلنا الفترة بين البعثة والهجرة ثلاثة عشر عاما على اقل تقدير، فسيكون عمر صهيب حين موت عبداللّه بن جدعان ستة اعوام، وليس من المعقولان يكون مثل هذا العمر القصير كافيا لاستيعاب كل تلكالاحداث التى بدات بنشوئه ونموه بين اهله قومه، ثم اسرهمن قبل الروم، ثم بقائه هناك حتى نسيانه العربية وظهور لكنة فى لسانه، ثم عودته الى مكة وشراء عبداللّه بن جدعان له، واخيرا عتقه وتحريره. فيبدو ان هذه الرواية قد وضعت من قبل ابنائه لايجاد اصل عربى له. وقد وضع ابناؤه حكاية اخرى عن اصله، فقالوا: انه لم يشتره احد من الروم، بل فر هو من هناك والتجا الى مكة بعد ان بلغ سن الرشد، وعقد حلفا مع عبداللّه بن جدعان هناك. وتبدو هذه الرواية اكثر بعدا عن الواقع من سابقتها اذ ينبغى ان يكونعمر صهيب يوم لجوئه الى مكة نحو ستة عشر عاما على اقل تقدير، فهل انه وقع تحالفا مع ابن جدعان وهو فى هذاالسن؟. وهناك رواية ينقلها الحسن البصرى، عن الرسول (ص)، انه قال: «صهيب سابق الروم» اى انه سبق قومه (الروم) الى الاسلام، وتدل هذه الرواية على ان صهيبا كان يونانيا خالصا، وجاءت لكنته فى العربية من اصله هذا، ويوصف صهيب بانه كان احمر البشرة، وهذا يؤيد كونه غير عربى الاصل، كما ان تسميته (صهيبا) جاءت لاحمرار لونه. هذا ويقال ان (عمر) سال صهيبا عن سبب انتسابه الى العرب، فاجابه بانه عربى من قبيلة نمر بن قاسط، لكنه اسر وهو صغير من قبل الروم، ومن الطبيعى ان يسعى صهيب لالحاق نفسه بالعرب تخلصا من الازدراء الذى قد يلحق به كما اشرناسابقا من قبل العرب لعدم عروبته [۱۶۴] .اعتنق صهيب الاسلام مع عمار بن ياسر، وكان ذلك بعد اختيار الرسول (ص)، لدار الارقم منطلقا لدعوته، ولانه كان مستضعفا، كما يقول عروة بن الزبير، فقد عانى من قريش الامرين، وترك صهيب خلفه ثروة كبيرة فى مكة، وهاجر مع من هاجر الى المدينة، وكان مما قال له القرشيون حين حاول اخذ امواله معه: لقد جئتنا صعلوكا واثريت فى مدينتنا، والان تريد اخذ ثروتك معك؟! لن نسمح لك بهذا ابدا. فاضطر صهيب الى ترك ثروته مفضلا الهجرة مع رسول اللّه (ص) واصحابه الى المدينة. لقد اوصى عمر قبل وفاته ان يؤم الناس من بعده صهيب، حتىيتم انتخاب الخليفة من بين الستة الذين اختارهم عمر للشورى، ولصهيب منزلة خاصة عند المتصوفة واهل العرفان.

بلال بن رباح

كان بلال قد ولد فى سراة من اب حبشى جيء به اسيرا مع سائر الاسرى الحبشيين، ومن ام هى الاخرى اسيرة تدعى حمامة، اما بلال نفسه فكان غلاما لاميـة بن خلف الجمحى، وقد سارع الى اعتناق الدين الجديد للتخلص مما كان يعانيه من وضع اجتماعى واقتصادى سيء فى مكة، بمجرد سماعه خبر ظهور هذه الدعوة، وقد اذاقه مالكه امية بن خلف الجمحى مرارة القهر والاستعباد كاسوء ما تكون، فكان يطرحه على رمال مكـة البالغة الحرارة ويضع على صدره الصخور العظيمة. يقول عنه عروة بن الزبير، الذى ذكره ضمن المستضعفين: انه تحمل اذى شديدا من سيده اميـة الذى صب عليه ذلك العذاب على امل ان يرده عن ايمانه، غير انه لم يرتدع ولم يجامل سيده ولو بكلمة يطلقها لسانه. وجاء فى انساب الاشراف: «كان بلال من المستضعفين المؤمنين، وكان يعذب حين اسلم ليرجع عن دينه، فما اعطاهم قط كلمة مما يريدون، وكان الذى يعذبه اميـةبن خلف الجمحى». [۱۶۵] .وروى البلاذرى ايضا عن الحسن البصرى، قال: «قال رسول اللّه (ص): بلال سابق الحبشة». [۱۶۶] .وروى ايضا: «ان بلالا من مولدى بنى جمح، فكان اميـة يخرجه الى رمضاء مكـة اذا حميت، فيلقيه على ظهره، ثم يامر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ويقول له: لا تزال واللّه كذلك حتى تفارق دين محمد. فيقول بلال: احد احد. ويضع اميـة فى عنقه حبلا، ويامر الصبيان ان يجروه. فمر ابوبكر يوما وهو يعذب، فقال له: يا اميـة، اما تتقى اللّه فى هذا المسكين؟ فقال اميـة: انت افسدته، فانقذه. وكان بلال تربا لابى بكر، ومن الذين دعاهم ابو بكر الى الاسلام. فقال ابوبكر: عندى غلام اسود اجلد منه واقوى، وهو على دينك فاعطيك اياه ثمنا لبلال، قال: قد قبلت. فاعطاه ذلك الغلام، واخذبلالا فاعتقه». [۱۶۷] .وفى رواية اخرى اوردها البلاذرى فى المصدر نفسه: «ان بلالا لما اسلم اخذه اهله فقمطوه والقوا عليه من البطحاء، وجعلوا يقولون: ربك اللات والعزى، فيقول: احد احد. قال: فاتى عليه ابو بكر فقال: علام تعذبون هذا الانسان؟ فاشتراه بسبع اواق واعتقه» [۱۶۸] اى (۲۸۰ درهما)، وينسب اخو بلال نفسه الى العرب، وكان ذلك من اجل الخروج من الاحتقار والضعة التى كان عليها بين العرب كما اشرنا الى ذلك عن اشخاص آخرين. روى البلاذرى، عن الواقدى قوله: «لما كان يوم بدر راى اميـة بن خلف عبد الرحمن بن عوف وكانت بينهما صداقة، فقال له: يا ابا عمرو، وكان اسمه فى الجاهلية. فلم يكلمه، فقال له: يا عبدالله. قال عبد الرحمن: فالتفت فاذا انا باميـة وابنه على، وبه كان يكنى، وقد اخذ بيد ابنه، وكان معى ادراع قد استلبتها، وكان مشرفا على الاسر، فساله ان يطلب له الامان، وقال: اما لكم حاجة باللبن؟ (يعنى الفداء) نحن خير لكم من ادراعك. فقلت: امضيا، واقبلت اسوقهما، فبصر بلال باميـة، فقال: يا معشر الانصار، اميـة بن خلف راس الكفر، لا نجوت ان نجوت. قال عبد الرحمن: فاقتتلوا كانهم عوذ حنت الى اولادها، فاحاطوا باميـة حتى صار مثل المسكة... وضربه بلال بالضربة صرعته [۱۶۹] .وكان بلال لا يشعر بالضعة لكونه حبشيا، فقد روى البلاذرى: «انه خطب بلال واخوه الى اهل بيت من البر، فقال: انا بلال وهذا اخى، عبدان من الحبشة، كنا ضالين فهدانا اللّه، وكناعبدين فاعتقنا اللّه، ان تنكحونا فالحمد للّه، وان تمنعونافاللّه اكبر». [۱۷۰] .وروى ابن سعد: «انه كان لرسول اللّه (ص) ثلاثة مؤذنين: بلال، وابو محذورة، وعمر بن ام مكتوم، فاذا غاب بلال اذن ابومحذورة، واذا غاب ابو محذورة اذن عمرو بن ام مكتوم. ولما دون عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، خرج بلال الى الشام فاقام بها مجاهدا، فقال له عمر: «الى من تجعل ديوانك، يا بلال» قال: «مع ابى رويحة لا افارقه ابدا، للاخوة التى كان رسول اللّه (ص) عقدها بينى وبينه» فضمه اليه، وضم ديوان الحبشة الى خثعم لمكان بلال منهم» [۱۷۱] وتوفى بلال فى دمشق عام (۳۰ه) عن بضع وستين سنة.

عامر بن فهيرة

يعتبر عامر بن فهيرة من المستضعفين ايضا، وكان مملوكا لطفيل بن عبداللّه، وهو اخو عائشة بنت ابى بكر من جهة الام، وقد اسلم بعد دخول الرسول (ص) دار الارقم، وقد لاقى ما لاقاه رفاقه من صنوف الاذى والتعذيب بعد اسلامه، الى ان اشتراه ابو بكر وحرره، فكان من موالى ابى بكر، يرعى له غنمه، وهو الذى كان قد سقى رسول اللّه (ص) وابا بكر لبنا عندما كانا فى الغار، وهما فى طريق الهجرة

الى المدينة، واستشهد فى يوم «بئر معونة» فى صفر من العام الرابع للهجرة، ولم يعثر على جسده.

ابوفكيهة

وكان غلاما لصفوان بن اميـة الجمحى حين اسلم، فلقى من سيده اميـة واخيه ابى اضطهادا وتنكيلا الى الحد الذى ظن انه قد فارق الحياة، غير انه ما لبث ان عاد له وعيه فاشتراه ابوبكر.

النساء المستضعفات

لقد واجهت النساء المستضعفات والجوارى ما واجهه الرجال المستضعفون من اضطهاد وقهر وتعذيب، ومن بين النسوة اللاتى اسلمن ودفعن ثمن اسلامهن الما وعذابا: (لبينة) وهى جارية بنى عدى. و (زنيرة) وهى من جوارى بنى عدى ايضا، وقيل: من جوارى بنى مخزوم. وكان عمر ممن اضطهد (لبينة) قبل اسلامه، وحاول ردها عن الاسلام، بينما قام ابو جهل بتعذيب (زنيرة). ومن النساء المستضعفات ايضا جارية كانت لامراة من بنى عبدالدار اشتراها ابو بكر وحررها.

الذين ارتابوا فى دين آبائهم قبل الاسلام

اشاره

من بين المسلمين الاوائل جماعة كانوا قد ارتابوا فى دين آبائهم، وابوا عبادة الاصنام التى كان عليها قومهم قبل الاسلام، وقد سارع هؤلاء الى تلبية الدعوة المحمدية، وبادروا الى دخول الاسلام منذ اللحظات الاولى لظهوره حيث وجدوا فيه تلبية لامالهم وعقائدهم.

عبيدالله بن جحش

من بين هؤلاء عبيداللّه بن جحش، وهو احد الحنفاء الاربعة، الذين كانوا قد اعتزلوا قريش كما اشرنا الى ذلك فيما سبق ووقفوا جانبا، فى يوم احتفلت به قريش، وكان الناس يقدمون الاضاحى والقرابين لاصنامهم، بينما وقف هؤلاء الاربعة ينتقدون هذه المظاهر وينكرون على قومهم بما كان لديهم من احساسات دينية خضوعهم لهذه المعتقدات الزائفة. كان عبيداللّه بن جحش، الذى يرجع الى بنى غنم بن داود، حلفاء بنى اميـة، احد هؤلاء الاحناف. واستمر عبيداللّه على تردده وحيرته حتى بعث اللّه الرسول (ص) فآمن به وصدقه فى دعوته، فهاجر مع المسلمين الاوائل الى الحبشة، وكانت زوجته (ام حبيبة) بنت ابى سفيان هى الاخرى قد اعتنقت الاسلام، وفى الحبشة فارق عبيداللّه الاسلام، واختار المسيحية، وهاجم رفاقه المسلمين بقوله لهم: «لقد وصلت الى اليقين الذى ما زلتم تبحثون عنه انتم». وقبل ان يعود وافاه الاجل فى الحبشة، فتزوجت زوجته (ام حبيبة) من رسول اللّه (ص) بعد وفاة زوجها.

عمرو بن عبسة

وهو من قبيلة بنى سليم من قيس بن عيلان، وقد ادعى انه رابع المؤمنين بالاسلام. وقال: انه كان يعتبر قومه فى ضياع وجهل عندما يراهم عاكفين على اصنامهم، ويقول: انه ظل هكذا حتى بعث اللّه نبيه (ص) بالاسلام، فهاجر الى مكة بحثا عنه، والتقى به فى مكة خفية، فدعاه الرسول (ص) الى الاسلام وسال الرسول (ص) قائلا: «هل لك اتباع»؟ فقال له الرسول (ص): «نعم رجلان، احدهما حر هو ابو بكر، والاخر عبد وهو بلال» فمن الرجل.وقال لرسول (ص): «يا رسول اللّه، امكث معك، ام الحق بقومى»؟ قال: «الحق بقومك»، قال: «فيوشك اللّه تعالى ان يفى بمن نزى ويحيى الاسلام»، قال: «ثم اتيته قبل فتح مكة فسلمت عليه»، قال: «وقلت: يا رسول

اللّه، انا عمرو بن عبسة، احب ان اسالك عما تعلم واجهل، وينفعنى ولا يضرك»؟ فساله [۱۷۲] عن حكم اوقات الصلاة وكيفية الوضوء. ما يدعو الى التامل فى هذه الرواية ان ذلك كله كان بادعائه هو، سيما ادعاؤه بانه كان رافضا لدين الجاهلية وكان رابع رجل فى الاسلام اى بعد الرسول وابى بكر وبلال. ومما لا شك فيه ان السبق الى الاسلام كان من المفاخر الكبيرة، وكان من اليسير لعمرو بن عبسة ان يدعى مثل ذلك، لانه لم يكن مقيما فى مكة، وعزا خروجه منها الى نصيحة من الرسول (ص)، وبناء على ذلك فمن الطبيعى جدا ان يثير المقطع الاول من الرواية التى اوردها ابن سعد فى طبقاته الشك فى النفس بخلاف المقطع التالى فيها الذى يستفسر فيه عن اوقات الصلاة والوضوء، فان احتمال الصدق فيه قوى كما تؤيده روايات اخرى.

ابوذر الغفارى

يعتبر ابوذر من الشخصيات الاسلامية اللامعة فى جهادها واخلاقها، وقد امتدح الرسول (ص) صراحته وصدقه، وتواتر عنه (ص) بانه قال فيه: «ما اظلت الخضراء، ولا اقلت الغبراء ذالهجة اصدق من ابى ذر». اسمه جندب بن جنادة، وهو من قبيلة غفار، من قبائل مضر، قال عنه ابن حزم: [۱۷۳] «انه كان خامس رجل فى الاسلام». وقيل انه من الموحدين الذين آمنوا باللّه واعرضوا عن عبادة الاصنام قبل لقائهم برسول اللّه (ص). وقد نقلت عن ابى ذر فى ايام شبابه وفى كيفية دخوله الاسلام قصة مثيرة، تظهر فيها آثار الصدق والصراحة، وهى اهم خصلة عرف بها ابو ذر (رض) واشار اليها الرسول (ص) فى وصفه له. وقد جاءت الرواية باسلوب والفاظ يتجلى فيها قدم الاسلوب واصالته. وقد رواها ابن سعد [۱۷۴] فى الطبقات عن عبداللّه بن الصامت الغفارى، ونقلت ثلاث قصص اخرى فى هذا الباب وفى المصدر نفسه، فيها تفاوت فى بعض الامور مع رواية ابن الصامت، غير اننا نرجح رواية ابن الصامت لقوة الاسلوب ودقة البيان واصالة التركيب اللغوى، وتؤيد الروايتان الاخريتان تلك الرواية فى خطوطها العريضة. قال: «اخبرنا هاشم بن القاسم الكنانى ابوالنضر، قال: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد ابن هلال، عن عبداللّه بن الصامت الغفارى، عن ابى ذر، قال: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت انا واخى انيس وامنا، فانطلقنا حتى نزلنا على خال لنا، فاكرمنا خالنا واحسن الينا، فحسدنا قومه، فقالوا له: انك اذا خرجت عن اهلك خالف اليهم انيس. فجاء خالنا فثنا علينا ما قيل له، فقلت: اما ما مضى من معروف فقد كدرت، ولا جماع لك فيما بعد. فقربنا صرمتنا، [۱۷۵] فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا بثوبه وجعل يبكى. فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر انيس عن صرمتنا وعن مثلها، فاتيا الكاهن فخير انيسا بما هو عليه، فاتانا بصرمتنا ومثلها معها. وقد صليت بابن اخى قبل ان القى رسول اللّه (ص)، ثلاث سنين، فقال عبداللّه بن الصامت: لمن؟ قال: للّه. فقال عبداللّه بن الصامت: اين تتوجه؟ قال: اتوجه حيث يوجهنى اللّه، اصلى عشاء حتى اذا كان آخر السحر القيت كانى خفاء [۱۷۶] حتى تعلونى الشمس. فقال انيس: ان لى حاجة بمكة، فاكفنى حتى آتيك. فانطلق انيس فراث على يعنى ابطا على ثم جاء، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك، يزعم ان اللّه ارسله. قلت:فما يقول الناس له؟ قال: يقولون شاعر، كاهن ساحر، وكان انيس احد الشعراء، فقال: واللّه لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على اقراء الشعر فلا يلتئم على لسان احد، بعيد انه شعر، واللّه انه لصادق وانهم لكاذبون! فقلت: اكفنى حتى اذهب فانظر. قال: نعم، وكن من اهل مكةعلى حذر فانهم قد شنعوا به وتجهموا له. فانطلقت فقدمت مكة، فاستضعفت رجلا منهم، فقلت: اين هذا الذى تدعون الصابى؟ فاشار الى، فقال: هذا الصابى. فمال على اهل الوادى بكل مدرة وعظم، فخررت مغشيا على، فارتفعت حين ارتفعت كانى نصب احمر، فاتيت زمزم فشربت من مائها وغسلت عنى الدماء فلبثت بها يابن اخى من بين ليلة ويوم، مالى طعام الا ماء زمزم، فسمنت حتى تكسرت عكنبطنى، وما وجدت على كبدى سخفة جوع. [۱۷۷] .فبينا اهل مكة فى ليلة قمراء اضحيان، اذ ضرب اللّه على اصمختهم، فما يطوف فى البيت احد منهم غير امراتين، فاتيتا على وهما تدعوان اسافا ونائلة، فقلت: انكما احدهما الاخر، فما ثناهما ذاك عن قولهما. قال: فاتيتا على، فقلت: هنا مثل الخشبة غير انى لم اكن، فانطلقتا تولولان وتقولان: لو كان هاهنا احد من انفارنا. فاستقبلهما رسول اللّه (ص)، وابو بكر، وهما هابطان من الجبل، فقال: مالكما؟ قالتا: الصابى بين الكعبة واستارها قال:

فما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملا الفم. فجاء رسول اللّه (ص)، وصاحبه فاستلما الحجر، وطافا بالبيت، ثم صلى فاتيته حين انتهى من صلاته، فكنت اول من حياه بتحية الاسلام، فقال: وعليك رحمة اللّه، ممن انت؟ قلت: من غفار، فاهوى بيده الى جبهته هكذا، قلت فى نفسى: كره انى انتميت الى غفار. فذهبت آخذ بيده فقد عنى صاحبه، وكان اعلم به منى، فقال: متى كنت هاهنا؟ قلت: كنت هاهنا منذ ثلاثين من بين ليلة ويوم، قال: فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لى طعام الا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى، فما وجدت على كبدى سخفة جوع. فقال رسول اللّه (ص): انها مباركة، انها طعام طعم. قال ابو بكر: يا رسول اللّه، ائذن لى فى طعامه الليلة، ففعل، فانطلق النبى (ص)، وابو بكر وانطلقت معهما، ففتح ابو بكر بابا، فجعل يقبض لنا من زبيب الطائف. فذاك اول طعام اكلته بها، فغبرت ما غبرت، فلقيت رسول اللّه (ص)، فقال: انه قد وجهت الى ارض ذات نخل، ولا احسبها الا يثرب، فهل انت مبلغ عنى قومك، عسى اللّه ان ينفعهم بك، ويأجرك فيهم؟. فانطلقت حتى لقيت اخى انيسا، فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت، انى قد اسلمت وصدقت. قال انيس: ما بى رغبة عن دينك، فانى قد اسلمت وصدقت. فاتينا امنا، فقالت: ما بى رغبة عن دينكما، فانى قد اسلمت وصدقت، فاحتملنا، فاتينا قومنا، فاسلم نصفهم قبل ان يقدم رسول اللّه (ص) المدينة، وكان يؤمهم ايماء بن رحضة وكان سيدهم، وقال بقيتهم: اذا قدم رسول اللّه (ص) المدينة اسلمنا. فقدم رسول اللّه (ص) فاسلم بقيتهم، وجاءت أسلم فقالوا: يارسول اللّه نسلم على الذى اسلم اخوتنا. فاسلموا، فقالرسول اللّه (ص): غفار غفر اللّه لها، واسلم سالمها اللّه». [۱۷۸] .كان ابو ذر قنوعا فى حياته ومعيشته، ينفق كل ما زاد عنه على الفقراء، وقد عاش حياة الخشونة والجشوبة فى عصر النبى وابى بكر وعمر، فتصدى لمظاهر البذخ الذى شاهده ايام عثمان فى المدينة، ومعاوية بن ابى سفيان فى دمشق، واخذ يعترض على ذلك، فقام عثمان باخراجه من المدينة ونفيه الى الربذة كى يستريح من اعتراضاته، وبقى ابوذر هناك حتى الوفاة. وقد بالغ بعض المؤرخين فيما بعد، حتى وصفوا اباذر بانه كان اشتراكيا يدعو الى توزيع الثروات وغير ذلك مما لا طائل له ولا يتناسب مع ظروف عصره وحياته وثقافته الدينية.

عثمان بن مظعون

ينتسب عثمان بن مظعون الى قبيلة قريش، من بنى جمح، وهو من المسلمين الاوائل، حيث اسلم قبل ان يتخذ الرسول (ص) دار الارقم بن ابى الارقم مقرا لدعوته، وبناء على احدى الروايات فان عثمان بن مظعون كان قد آمن مع جماعة هم عبد الرحمن بن عوف، وعبيدة بن الحارث، وابوعبيدة بن الجراح، وابو سلمة بن عبد الاسد. وكان عثمان بن مظعون من اولئك الذين اختلجت فى انفسهم مشاعر دينية خاصة ومالوا نحو الزهد والرياضات الروحية ومجاهدة النفس اكثر من ميلهم الى توحيد اللّه وترك عبادة الاصنام. لقد حرم ابن مظعون الخمر على نفسه قبل الاسلام، وكان يقول: «اننى لا استطيع شرب شىء يغلب على عقلى، ويضحك الاخرين على، ويجعلنى ازوج ابنتى لمن لا ارتضى»، وتظهر الفقرة الاخيرة من كلمة عثمان ان بعض اولياء البنات كانوا يزوجون بناتهم لاشخاص لا يرتضوهم لو لم يكونوا فى حالة السكر. ونتيجة ميله للرياضات الروحية حاول ان يخصى نفسه ليتخلص من شر الشهوات الغريزية، فنهاه الرسول (ص) عن ذلك، وكان احيانا يعتزل زوجته فلا يقترب منها، فلما شكت حالها الى النساء، وسمع الرسول (ص) بذلك نهاه عن مثل ذلك العمل، ونبهه الى ان لزوجه عليه حقا، ولجسمه عليه حقا، ولعينه عليه حقا، وكثيرا ما كان يتخذ لنفسه بيتا خاصا للعبادة، فنهاه الرسول (ص) مرتين او ثلاث عن ذلك، وقال: «لا رهبانية فى الاسلام». وكان ابن مظعون من البدريين، وتوفى بعد سنتين ونصف من الهجرة.

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل

وهو من بنى عدى، وكان زيد احد الحنفاء الاربعة الذين اعرضوا عن عبادة الاصنام، وهو من معاصرى الرسول (ص). وقد قال (ص) فى حقه: انه يبعث يوم القيامة امة وحده، ومعنى هذا الحديث كما اعتقد ان زيدا كان منفردا فى دينه، وسيحشر يوم القيامة فى دين

خاص به وحده، حيث ابتعد زيد عن عبادة الاصنام، وامتنع عن تناول لحوم القرابين التى كانت تذبح وتقدم للاوثان، وكان يستهجن وءد البنات ويستنكره، ويقول لمن يريد وءد ابنته: اتركها ودع نفقاتها على، انا ادفعها. وقد اعجب الرسول (ص) بهذه الخصال، ولهذا وصفه بان له دينه الخاص وانه سيحضر يوم القيامة وحده. وكان ابنه سعيد قد دخل الاسلام قبل ان يستقر الرسول (ص) فى دار الارقم بن ابى الارقم. [۱۷۹] .وتوحى احدى الروايات بانه كان متاثرا بوالده، ولهذا سارع الى الايمان بالدعوة الاسلامية بمجرد انتشار خبرها، فهو من الذين كان لهم اهتمامهم الخاص بالدين منذ الجاهلية، وقبل بعثة الرسول (ص).

اشهر اعداء الرسول فى مكة

اشاره

بعد ان انتهينا من الحديث عن المسلمين الاوائل فى مكة، وسنتحدث عما بقى منهم فى الوقت المناسب، نجد من المناسب جدا ان نعطف الكلام نحو اعداء الرسول (ص) واشهر المعاندين له، ونسلط الضوء على طبيعة حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولو بصورة مختصرة، فقد يساعدنا ذلك على اكتشاف الاسباب الكامنة وراء عدائهم ومحاربتهم للاسلام ونبيه (ص).

ابوجهل

وقد اطلق عليه هذا اللقب بسبب عدائه المستمر، والحاحه الشديد بالخصومة لرسول اللّه (ص)، والذى اطلقه عليه هو الرسول (ص) نفسه فى مقابل كنيته الاصلية (ابى الحكم)، وهو من بنى مخزوم، الذين كانت لهم فى قريش سطوة وقوة فى العصر الذى ظهر فيه الرسول (ص). وقد وقعت خصومات عديدة فى الجاهلية بين بنى مخزوم وبطون قريش الاخرى، كان حكم الكهنة فيها لصالح بنى مخزوم دوما، ويمكننا ان نستنتج ان بنى مخزوم كانوا اكثر طوائف قريش ثراء عند ظهور الدعوة الاسلامية او قبلها بقليل، وذلك لان اكثر تلك المنازعات كانت تنشا حول الشرف والمجد والمفاخر العائلية التى كان ميزانها ومقياسها بالدرجة الاولى الثروة وكثرة المال، كانت احدى هذه المنازعات ماحدث بين رجل من بنى مخزوم هو عائذ بن عبداللّه بن عمربن مخزوم والحارث بن اسد بن عبد العزى، حيث روى فى المنمق [۱۸۰] ان عائذ بن عبداللّه بن عمر بن مخزوم تنازع مع الحارث بن اسد فى ايهما اكثر شرفا ومجدا، فجعلا بينهما كاهنا كان يقوم بعسفان، وجعلا للنفر خمسين من الابل، وجعلا الابل على يد المغيرة بن عبداللّه بن مخزوم، ثم شخصوا اليه، فلما كانوا قريبا منه وجد رجل من بنى اسد بيضة نعام، فقال: «ما رايكم ان نخبى له هذه البيضة؟ فان اصابها علمناانه مصيب فيكما». ثم اتوه فقالوا: «اخبرنا فى اى شىء جئنا»، فقال: «حلفت برب السماء ومرسل الغماء فينبعن بالماء! ان جئتمونى الا لطلب السناء»، فقالو: «صدقت..» فانتسبنا له، وقالوا: «احكم بيننا اينا اولى بالمجد والشرف»، قال: «حلفت باظب عفر، بلماعة قفر، يرون بين سلم وسدر، ان سناء المجد ثم الفخر لفى عائذ الى آخر الدهر». وحدثت منافرة اخرى بين بنى مخزوم وبنى امية، حيث جاء فى المنمق: انه قد اجتمع عند الحجر قوم من بنى مخزوم وقوم من بنى امية، فتذاكروا العز والمنعة، فقال رجل من بنى كنانة، كان حليفا لبنى مخزوم: بنو مخزوم اعز وامنع، فجرى بينهما الكلام حتى غضب الوليد بن المغيرة المخزومى واسيد بن ابى العيص وتفاخرا، فجرى بينهما اللجاج، فقال الوليد: انا خير منك اما وابا، واثبت منك فى قريش نسبا. فقال اسيد: انا خير منك منصبا، واثبت منك فى قريش نسبا، وانت رجل من كنانة من بنى اشجع، دخيل فى قريش، نزيع فى بنى مخزوم، وانا غرة بنى عبد مناف، وذؤابة قصى، فتعال افاخرك، فتداعيا الى المنافرة، وكذلك كانت العرب تفعل، وقالا: يحكم بيننا سطيح، فتراضيا به، وجعلا بينهما خمسين من الابل للمنفرعلى صاحبه، قال: فخرجا نحوه، وخرج معهما نفر من قومهما.. الى ان قالوا: احكم بين الوليد بن المغيرة وبين اسيد بن ابى‌العيص، فقال: بالنجود احلف وبالتهائم، ثم ببيت اللّه ذى الدعائم، وكل من حج على شداقم، انى بما جئتم به لعالم، ان ابن مخزوم اخو المكارم، فارجع يا

اسيد بانف راغم، ثم اقبل‌عليهما فقال: اما انت يا وليد، فمثلك مثل جبل مؤزر، فيه الماء والشجر، وفيه للناس معتصر، ومنعة الحى والوزر، للخير سباق وللشر حذر، واما انت يا اسيد فمثلك مثل جبل وعر، فيه للمقتبس جمر، لا ورد ولا صدر، الخير عندك نزر، والشر عندك امر، ففلج الوليد وظفر، وخاباسيد وخسر». [۱۸۱] .اما المنافرة بين بنى قصى وبنى مخزوم، فهى كما رواها صاحب المنمق، [۱۸۲] قال: «جعل نفر من قريش مجلسا، فقال ابوربيعة بن المغيرة وابنه المغيرة وبنو المغيرة: ومنا سويد بن هرمى من بنى عامر بن عبيد بن عمر بن مخزوم، فقال اسيد بن ابى العيص بن اميهٔ: اليك، انما بنو قصى اشرف، انما شرف عبداللّه بن عمر لان امه برة بنت قصى، فبها نال ما نال، ثم عدد رجال قصى، ثم قال: فينا السقاية والحجابة والندوة والرفادة واللواء، فتداعوا الى المنافرة، فقال اسيد: ان نفرتك اخرجتك من مالك، وان نفرتنى اخرجتنى من مالى، فتراضيا بكاهن من خزاعة، فقال ابن ابى همهمة، وامه تماضر بنت ابى عمرو بن عبد مناف: مهلا يا ابا ربيعة! فابى، وخرجوا وساقوا ابلا ينحرها المنفر، فوجدوا فى طريقهم حمامة او يمامة، فدفعوها الى اسامة عبد ابى همهمة، فجعلها فى ريش ظليم، فلما اتوا الكاهن قالوا: ما خبانا لك؟ فقال: اما غمامة تتبعها غمامة، فبرقت بارض تهامة، فطفا من وبلها كل طلح وتمامة، لقد خباتم لى فرخ حمامة، او اختها يمامة، فى زف نعامة، مع غلامكم اسامة، قالوا: احكم. فقال: اما ورب الواطدات الشم، والجرول السودبهن الصم، وما جرت جارية فى يم، ان اسيدا لهو الخضم، لاتنكروا الفضل له فى العم. اما ورب السماء والارض والماء، وما لاح لنا من حراء، لقد سبق اسيد ابا ربيعة بغير مراء. قالوا: اقصى افضل ام مخزوم؟ قال: اما ورب العاديات الصبح، ما يعدل الحر بعبد نحنح، بمن احل قومه بالابطح». فنحر اسيد الجزر ورجع، فاخذ مال ابى ربيعة، وكانت اخت اسيد عند ابى جهل، فكلمت اخاها حتى رد على ابى ربيعة ماله. وكان فى بنى مخزوم اولاد المغيرة بن عبداللّه بن عمر بن مخزوم اكثر ابناء القبيلة قوة ومنعة. [۱۸۳] وكان ابو جهل، واسمه هشام بن المغيرة واخوه الحارث بن المغيرة، من اقطاب هذه العائلة. وكانت ام ابى جهل والحارث اسماء بنت مخربة، وقد اسلم الحارث واسماء فيما بعد، وبقيت اسماء على قيد الحياة حتى خلافة عمر بن الخطاب، حيث كانت تبيع الطيب. وكان كل من ابى جهل والحارث من اسخياء العرب، حيث نقل صاحب المحبر [۱۸۴] قصصا عن جودهما، ففى روايته عن ابى ذر رحمه اللّه، قال: «قدمت مكة معتمرا، فقلت: اما من مضيف؟ قالوا: بلى، كثيرا واقربهم منزلا الحارث بن‌هشام. قال: فاتيت بابه، فقلت: اما من قرى؟ [۱۸۵] فقالت‌لى الجارية: بلى، فاخرجت الى زبيبا فى يدها. فقلت: ولم لم تجعليه فى طبق؟ فعلمت انى ضيف. فقالت: ادخل، فدخلت فاذا انا بالحارث على كرسى، وبين يديه جفان فيها خبز ولحم، وانطاع عليها زبيب. فقال: اصب، فاكلت. ثم قال: هذا لك. فاقمت ثلاثا، ثم رجعت الى المدينة، فاخبرت النبى (ص) خبره. فقال: انه لسرى ابن سرى، وددت انه اسلم!». واخبر الكلبى فى اسناده عن رجلين من بنى سليم اخوين، قالا: «دخلنا مكة معتمرين فى سنة، فما وجدنا فيها شراء ولاقرى، فبينا نحن كذلك اذ راينا قوما يمضون، فقلنا: اين يريد هؤلاء القوم؟، فقيل لنا: يريدون الطعام، فمضينا فى حملتهم حتى اتينا دارا، فولجناها، فاذا رجل آدم احول على سرير، وعليه حلة سوداء، واذا جفان مملوءة خبزا ولحما، فقعدنا فاكلنا، فشبعت قبل اخى، فقلت له: كم تاكل، اما شبعت؟ فقال الجالس على السرير: كل، فانما جعل الطعام ليؤكل. فلما فرغناخرجنا من باب آخر للدار غير الذى دخلنا منه، فاذا نحن بابل موقوفة. فقلنا: ما هذه الابل؟ قيل: للطعام الذى رايتم. فسالنا عن الرجل صاحب الطعام، فاذا هو ابو جهل بن هشام». ونظرا للموقع الذى كان يشغله ابو جهل والمنزلة التى كان يحتلها فى قومه، وبسبب المقام الذى كان عليه بنو مخزوم فى مكة، فقد تسنم ابو جهل مقاما هو اعلى مقام فى قريش، فضلا عن انه اكثر ابناء قومه قوة ايام الجاهلية، ولهذا كانت بعثة النبى (ص) ودعوته الناس الى الاسلام، قد ازعجته واثارت غيظه وغضبه خشية على مقامه وقوته، وان يذهب ريح بنى مخزوم وعزهم، وينهار الوضع الاجتماعى والسياسى الذى بنوه، لهذا كله وقف ابو جهل بكل ما اوتى من قوة بوجه النبى (ص) وسعى جهده لمحاربة الرسول (ص) وباقى المسلمين ومواجهتهم، لقد حشد ابو جهل لمعركة بدر كل قواه، رغم نجاة القافلة التجارية، وعدم حماس قريش لمحاربة رسول اللّه (ص)، حتى ذهب ضحية عناده ولجاجته وخصومته للاسلام. وتكشف القصة المروية فى سيرة ابن اسحاق وسيرة ابن‌هشام، [۱۸۶] عن طبيعة معارضة ابى جهل، فقد كانت ذات طابع سياسى غالبا، ففى جوابه للاخنس بن شريف الثقفى، قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد

مناف الشرف، اطعموا فاطعمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فاعطينا، حتى اذا تجاذبنا على الركب، وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى ياتيه الوحى من‌السماء، فمتى ندرك مثل هذه، واللّه لا نؤمن به ابدا ولانصدقه». لقد اخذ ابوجهل المسلمين المستضعفين، الذين لا ناصر لهم ولا ملجا، بالشدة والقسوة، فقد قتل سمية ام عمار بيده، وكان اذا سمع بالرجل قد اسلم وله شرف ومنعه انبه واخزاه، وقال: «تركت دين ابيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن رايك، ولنضعن شرفك»، وان كان تاجرا قال: «واللّه لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك». [۱۸۷] .

الوليد بن المغيرة

هو الوليد بن المغيرة بن عبداللّه بن عمر المخزومى، من اثرياء بنى مخزوم الكبار، وكان له من الثروة والمقام ما يعدل ثروة قريش ومكانتها مجتمعة، حتى اشتهر ب (العدل). فكان يتناوب مع قريش على اكساء الكعبة، فمرة تكسوهاهى مجتمعة، واخرى يكسوها هو وحده. [۱۸۸] .وقد اشارت الايات (۱۱- ۱۵) من سورة المدثر اليه، بقولها: (ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد) يقول المفسرون فى معنى قوله تعالى: (ذرنى ومن خلقت وحيدا) اى دعنى ومن خلقته وحيدا فى رحم امه، ليس له مال ولا بنون. لكن [۱۸۹] مثل هذا التفسير ليس من خصائص الوليد بن‌المغيرة، فكل الناس يولدون كذلك، لذا فنحن نعتقد ان كلمة (وحيدا) اشارة الى المعنى الذى ذكر سابقا من انه كان يعدل قريشا باكملها، فهو وحيد متفرد من حيث المال والجاه، يقول جل شانه: (وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد). وكان الوليد بن المغيرة، هو الذى اتهم الرسول (ص) بالسحر، وهو الذى جمع قريش فى دار الندوة قبيل موسم الحج للتداول فى امر رسول اللّه (ص)، وقال لهم: «يا معشر قريش، انه قد حضر هذا الموسم، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بامر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رايا واحدا، ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا». فقالوا: «فانت يا ابا عبد شمس، فقل واقم لنا رايا نقول به». قال: «بل انتم، قولوا اسمع». قالوا: «نقول كاهن». قال: «لا واللّه ما هوبكاهن، لقد راينا الكهان، فما هو بمزمزة الكاهن، ولاسجعه». قالوا: «فنقول مجنون». قال: «ما هو بمجنون، لقد راينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته». قالوا: «فنقول شاعر». قال: «ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر». قالوا: «فنقول ساحر». قال: «ما هو بساحر، لقد راينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم». قالوا: «فما تقول انت يا ابا عبد شمس؟» قال: «واللّه ان لقوله لحلاوة، وان اصله لغدق، وان فرعه لجنا، وما انتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل، وان اقرب القول فيه لان تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء واخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته». فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم احد الا حذروه اياه، وذكروا له امره، فانزل اللّه تعالى فى الوليد بن المغيرة: (ذرنى ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد، كلا انه كان لاياتنا عنيدا، سارهقه صعودا، انه فكروقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال ان هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر) «المدثر: ۱۱-۲۵». لقد بنى الوليد بن المغيرة عداوته لرسول اللّه (ص) على اساس سياسى، فكان يرفض ان يخضع مع قبيلته لسلطة رجل من بنى هاشم، وهو قد عد من الزنادقة المانويين، ويمكن ان يكون هذا من العوامل التى دفعته لاتخاذ موقف معاد من رسول اللّه (ص)ورسالته. [۱۹۰] .قال الوليد لابى اميمة سعيد بن العاص بن امية، وكان نديمه: «لولا انزل هذا القرآن الذى اتى به محمد على رجل عظيم من مكة او الطائف، مثل: امية بن خلف الجمحى»، فقال له نديمه وقد فهم قصده: «او على رجل مثلك، او على رجل من زعماء ثقيف، امثال: مسعود بن عمرو، وكنانة بن عبد يا ليل، او مسعود بن معتب، وابنه عروة»، فنزلت الايتان (۳۱ و۳۲) من سورة الزخرف: (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين‌عظيم، اهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون) ويقصد بالقريتين مكة والطائف، كما ان المقصود بالرجل

العظيم، الذى من مكة، الوليد بن المغيرة، والاخر من زعماء الطائف، وقد اختلف المفسرون فى تعيين الرجل العظيم الذى من مكة، [١٩١] والظاهر ان المراد هو، الوليد بن‌المغيرة، بدليل الايتين (٢٩، ٣٠) من السورة عينها: (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جآءهم الحق ورسول مبين، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون). وقد اشرنا سابقا الى ان الوليد بن المغيرة وبنى مخزوم الاثرياء هم الذين اشاعوا ان القرآن سحر ساحر، بعد جولة من التداول والتفكير فى امر الرسول (ص). ثم ان الوليد بن المغيرة كان احد اشراف قريش الذين اجتمعوا ليكلموا الرسول (ص)، ومنهم الاسود بن مطلب الاسدى، والعاص بن وائل السهمى، واميه بن خلف الجمحى، حيث قالوا له (ص): «نحن نعبد ما تعبد، وانت تعبدما نعبد، فان كان الذى تعبد حقا كنا قد انتفعنا، وان كان الذى نعبد حقا كنت قد انتفعت»، فنزلت سورة (قل يا ايها الكافرون) جوابا على ذلك الاقتراح. كان الوليد بن المغيرة من الذين استهزاوا برسول اللّه (ص) والمسلمين، وقد هلك بعد هجرة المسلمين الى المدينة بثلاثة اشهر عن عمر يناهز الخامسة والتسعين.

ابواحيحة سعيد بن العاص بن امية

كان بنو اميه من البطون ذات النفوذ والثراء الواسع فى قريش، وقد انتقلت اليهم رئاسة بنى قصى بعد وفاة ابى طالب، فوصلت الى حرب بن اميه، بعبارة اخرى انتقلت زعامة بنى‌عبد مناف الى بنى اميه، وبعد هلاك حرب بن اميه انتخبت كل عائلة من عوائل بنى مناف زعيما لها، الى ان وصلت زعامة بنى اميه الى ابى احيحة سعيد بن العاص صاحب الثروة العظيمة، وقد نال من احترام اهل مكة وتعظيمهم له ان حرموا على انفسهم مشابهته فى العمامة، اذ لا يجرؤ احدهم على ان يلبس عمامة تشبه فى لونها عمامة ابى احيحة، فسموه ذاالعمامة، وذاالتاج. [١٩٢] .لم يظهر سعيد بن العاص معارضة صريحة للاسلام فى البداية، وكان يقول: «دعوا محمدا ولا تعرضوا له، فان كان ما يقول حقا، كان فينا دون غيرنا من قريش، وان كان كاذبا قامت قريش به دونكم»، فكان النبى (ص) يمر به، فيقول: «انه ليكلم من السماء». حتى اتاه النضر بن الحارث العبدرى، فقال له: «انه بلغنى انك تحسن القول فى محمد! وكيف ذلك وهو يسب الالهة، ويزعم ان آباءنا فى النار، ويتوعد من لم يتبعه بالعذاب؟ فاظهر ابو احيحة عداوة لرسول اللّه (ص) وذمه وعيب ما جاء به، وجعل يقول: «ما سمعنا بمثل ما جاء به، لا فى يهودية ولانصرانية». [١٩٣] .ويتضح مما سبق ان سعيد بن العاص لم يكن مدفوعا بدوافع سياسية فى خصومته مع رسول اللّه (ص)، اذ لم يظهر عداؤه له (ص) فى بداية الامر، غير انه بدا يتطرف وينحى منحى اشدفى خصومته مع النبى (ص) حينما علم انه يعيب آلهتهم وينعت آباءهم بالكفر ويقول: انهم فى النار. وقد اشرت فيما سبق الى ان التفاخر بالاباء والاجداد كان سنة من سنن العرب، ومرتكزا من المرتكزات الاساسية التى تقوم عليها القبيلة وتحفظ لها وجودها وشخصيتها فى النظام القبلى العربى، ولعل قوله تعالى: (فاذكروا اللّه كذكركم آباءكم) «البقرة: ٢٠٠» يفسر هذا المفهوم، فلقد كان هناك نوع من العبادة للاباء والاجداد بين العرب، لهذا استفزوا كثيرا حينما عابهم الرسول (ص). وقد اسلم ابن سعيد بن العاص وهو خالد بن سعيد بن العاص‌على اثر رؤيا رآها فى المنام، وكان اسلامه فى بداية الدعوة الاسلامية، لهذا عد من اوائل المسلمين، وقد غضب سعيد لاسلام ولده كثيرا، فنهاه ثم عنفه وعذبه، وحينما يئس منه طرده وابعده عنه. لم يعد موقف سعيد بن العاص كما كان فى السابق، فقد اتخذ عداؤه للاسلام طابعا سياسيا بعد اسلام ولده، ولم يعد مقتصراعلى الدوافع الدينية، حتى انه قال حين خرج ابنه الى الحبشة فى الهجرة الثانية: «لاعتزلن فى مالى، لا اسمع شتم آبائى، ولاعيب آلهتى، فهو احب الى من المقام مع هؤلاءالصباه». فاعتزل فى ماله بالظريبة نحو الطائف. [١٩۴] .

الحكم بن ابى العاص بن امية وعقبة بن ابى معيط

كان هذان الرجلان وهما من بنى اميه، من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان الحكم بن ابى العاص ابو مروان، وجد الفرع المروانى من خلفاء بنى اميه مؤذيا لرسول اللّه (ص) يشتمه ويسمعه، وكان رسول اللّه (ص) يمشى ذات يوم، وهو خلفه يخلج بانفه وفمه، وبقى

على ذلك. وقد اظهر الاسلام يوم فتح مكة، وكان مغموصا عليه فى دينه، فاطلع يوما على رسول اللّه (ص) وهو فى بعض حجر نسائه، فخرج اليه بعنزة، وقال: «من عذيرى من هذه الوزغة؟ لو ادركته لفقات عينيه» ولعنه وما ولد، وغربه من المدينة، فلم يزل خارجا منهاالى ان استخلف عثمان بن عفان فرده وولده [۱۹۵] .وكان عقبة بن ابى المعيط بن ابى عمرو بن امية من اشد اعداء الرسول (ص)، وكان يضع العذرة فى زنبيل ثم يرميها على باب الرسول (ص)، وقد اسر يوم بدر، وكان الذى اسره عبداللّه بن سلمة العجلانى، من بلى، وعداده من الانصار، جمح به فرسه فاخذه، فامر رسول اللّه (ص) عاصم بن ثابت بن ابى الاقلح الاوسى من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبة يقول: «يا ويلتى، علام اقتل يا معشر قريش؟ اقتل من بين هؤلاء؟» وكان الاسرى يطلق سراحهم بفدية يدفعونها، فقال رسول اللّه (ص): «نعم، انه وطىء على عنقى وانا ساجد فما رفع حتى ظننت انعينى قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلى شاة فالقاه على راسى». فقال عقبة: «من للصبية»؟ فقال رسولاللّه (ص): «النار» [۱۹۶] .كان السبب وراء عداء عقبة بن ابى المعيط لرسول اللّه (ص) عاطفيا ناشئا عن الجهل وعدم المعرفة، وربما كانت هناك بعض الاسباب الدينية، لان عقبة بن ابى المعيط كان زنديقا من (المانويين) كما قيل. [۱۹۷] .كان لعقبة علاقة صداقة حميمة مع ابى بن خلف بن وهب الجمحى المعروف بعدائه الشديد للرسول (ص)، وكان ابى بن خلف الجمحى قد هدد عقبة بقطع العلاقة معه اذا ما جالس النبى (ص) بعدما سمع انه كان قد ذهب اليه واستمع الى حديثه، بل كان ابى بن خلف الجمحى يحرض صديقه على ان يتعرض لرسول اللّه (ص) بالاساءة والاهانة، وقد فعلعقبة بن ابى المعيط ذلك حرصا منه على تلك العلاقة. وهكذا كانت خصومة هذا الرجل مع الرسول خصومة عاطفية، ولم يكن عقبة يتمتع بمنزلة مرموقة فى مكة، ومثله الحكم بن ابى العاص، فكانا يفتقدان الى المبررات العقلانية لمعاداة الرسول (ص)، وهى الخوف على الموقع السياسى اوالاجتماعى وخشية ذهاب الشرف والمنزلة الرفيعة بانتشار الاسلام، كما انهما لم يكونا يعانيان من الحسد الذى كان يسوق اشراف مكة الى اتخاذ موقف معاد للنبى (ص) لظهور امره والتفاف المسلمين حوله (ص)، وقد اشار القرآن الكريم الى هذا النوع من العداوة، بل الى عداوة عقبة بن ابى المعيط بالذات طبقا لراى اكثر المفسرين حيث يقول تعالى: (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا) «الفرقان: ۲۷ و ۲۸».ثم يقول تعالى: (لقد اضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) «الفرقان: ۲۹». وفيما اذا صح الراى القائل ان الايات السابقة نازلة بحق عقبة وابى بن خلف، فسيكون ذلك دليلا على صحة ما ورد فى الروايات من ان عقبة كان يسير خلف الرسول (ص) ويستمع الى القرآن الكريم، غير ان ابى كان يقطع عليه طريق الهداية. وقد كشفت معاملة الرسول (ص) للحكم بن ابى العاص، وكذلك معاملته لعقبة بن ابى المعيط عن مدى تالم قلب الرسول (ص) من عداء هؤلاء له وسلوكهم الشاذ معه (ص)،والا لشملهم عفوه ورحمته التى شملت غيرهم من اعدائه، كماعودنادائما. [۱۹۸] .وينتسب كل من عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة الى فرع آخرمن فروع بنى عبد شمس، وكانا من المعاندين لرسولاللّه (ص)، وقد تعاونا مع المعادين له (ص) غير انهم لم يتعرضو الشخصه ولم يلحقوا به اذى بشكل مباشر.

النضر بن الحارث

وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة العبدرى، من بنىعبد الدار، من قبيلة قريش، وكان من خصوم الرسول (ص) الاشداء، ويمتاز عن غيره ببعض الخصائص، فقد كان زنديقا مانويا، تعلم الزندقة من النصارى فى الحيرة، وكان المانويون قد انتهوا فى المناطق الخاضعة لسلطة الساسانيين بصورة مباشرة، والتى يشرف عليها الدهاقنة الزرادشتيون، ومن بقى منهم بقى متخفيا. ورغم ان الحيرة كانت تابعة من الناحية السياسية للاباطرة الساسانيين وللدولة الفارسية، غير ان ملوك الحيرة او الملوك المناذرة كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال الذى وفر مناخا مناسبا لنمو المانوية وقيامها بنشاطاتها بصورة علنية ودون قيد اوخوف، وهكذا كان الوضع بالنسبة الى النصرانية واليهودية وباقى الاديان. وقد كان من نتائج تجارة قريش مع العراق احتكاك القرشيين، ومنهم النضر بن الحارث، باهل الحيرة وتردده عليهم بصورة مستمرة، وقد استطاع المانويون بما لديهم من مبلغين ودعاة بارعين ان يستميلوا بعض تجار قريش

لمعتقداتهم المانوية. ومن الجدير بالاشارة ان اكثر المعادين للرسول اللّه (ص) كانوامن ينسبون الى الزندقة. [۱۹۹] رغم انهم يحتجون فىعدائهم للرسل بتسفيهه لابائهم واهانته لاصنام قريش. ولم يكن الامر كذلك مع النضر بن الحارث العبدرى، فكانهذا قد نظر فى كتب الفرس، وخالط النصارى واليهود، وكان له مع رسول اللّه (ص) مناظرات ومجادلات كلامية ودينية حتى قيل: ان قوله تعالى: (ومن الناس من يجادل فى اللّه بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير) «الحج: ۳ - ۴» قد نزلت فيه، وقد وردت فى هذه الايات اشارات الى هذا الشخص. احداهما: انه كان مجادلا ومن اهل البحث والجدال فى الدين والمسائل الكلامية والالهيات. والثانية: كونه من اتباع الشياطين فهو (يتبع كل شيطان مريد)، وتؤيد هذه الاشارة ما ذكر من انه كان مانويا ويرتبط فى الوقت ذاته بعلاقات عشرة مع اليهود والنصارى، ثم انه كان له اتباع وموالون (كتب عليه انه من تولاه فانه يضله..) وهذه الاشارة تؤيد الروايات القائلة بانه كان يخطب بعد الرسول (ص)ثم يسال الناس: «اينا احسن حديثا»؟. [۲۰۰] .قال ابن اسحاق: «كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول اللّه (ص) وينصب له العداوة، وكان قدقدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس واحاديث رستم واسفنديار، فكان اذا جلس رسول اللّه (ص) مجلسا فذكر فيه باللّه، وحذر قومه ما اصاب قبلهم من الامم من نقمة اللّه، خلفه فى مجلسه اذا قام، ثم قال: انا واللّه يا معشر قريش احسن حديثا منه، فهلموا الى فانا احدثكم احسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك الفرس ورستم واسفنديار، ثم يقول: «بماذا محمد احسن حديثا منى». وبهذه المناسبة نزلت الايتان (۵ - ۶) من سورة الفرقان: (وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملىعليه بكرة واصيلا، قل انزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما) وفى هاتين الايتين امور ينبغى التوقف عندها قليلا- فى الاولى: ادعاء النضر بن الحارث ان ما يقوله الرسول (ص) حول الاقوام الغابرة انما هو اساطير الاولين تكتب له بكرة واصيلا اى عندما يكون الناس فى بيوتهم لان الرسول (ص) كان اميا، فهو يدعى بانها تقرا عليه فى الاوقات التى لا يراه فيها احد. وتشير الايات السابقة الى ان النضر بن الحارث كان يقص على الناس اخبار رستم واسفنديار وقصصا اخرى، ربما اخذها عن الكتب، ويعتقد انه كان يظن ان الرسول (ص) هو الاخر اخذها من الكتب لذا اتهم الرسول (ص) بذلك، وقد ذكر النضر بن الحارث بعض الاشخاص الذين زعم انهم كانوا يعلمون الرسول (ص) ويقصون عليه تلك الاخبار، ومن هؤلاء جبر (وهو غلام اسود بن المطلب) وقيل: غيره، ويعتقد ان جبرا هذا او غيره، كان غلاما يونانيا له معرفة بالكتب، وقد نزلت الاية (۱۰۳) من سورة النحل لتجيب على هذا الاتهام: (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين). وفى سيرة ابن هشام انه غلام نصرانى، يقال له جبر عبدلبنى الحضرمى. [۲۰۱] .وفى تفسير الطبرى، عن عبداللّه بن مسلم الحضرمى، انه كان لهم عبدان من اهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لاحدهما يسار، والاخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول اللّه (ص) ربما يجلس اليهما، فقال كفار قريش: «انمايجلس اليهما يتعلم منهما». [۲۰۲] .دابت الايات المكية التى نزلت فى اول الدعوة الاسلامية على تحذير قريش من عذاب جهنم وكانت تتوعدهم باشد العذاب فى يوم الحساب، وكان النضر بن الحارث من اولئك الذين ينكرون هذا اليوم ويتهكمون قائلين: اين اذن هذا العذاب الذى تعدون به؟ ومتى سيحل ذلك اليوم الذى تحذروننا منه؟! وجاءت الاية (۱۸۷) من سورة الاعراف اجابة هؤلاء الغافلين: (يسالونك عن الساعة ايان مرساها) او الاية (سال سائل بعذاب واقع) «المعارج: ۱». وكذلك يقال: ان الايتين (۴۲ و۴۳) من سورة فاطر نزلت حول الموضوع نفسه: (واقسموا باللّه جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الانفورا، استكبارا فى الارض...). اذا كان النضر بن الحارث طبقا للاية الشريفة يعد اهل مكة انهم سيصبحون أهدى الامم ان جاءهم نذير، ويبدو ان حديثه هذا كان جزءا من دعوته الى المانوية، فهو يسعى الى تهيئة قومه لاستقبال مبعوث مانوى ياتى من الحيرة. وقد تلا الرسول (ص) الايتين (۹۸ و۹۹) من سورة الانبياء على النضر بن الحارث واتباعه فى ختام جولة من النقاش والجدال حول الدين جرت بين الرسول والنضر بن الحارث، الذى هزم فيها وخرج خاسرا، وقد جاء فيهما: (انكم وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم انتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون). وينبغى التوقف هنا عند نقاط دقيقة. فما هو نوع النقاش الذى هزم فيه النضر بن الحارث؟ ولماذا لم يات

اصحاب السيرة على ذكره؟ وما هى العلاقة بين هاتين الايتين والحوار الذى دار بين رسول اللّه (ص) والنضر بن الحارث؟ اعتقد ان الحوار بين الرسول (ص) والنضر بن الحارث كان يدور حول العقائد المانوية، فالظلمة والنور كما نعلم هما اصلا الخلقة فى نظر المانوى، ويرى المانوى ان الصراع قائم ابدابين الظلمة والنور فى نظام الخلق، اذ تحيط الظلمة المملوءة بالشياطين والاغوال بالنور الذى يسعى دائما للتخلص منها ومما فيها من شياطين الظلام، فاللّه يقول لهم: (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها)، ثم لو كانت الظلمة هى الخالقة وكان اعوانها اعوان الالهة لما كان (وكل فيها خالدون) «الانبياء: ۹۹». اذن انتم هؤلاء وما تعبدون من دون اللّه حصب جهنم وليس اللّه الذى هو خالق الظلمة والنور. وبهذا البيان الواضح غلب النضر بن الحارث وافحم، ثم قام رسول اللّه (ص) واقبل عبداللّه بن الزبعرى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة وهو من الزنادقة (المانويين) كما قيل لعبد اللّه بن الزبعرى: «واللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد اننا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم». فقال عبداللّه بن الزبعرى: «اما واللّه لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا اكل ما يعبد من دون اللّه فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم»، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبداللّه بن الزبعرى، وراوا انه قد احتج وخاصم، فذكر لرسول اللّه (ص) ما كان من قول ابن الزبعرى، فقال رسول اللّه: «ان كل من احب ان يعبد من دون اللّه فهو مع من عبده، انهم انما يعبدون الشياطين ومن امرتهم بعبادته»، فانزل اللّه تعالى عليه فى ذلك: (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون، لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت انفسهم خالدون) «الانبياء: ۱۰۱- ۱۰۲» اى عيسى ابن مريم، وعزير، ومن عبدوا من الاحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة اللّه فاتخذهم من يعبدهم من اهلالضلالة اربابا من دون اللّه. [۲۰۳] .كان النضر بن الحارث ياتى من الحيرة التى كان يقيم فيها، كما اشرنا سابقا ببعض الهدايا، واهمها آلة موسيقية كان يعزف عليها الانغام فى مكة، وقد عرف المانويون بتعلقهم الشديد بالموسيقى، فكان النضر بن الحارث يعلم اهل مكة طريقة عزف الانغام التى كان قد تعلمها فى الحيرة. ولم يكن اهل مكة يعرفون قبل ذلك سوى (النصب)، وهو نوع من الاغانييشبه الحداء الذى يغنى للابل اثناء سيرها. [۲۰۴] .وكان للنضر بن الحارث جاريتان مغنيتان نزلت فى شانهما آيتان من سورة لقمان: (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل اللّه بغير علم ويتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين، واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان فى اذنيه وقرا فبشره بعذاب اليم) «لقمان: ۶- ۷». وكان من بين مناظرات النضر بن الحارث مجادلته الرسول (ص) فى امر احياء العظام وهى رميم، وقد انزل جواباعلى ذلك الايات (۷۸ -۸۰) من سورة يس: (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم، قل يحييها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون). وقيل: ان ابى بن خلف هو الذى جلب البالية الى الرسول (ص)، غير ان طريقة الاستدلال المذكورة فى الاية اكثر انسجاما مع منهج النضر بن‌الحارث فى الجدال. وبسبب هذه المجادلات والتكذيب الدائم لرسول اللّه (ص) قيل ان النضر بن الحارث كان من اشد خصوم الرسول (ص)، فقد آذى سلوكه هذا الرسول (ص) كثيرا، لهذا امر (ص) بقتله حين اسر فى معركة بدر على يد المقداد. فقال المقداد الذى كان ينتظر شيئا مقابل ذلك: «يا رسول اللّه، انه اسيرى، اى هل من عوض مقابل قتله، فقال الرسول (ص): «اللهم اغن المقداد من فضلك». [۲۰۵] .

العاص بن وائل و منبه بن الحجاج و نبيه بن الحجاج السهمى

ينتمى هؤلاء الثلاثة الى بنى سهم من قبيلة قريش، وكانوا من المستهزئين والمحاربين لرسول اللّه (ص)، وقد وردت اسماؤهم فى قائمة الزنادقة المانويين. [۲۰۶] وكان كل من منبه ونبيه من المستخفين برسول اللّه (ص) والمستصغرين شانه، وكانا يزعمان ان وراء الرسول شخصا آخر يعلمه، ويكررون القول: (معلم مجنون). وكان العاص بن وائل ابوعمرو بن العاص المعروف من المستهزئين بالرسول (ص) ويقول: (انه ابتر)، اى ليس له اولاد ذكور وسينقطع اثره بعدموته، وانزلت سورة الكوثر جوابا على هذا الزعم: (انا اعطيناك‌الكوثر، فصلى لربك وانحر، ان شانئك هو الابتر). وفسرالكوثر بانه الماء الذى فى الجنة، وقيل: انه نسل فاطمة (ع) وابناؤها

الـذين ملاوا الدنيا، ويمكن ان يصح كلا القولين. غيرانه ما يمكن ان يكون جوابا قاطعا للعاص بن وائل، الذى كان يتباهى بابنائه، انما هو الـدين الاسـلامى والرسالـة التى عبر عنهـا بـالكوثر، اى ان هـذه الرسالـة انما هى اكبر واكثر بركـة من كل ما تتفاخرون به من مقام وثروة واولاد. وسيملا ذكرها اسماع الشرق والغرب فى الوقت الذى لا يذكر فيه اعداء الاسلام الا بالسوء.

اميـة بن خلف الجمحى

وينتسب اميـة الى بنى جمح من قبيلة قريش، وكان من اثرياء مكة، ولم يدخر جهدا فى محاربة الرسول (ص) سـرا وعلانية، حتى انزلت هـذه السورة الشـريفة بشانه: (ويل لكل همزة لمزة، الـذى جمع مالا وعدده، يحسب ان ماله اخلده...) «الهمزة: ۱- ۳» والتى تؤكد على انه كان كما اشـرنا من اثرياء قريش، وقد ورد اسم اخيه ابى بن خلف فى قائمةاسـماء مانويى قريش. [۲۰۷] .كان ابى صديقا لعقبة بن ابى معيـط، وقـد مرت الاشـارة الى قضـيتهما مع الرسول (ص)، وقال البعض: ان الـذى احتـج علىالنبى بالعظام الباليـة وقال (من يحيى العظام وهى رميم) انما هو ابى. وقد قتل اميـة فى يوم بدر، بينما قتل ابى فى احد على يد رسولاللّه (ص) [۲۰۸] .

ابوعزة عمرو بن عبداللّه الجمحى

لم يرد اسم ابى عزة مع اسماء الذين آذوا الرسول (ص)، لكنه ورد فى قائمة اسماء مانويى قريش، [۲۰۹] ورغم انه لم يذكر فيمن آذوا الرسول (ص)، الا انه كان من اعـداء الاسـلام، وقد وقع اسـيرا بيد المسـلمين فى معركة بدر، وكان فقيرا ذا فاقة وعيال فمن عليه رسول اللّه (ص) بعـد ان قال: «انى فقير ذو عيال وحاجـة قـد عرفتها، فامنن على صـلى اللّه عليك وسـلم». فمنعليه رسول اللّه (ص». وحينما تهيـات قريش لحرب رسول اللّه (ص) فى احـد، قـال صـفوان بن اميـة لعمرو بن عبـداللّه: «يـا ابـا عزة، انـك امرؤ شاعر، فاعنا بلسانك فـاخرج معنا». فقال: «ان محمـدا قـد من على، فلا اريـد ان اظاهر عليه»، قال: «بلى، فاعنا بنفسك، فلك اللّه على ان رجعت ان اغنيك، وان اصـبت ان اجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما اصابهن من عسر ويسر». فخرج ابو عزة فى تهامة، وقد حرض الناس وحثهم على قتال المسـلمين، ثم وقع اسيرا مرة اخرى فى احد، وطلب العفو ايضا كما فى المرة السابقة، فقال رسول اللّه (ص): «واللّه لا تمسح عارضيك بمكـة بعـدها وتقول: خـدعت محمـدا مرتين، اضـرب عنقه يـا عـاصم بن ثابت» فضـرب عنقه وقال (ص): «ان المؤمن لا يلـدغ منجحر مرتين». [۲۱۰] .

ابوسفيان

وهو صـخر بن حرب بن اميـة، وكان يعد من المانويين، احد اشـراف قريش وعظمائها، كانت له منزلة رفيعة بسبب انتسابه الاسرى، وقد تحولت له زعامـة قريش وقيادتها بعد مقتل ابىجهل فى معركة بدر، وكان قائدا لقريش فى جميع حروبها مع المسـلمين، وقد تزوجت ابنته ام حبيبـة من رسول اللّه (ص) بعـد وفـاة زوجها عبيـداللّه بن جحش، وكان ابو سـفيان من اعـداء الرسول (ص) حين كان فى مكة وبعـد الهجرة الى المدينة، وكثيرا ما كان يشترك مع الجماعات المعادية للرسول (ص)، بل كان عنصـرا مهما فيها، ويبدو انه كان عدوا عاقلا اذ لم يشترك فى ايـذاء الرسول وتعـذيب المسـلمين. لقد اسـلم ابو سـفيان فى فتح مكة، وقال الرسول (ص): «من دخل بيت ابى سفيان فهو آمن». وقـد اعطى مع ابنائه اسـهما مهمـة من الغنائم التى حصلعليها المسـلمون بعـد فتـح مكـة، ويـدل هذا على ان عداءه لرسول اللّه (ص) لم يكن شديدا بالدرجة التى تثير غضب الرسول كثيرا.

ابولهب

وهو من الـد اعـداء الرسول (ص)، وكانت لابى لهب مكانة خاصة، فهو من بنى هاشم وعم الرسول الاكرم (ص)، ولم يعرف السـر فى

هـذا العـداء المستفحل الـذى كان يظهره ابولهب ازاء الرسول (ص) ودعوته المباركة. لقد بلغ عداء ابى لهب واذيته لرسول اللّه (ص) الى الحـد الـذى نزلت معه سورة من القرآن الكريم فى ذمه وتقريعه، وذكر فيهـا اسـمه صـراحة، فى وقت لم يـذكر فيه القرآن الكريم اسـماء الاشخاص الا قليلا. كان ينبغى لابى لهب ان يقف موقف المدافع والمحامى عن رسول اللّه (ص) كباقى اعمامه، طبقا للاعراف العائلية والقبلية، او على اقل تقدير لا يصل به العداء الى تلك الدرجة المناقضة للاعراف العربية حتى مع عدم قبوله الاسلام. كان منزل الرسول (ص) بين منزل ابى لهب ومنزل عقبة بن ابى المعيط، العـدو الاخر لرسول اللّه (ص)، وكان الاثنان يرميان الاوساخ والقذارات فى بيت النبى (ص). [۲۱۱] روى البلاذرى روايـة [۲۱۲] يعتقـد انهـا تكشف‌عن السـبب الحقيقى وراء معارضـة ابى لهب لرسول اللّه (ص) قـال: «كـان ابو لهب احـد الـذين يؤذون رسول اللّه (ص)، ووقع بينه وبين ابى طالب كلام فصـرعه ابو لهب، وقعـد على صـدره، وجعل يضـرب وجهه، فلما رآه رسول اللّه (ص) لم يتمالك ان اخـذ بضـبعى ابى لهب، فضـرب به الارض، وقعد ابوطالب‌على صدره، فجعل يضرب وجهه، فقال ابو لهب للنبى (ص): هو عمك وانا عمك، فلم فعلت هذا فى؟ واللّه لا يحبك قلبى ابدا».

كيفية الدعوة

اشاره

ما هى الطريقـة التى كان يتبعها الرسول (ص) فى الـدعوة الى‌الاسـلام والتبشـير بالدين الجديد؟ تقول الروايات: ان دعوته (ص) كانت سريـة فى بدايـة الامـر، وخلال تلك الفترة آمن بعض ابناء قومه، وقـد مرت الاشارة الى ذكر عـدد من اسـمائهم، وكان اكثر هؤلاء من شباب قريش او الضعفاء والمستضعفين، او اولئك الذى لا سند لهم فى قريش، وقد امتدت فترة الدعوة السرية طبقا للرواية التى اوردها ابن سعد ثلاث [۲۱۳] سـنوات. وفى رواية اخرى عن سـعيد بن‌زيد بن نفيل يقول: «استخفينا بالاسلام سنة لا نصلى الا فى‌بيت مغلق او شعب خال، ينظر بعضـنا لبعض». وليس ثمة تناقض بين الروايتين، اذ يمكن ان يكون سـعيد بن زيد قد آمن قبل سنة من اعلان الدعوة الاسـلامية، ويبـدو ان الدار المغلقة التى تحدثت عنها رواية سـعيد بن زيد هى دارالارقم بن ابى الارقم التى كانت بمثابة مركز الرسول (ص) الاعلامى فى عرفنا الحالى، فبعـد ان آمن الارقم وكان سابع رجل فى الاسـلام كما ينقل هو وضع داره فى خدمـة الرسول (ص) واصـحابه، وفى تصـرفهم، وفى هذه الدار اسـلم كثير من القوم حتى اصبح يؤرخ لها الدار، فيقال: اسلم فلان فى دار الارقم، بينما اسلم فلان الاخر بعـد خروج الرسول (ص) من هـذه الـدار. وتقع هذه الدار على جبل الصـفا، وقد دعيت دار الاسـلام، وبعد اسـلام عمر بن الخطاب فى هـذه الـدار تجرا المسـلمون فخرجوا منها مكبرين متجهين نحو الكعبة للطواف. وقد اوقف الارقم داره على ولده، فلم تزل هكذا حتى زعم الخليفة العباسى ابوجعفر المنصور انه اشتراها من ورثتها. [۲۱۴] .

فاصدع بما تؤمر

لا يمكن لحالة السـرية والتخفى ان تسـتمر الى الابد، فلقد جاء الاسـلام للناس كافة، فلا بد من اظهاره والجهر بالدعوة اليه ان عاجلا او آجلا، لكن الرسول (ص) كان يتردد فى اعلان الدعوة فى البداية كما يستشف من الايات القرآنية، لضيق صدره وعدم ارتياحه لافعال قومه وما قابلوه به من اذية واسـتهزاء وصدود حتى نزل قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمروا عرض عن المشـركين، انا كفيناك المستهزئين، الذين يجعلون مع اللّه الها آخر فسوف يعلمون) «الحجر: ۹۴- ۹۶».

و انذر عشيرتک الاقربين

قلنا ان اكثر المؤمنين الاوائل كانوا من الشـباب والضـعفاء، وكان الرسول (ص) لم يظهر دعوته بعد لاشراف قريش وللاسر التى تملك

زمام الحل والعقد فى مكة، وكان لا بد لهذا الامر ان يحصل ان عاجلا او آجلا حتى نزلت الاية الشريفة: (وانذرعشيرتك الاقربين) «الشعراء: ۲۱۴» والايات التى تليها. وكان ذلك طبقا لما جاء فى طبقات ابن سعد تكليفا باهضا لرسول اللّه (ص). يقول ابن سعد لما انزلت الاية: (وانذر عشيرتك الاقربين) غضبت قريش، واظهروا لرسول اللّه (ص) الحسد والبغى، واشخص به منهم رجال [۲۱۵] فان الرسول (ص) كان على علم بعصبية اشراف مكة وشدة تمسكهم بالتقاليد والاعراف المبنية على الشرك وعبادة الاصنام، اضافة الى ذلك كانت هناك العصبيات الاسرية والقبلية، وكذلك التفاخر بالجاه والمقام والثروة والقوة التى كانت من المعايير المهمة فى المجتمع الجاهلى، كل ذلك كان يمنع من ان تسمع الاسر ذات الثروة والقوة والجاه، امثال بنى مخزوم وبنى سهم وبنى اميه، الى رجل من بنى هاشم وتطيعه. اذ يبدو ان بنى هاشم رغم ما كانوا عليه من شرف النسب، كانوا يفتقدون الى الثراء الذى كان لدى بطون قريش الاخرى، وكان زعيمهم ابوطالب يعيش وضعا اقتصاديا خانقا، ويتضح هذا المعنى من الايات الشريفة التى انزلت بعد ظهور معارضة قريش واشرافها للدعوة الاسلامية، وسنشير الى ذلك فى اثناء البحث. (وما ارسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون، وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين) «سبا: ۳۴ - ۳۵». بناء على ما يظهر من الروايات المختلفة فان الرسول (ص) كان قد دعا اشراف قريش وحدثهم عن رسالته، ويقال انه لم يتعرض (ص) الى رد عنيف، رغم ان احدا منهم لم يقبل دعوته، هذا باستثناء ابى لهب الذى خاطب بنى هاشم قائلا: «يابنى عبد المطلب، هذه واللّه لسوءة، خذوا على يديه قبل ان ياخذ على يده غيركم، فان اسلمتموه حينئذ ذللتم، وان منعتموه قتلتم». فقال ابو طالب: «واللّه لنمنعنه ما بقينا».

بداية معارضة قريش

اشاره

يقول ابن اسحاق: لما بادى رسول اللّه (ص) قومه بالاسلام، وصدع به كما امره اللّه، لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك اعظموه وناكروه واجمعواعلى خلافه وعداوته الا من عصم اللّه تعالى منهمبالاسلام، وهم قليل مستخفون. [۲۱۶] .وجاء فى رواية الزهرى: دعا رسول اللّه (ص) الى الاسلام سرا وجهرا، فاستجاب له من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان اذا مر عليهم فى مجالسهم يشيرون اليه ان غلام بنى عبد المطلب ليكلم من السماء، فكان ذلك حتى عاب اللّه آلهتهم التى يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتواعلى الكفر، فشنفوا لرسول اللّه (ص) عند ذلك وعادوه. [۲۱۷] .

السبب الحقيقى لمعارضة قريش

لا سبيل لانكار ما للمعتقدات الدينية وتقديس الاباء والمحافظة على آثارهم من جذور عميقة فى نفوس البشر، فليس من السهل محاربتها او القضاء عليها، بل قد يؤدى ذلكعادة الى العداوة والبغضاء والاستفزاز، ولكن استقراء اوضاع المجتمع العربى فى الجاهلية بصورة عامة، وقريش او مجتمع مكة بصورة خاصة، لا يكشف عن مشاعر دينية قوية ومتطرفة لدى عرب الجاهلية، وقد نقلنا مثلا على ذلك عن (الاصنام للكلبى) حيث كثيرا ما كان يتعرض آلهة العرب واصنامهم الى الاهانة والشتم من قبل عبادهم عندما لا يجدون فيهم ما يلبى حاجاتهم ويحقق طموحاتهم، اذ لا يمكن ان يشتد تمسك امة ما بالعامل الدينى فى وقت ينشا فيه ابناؤها على السطو والاغارة والنهب والسلب، خصوصا ان اكثر العرب كانوا لا يؤمنون بيوم الحساب والبعث، وهناك العديد من الايات الشريفة التى تحدثت عن رفض اهل مكة الايمان بيوم الحساب واستهزائهم بالنشور والبعث بعد الموت، وكانوا يكررون القول المعروف: كيف يحيى العظام وهى رميم؟!. وبناء على هذا فان ادعاء قريش بان اسباب محاربتها للرسول (ص) انما تكمن فى سبه لابائهم واجدادهم

وتسفيهه لالهتهم، لا يمكن ان يكون ادعاء صحيحا، بل لا بد من وجود اسباب حقيقية لا علاقة لها بالدين والمعتقدات، كان لها الدور الاكبر فى دفع قريش لذلك الموقف العدائى من الرسول (ص) ورسالته، ويبدو ان الخوف على موقع مكة التجارى من التصدع، والحرص على ما حصلت عليه هذه المدينة من شهرة وحرمة، حيث تم اعلانها مدينة امن وحرما آمنا يمارس فيه تجار قريش واهل الثروة نشاطهم بكل حرية واطمئنان. يبدو ان التخوف من ضياع هذه المكاسب كان اهم سبب دفع اشراف قريش لذلك الموقف العدائى المتصلب من الدعوة الاسلامية، رغم انهم كانوا يتذرعون بحجج اخرى فى مقدمتها الحفاظ على سنة الاباء، والدفاع عن تراثهم وامجادهم، والدليل على ذلك الاية القرآنية الشريفة (۵۷) من سورة القصص: (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون). اذا كان اهل مكة طبقا للقرآن الكريم يخافون ان دخلوا فى الاسلام ان يخرجوا من ارضهم، وقد فسر المفسرون (نتخطف من ارضنا) ان العرب سيهجمون على مكة ويخرجوا منها اهلها اذا ما اسلموا ودخلوا فى الدين الجديد، ويمكن ان يكون للاية معنى آخر يتلخص فى ان مكة ستفقد مكانتها الخاصة وتزول امتيازاتها فى حالة اسلام قريش واهل الجزيرة العربية، لهذا اجابهم القرآن الكريم بقوله: (اولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء) وان هذا الوضع سيستمر ويدوم. وتاتى الاية التالية من سورة القصص لتوضح اسباب انهيار المدن وتدهورها اذ تقول: (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) ثم يردف القرآن الكريم قائلا: (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) ويضيف: (وما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند اللّه خير وابقى افلا تعقلون) «القصص: ۵۸- ۶۰». لقد صرحت الايات القرآنية الكريمة السابقة بان قريش كانت تخشى على مكانتها من ان تتدهور، وتخاف على مركز مدينتها (مكة) التجارى والدينى ان يتزلزل فيما اذا تابعت الرسول (ص) وآمنت بدعوته.

الانذار

كانت الايات القرآنية المكية، التى تركز غالبا على دعوة قريش للدخول فى الدين الجديد تقرن دعوتها هذه بالانذار والوعيد، وكانت تدعو رسول اللّه (ص) ب (النذير) او ال (منذر) واحيانا (البشير)، وهناك آيات اطلقت عليه التسميتين فى آن واحد، مثال ذلك الاية (۱۸۸) من سورة الاعراف: (ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)، وفى الاية الثانية من سورة هود: (الا تعبدوا الا اللّه اننى لكن منه نذير وبشير) اما الاية الثانية من سورة يونس فتقول: (اكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا). والان لنعرف ما هو الانذار، وما هو الشىء الذى يحذر القرآن الكريم منه ويتوعد اهل قريش به؟ الذى يبدو من استقراء الايات الشريفة، التى ورد فيها هذا الانذار والوعيد بصوره وكيفياته المتنوعة، ان المقصود هو يوم الحساب واقتراب الساعة وحين يحشر الناس يوم القيامة فيصب اللّه عليهم عذاب الاخرة الذى ما فتى يحذرهم منه، والحقيقة ان افضل شىء يمكنه ردع كفار قريش عن عبادة الاصنام والشرك باللّه والقتل والغزو والفسق انما هو تحذيرهم من العذاب، ومن العواقب الوخيمة التى تنتظرهم عما قريب، وبالعكس تبشير المؤمنين والصالحين بالثواب الجزيل والاجر العظيم بعد الموت. والافما هو السبيل لارشاد هؤلاء الى طريق الخير وردعهم عن سبل الشر؟ [۲۱۸] .لم تعرف مكة، بل والعرب جميعا، فى قيمهم الاخلاقية شيئا (حسن) مطلقا وآخر (قبيح) مطلقا، فلا معنى، والحالة هذه، لان يقال لاهل مكة يجب اجتناب الظلم او الكذب او الغزو او ما شابه ذلك، لانها اعمال قبيحة فى ذاتها. [۲۱۹] علما ان معانى الخير والشر فطرية مغروسة فى ذات الانسان، فالكذب والسرقة وقتل النفس والتعدى على حقوق الاخرين كلها مسائل ترفضها الفطرة السليمة وتدينها، اما لماذا يجب الامتناع عن هذه الافعال السيئة مع امتلاك القدرة على فعلها، وعدم الخوف من العقوبة والقصاص؟ الم يكن امتلاك القدرة البدنية والاستطاعة المالية دليلا على الشرف وعلو الدرجة؟ الم تكن مفاخر العرب جميعا قد تحققت فى ظل السيف؟ الم يذهب دم المقتول، الذى ليس له عشيرة تمنعه، هدرا، وهل يلام القاتل او يعاقب فى مثل هذه الحالة؟ بعد ان كان بناء الحياة

الاجتماعية قائما على اسباب القوة الشخصية والقبلية، وفى ظل هذه القوة يمكن القيام باى عمل حتى لو كان من الاعمال التى لا تقبلها الفطرة ولا يقرها الوجدان، اذا ليس هناك من رادع يمكن ان يردع الظالمين من اهل مكة والعرب فى شبه الجزيرة العربية سوى اخبارهم وانذارهم بان هناك قوة عليا فوق قوتهم ستعيد للضعيف والمظلوم حقه. وبناء على هذا فان ابراز القوة العظمى والقدرة الكبرى امام الظالمين والمتجاوزين سيسلبهم الجراة ويردعهم عن التجاوز والتعدى على حقوق الاخرين، وتتجلى تلك القدرة الالهية من خلال تعذيب المعاندين والمسيئين وتكريم الصالحين وتبشيرهم باحسن الثواب وافضل الجزاء يوم القيامة وعند قيام الساعة بعد الموت. ومن هنا فقد بدا الدين الجديد دعوته فى مكة بتهديد الظالمين بعذاب جهنم وتبشير الصالحين المخلصين بالجنة وحسن الثواب، وقد جاءت الايات المكية مشحونة بالوعد والوعيد من جانب وبالبشرى والجنة ونعيمها من جانب آخر، ولهذا كان كفار مكة يسخرون كثيرا من التذكير بالبعث والنشور وما يجد الانسان بعد الموت من الجنة او النار، وكانوا يهزاون بذلك كما تشير آيات مكية عديدة ويكررون القول: كيف يحيى العظام وهى رميم؟! (وقالوا ءاذا كنا عظاما ورفاتا ءانا لمبعوثون خلقا جديدا) «الاسراء: ۴۹». فيجيبهم الوحى القرآنى بقوله: (قل كونوا حجارة او حديدا، او خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا) «الاسراء: ۵۰- ۵۱». ونظير هذه الاسئلة والاجوبة كثير فى القرآن الكريم، حيث تنبى كثرة التهديد والوعيد بقيام الساعة عن الحاح الكفار فى السؤال عن موعد هذا اليوم ومتى ستحل تلك الساعة التى يحذرون منها. وتجدر الاشارة هنا الى ان اخبار القرآن الكريم عن قرب‌الساعة ودنو الاجل لا يعنى القرب والبعد الزمانى الذى يتبادر للاذهان، فعمر الانسان لا يعنى شيئا بالنسبة الى عظمة الخلق وعمر العالم المادى. واذا ما تحدث القرآن عن قرب الساعة واقتراب اليوم الموعود، فان المراد القرب والبعد المقارنان بالزمان ككل وبعمر العالم اجمع، والساعة هذه، اى الموعد الذى تنتهى عنده الدنيا، قريبة جدا فى نظر الصانع جل شانه، وان كانت تبدو بعيدة جدا، بل غير قابلة للتصور، بالنسبة الى الانسان الترابى الذى يعيش على هذا الكوكب البسيط المحدود. وبناء على هذا فان التهديد بقرب الساعة وانشقاق القمر وانتشارالنجوم واندكاك الارض، لا يقصد بها المعنى النسبى الذى هو قريب جدا اذا ما قيس بعمر العالم، وبعيد جدا بالنسبة الى الاعمار العادية المحدودة.

الاستهزاء

لقد قابلت قريش تهديدات الرسول (ص) وتحذيراته اياها بالاستهزاء والاستخفاف، وهذا ما اشارت اليه بعض الايات القرآنية الكريمة: (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا...) «الانبياء: ۳۶» (واذا راوك ان يتخذونك الا هزوا اهذا الذى بعث اللّه رسولا) «الفرقان: ۴۱» (ذلكم بانكم اتخذتم آيات اللّه هزوا) «الجاثية: ۳۵».

رد فعل قريش

لقد ضاقت قريش ذرعا بالدعوة الاسلامية ولم تستطع احتمالها، لخوفها من زوال مركزها وضياع ما حصلت عليه مدينتها (مكة) من موقع تجارى ودينى خاصين، او لانهاشعرت باستفزاز صارخ لمشاعرها الدينية، او بسبب الحسد والخصومات القبلية والتعصب العشائرى، وقد ازدادوا خوفا واضطرابا عندما لاحظوا تزايد اعداد الضعفاء والمستضعفين الذين اخذوا يعتنقون الدين الجديد. فعكفوا يبحثون عن طريقة للحل، ولم يكن من السهل الحاق الاذى والاضطهاد بشخص ذى عشيرة قوية ضمن النظام القبلى الذى كان سائدا آنذاك، وكان مثل هذا العمل يتطلب مشورة وعونا من اشراف القوم واهل الراى فيهم، والا فسيهب قوم ذلك الرجل لنصرته والاقتصاص من خصمه، وقد يؤدى الامر الى نزاع دموى لايعلم احد مداه. وتبدو المسالة فى مكة اكثر تعقيدا، حيث تتجاور بطون قريش‌المختلفة هناك، ويحتك بعضها ببعض يوميا، فلا مجال لهرب شخص او اختفائه اذا ما ارتكب جرما معينا، فالخائف عندما يفر يلجا الى قبيلة نائية تسكن فى الصحراء بعيدا عن موطنه الاصلى، وفى مثل هذه الحالة تطول المدة حتى تنهيا القبيلة التى كان قد

اعتدى عليها وتصل الى ملجئه وملاذه عند القبيلة المجيرة، وهذا ما كانت تفتقد اليه مكة المكتظة ببطون قريش المختلفة والتى تتجاور فى مساكنها. فاى نزاع يمكن ان يؤدى الى اشتعال النار فى المدينة باكملها ويورث خصومة دائمة، ومثل هذا الوضع كانت تعيشه يثرب هى الاخرى، اضافة الى ذلك كانت الاحلاف، كحلف المطلبين وحلف الفضول، تنقل النزاع من دائرة القبيلتين المتنازعتين الى دائرة اوسع، هى دائرة الاحلاف او القبائل العديدة المتحالفة فيما بينها التى تشهر كل منها سيفها للدفاع عن الجماعة المتحالفة معها ضد الجماعة الاخرى داخل الحلف الاخر، وحين اعلن الرسول (ص) دعوته وافصح عن انتقاده وذمه لاشراف قريش واسلافها وما جروا عليه من سنن الضلال والغى، وهاجم (ص) اصنامهم وتقاليدهم الجاهلية، وسفه احلامهم وآلهتهم واعتقاداتهم، وقفت قريش قلقة على مصيرها، تحاول جاهدة دفع الخطر عن نفسها، ولكنها لم تستطع للاسباب السابقة الانفراد برسول اللّه (ص) والحاق الاذى به، فذهبت مضطرة الى بنى هاشم تعرض الامر عليهم وتطالبهم باقناع الرسول (ص) بالكف عن سب آبائهم ومهاجمة عقائدهم والا فسيستعينوا بهم اى ببنى هاشم على ايذائه وطرده او حتى قتله والخلاص منه، وكانت زعامة بنى هاشم منعقدة آنذاك لابى طالب، وقد لمع فى بنى هاشم ثلاث شخصيات مرموقة، وهم فيما عدا الرسول (ص) ابوطالب وابولهب وحمزة، وكان ابو طالب اكثرهم وقارا وهيبة لكبر سنه، غير انه كان فقير الحال فى حين كان ابو لهب على قدر كبير من الثراء، بشهادة القرآن الكريم: (ما اغنى عنه ماله وما كسب) «المسد: ۲»، وكان بعرف المقاييس الجاهلية من اجلة القوم واشرافهم. اما زوجته ام جميل فكانت من عائلة بنى امية ذات القوة والنفوذ، وامتاز حمزة بشجاعة خاصة جعلت الجميع يهابونه ويقدرونه، رغم انه كان بعيدا على ما يبدو عن الشؤون السياسية والاجتماعية لمدينته، حيث كان يقضى اكثر اوقاته بالصيد ولم يعر فى البداية اهتماما خاصا لابن اخيه ورسالته. لقد ناصب ابولهب رسول اللّه (ص) العداء منذ البداية، واعلن حربه على الدعوة الاسلامية منذ اللحظات الاولى، وبناء على هذا كان ابو طالب هو الرجل الوحيد من بنى هاشم الذى كان بامكانه توفير الحماية لرسول اللّه (ص)، او تركه بيد المعارضين والتخلى عنه. لقد اختار ابوطالب الموقف الاول، ووقف بكل شهامة الى جانب ابن اخيه، الامر الذى جعل اشراف قريش يرجعون اليه فى امر محمد (ص) ويجلسون معه للتحدث بهذا الشان، حيث قائلين: «يا ابا طالب، ان ابن اخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه احلامنا، وضلل آباءنا، فاما ان تكفه عنا، واما ان تخلى بيننا وبينه، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه». فقال لهم ابوطالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه، ومضى رسول اللّه (ص) على ما هو عليه يظهر دين اللّه ويدعو اليه. ثم شرى الامر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، واكثرت قريش ذكر رسول اللّه (ص) بينها وتذامروا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه، ثم انهم مشوا الى ابى طالب مرة اخرى، فقالوا: «يا ابا طالب، ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وانا واللّه لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، او ننازله واياك فى ذلك حتى يهلك احد الفريقين»، ثم انصرفوا عنه. فعظم على ابى طالب فراق قومه وعداوتهم له، ولم يطب نفسا باسلام رسول اللّه (ص) لهم ولا خذلانه. وقدت [۲۲۰] كرر هذا الجدل وتلك المناظرات مراتومرات، يذكرها الطبرى فى تاريخه فى الموضع السابق، الىالحد الذى طلب معه ابوطالب الى ابن اخيه ان يلاحظ حاله وما هو عليه من الحرج، قائلا له: «يا ابن اخى، ان قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا، فابق على وعلى نفسك، ولاتحملنى من الامر ما لا اطيق». فظن رسول اللّه (ص) انه بدالعمه فيه بداء، وانه خاذله ومسلمه، وانه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. فقال رسول اللّه (ص): «يا عماه، واللّه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان اترك هذا الامر حتى يظهره اللّه او اهلك فيه ما تركته». ثم استعبر رسول اللّه (ص) فبكى، ثم قام، فلما ذهب ناداه ابوطالب، فقال: «اقبل يا ابن اخى». فاقبل عليه رسول اللّه (ص) فقال: «اذهب يا ابن اخى فقل ما احببت، فواللّه لا اسلمك لشىء ابدا». ثم ان قريشا لما عرفت ان اباطالب ابى خذلان رسول اللّه (ص) واسلامه، واجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم مشواليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا اباطالب، هذا عمارة بن الوليد انهر فتى فى قريش واشعره واجمله، فخذه فلك عقله ونصرته، واتخذه ولدا فهو لك، واسلم لنا ابن اخيك، هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه احلامهم، فنقتله، فانما رجل كرجل». فقال: «واللّه لبئس ما تسومونني، اتعطونى ابنكم اغذوه

لكم، واعطيكم ابنى تقتلونه؟! هذا واللّه ما لا يكون ابدا». فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: «واللّه يا اباطالب، لقد انصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما اراك تريد ان تقبل منهم شيئا». فقال ابوطالب للمطعم: «واللّه ما انصفونى، ولكنك قد اجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك». فحقب الامر عند ذلك، وحميت الحرب، وتنابذ القوم، وبادىء بعضهم بعضا، ثم ان قريشا تذامروا على من فى القبائل من اصحاب رسول اللّه (ص) الذين اسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع اللّه رسوله (ص) منهم بعمه ابى طالب، فقد قام ابو طالب حين راى قريشا تصنع ما تصنع فى بنى هاشم، فدعاهم الى الزود عن رسول اللّه (ص) والقيام دونه، فاجتمعوا اليه وقاموا معه، واجابوه الى ما دعاهم اليه من الدفاع عن رسول اللّه (ص) الا ما كان من ابى لهب، فلما راى ابوطالب من قومه ما سره من وقوفهم معه وحدبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر فضل رسول اللّه (ص) فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رايهم. [۲۲۱] .

روايهٔ عروهٔ بن الزبير

هناك روايهٔ لعروهٔ بن الزبير الذى يعتقد انه اقدم مدون لسيرهٔ الرسول (ص)، ينقلها الطبرى فى تاريخه، [۲۲۲] قال عروهٔ فى رسالهٔ بعثها الى عبد الملك بن مروان حول سيرهٔ الرسول (ص): «اما بعد، فانه (يعنى رسول اللّه (ص) لما دعا قومه، لما بعثه اللّه له من الهدى والنور الذى انزل عليه، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامهٔ الناس فتركوه الى من حفظه اللّه منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر اللّه ان يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين اللّه من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنهٔ شديدهٔ الزلزال على من اتبع رسول اللّه (ص) من اهل الاسلام، فافتتن من افتتن، وعصم اللّه منهم من شاء، فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول اللّه (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشهٔ». وسياتى الحديث عن بقيهٔ الروايهٔ فى قصهٔ الهجرهٔ الى الحبشهٔ، غير ان الذى نراه مهما هنا هو ذلك المقطع من الروايهٔ الذى يقول: «حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم اموال، انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، واغروا به من اطاعهم، فانصفق عنه عامهٔ الناس». تشير هذه الروايهٔ الى ان اثرياء قريش وتجارها الذين لم تذكر الروايهٔ اسماءهم كانوا يوظفون اموالهم ويستثمرونها فى اعمال تجاريهٔ فى الطائف، ويعتقد ان هؤلاء التجار كانوا اثرى اهل مكهٔ. والمقطع الاخر من الروايهٔ الذى يؤكد عدم ارتياح هؤلاء لدعوهٔ الرسول (ص)، وخوفهم من تفرق الناس عنهم، وذهاب مكانتهم، وتزلزل موقعهم، بتحول عامهٔ الناس الى الرسول (ص) وانجذابها الى حديثه وحسن خطابه، وفيما لو انتشرت هذه الدعوهٔ واشتد عودها وقويت شوكهٔ الدين الجديد فلن يكون بمقدورهم بعد هذا استغلال المستضعفين. ويؤيد هذا المقطع من روايهٔ عروهٔ الكلام الذى سقناه فى الاستدلال بالايات القرآنيهٔ الشريفهٔ وبموجب ذلك قال الكفار (ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا).

قريش تناظر و تطلب الدلائل و المعجزات

تصور الايات (۹۰- ۹۶) من سورهٔ الاسراء قصهٔ حوار قريش وعنادها ومناظراتها مع رسول اللّه (ص): (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا، او تكون لك جنهٔ من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتى باللّه والملائكهٔ قبيلا، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا، وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث اللّه بشرا رسولا، قل لو كان فى الارض ملائكهٔ يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا، قل كفى باللّه شهيدا بينى وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا). وقد كان جوابا منطقيا... (هل كنت الا بشرا رسولا..) ولو (كان فى الارض ملائكهٔ يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) اى ينبغى ان يكون الرسل من جنس من ارسلوا اليهم المرسل اليهم، ولو ان اللّه ارسل للكافرين ملائكهٔ لقالوا لا نؤمن لهؤلاء الملائكهٔ حتى يرسل

لنا اللّه بشرا مثلنا. وعلى ايـة حال فان جواب الرسول عن حقيقة ان الانبياء والرسل يرجعون الى عقول الناس ووجدانهم فى تمييز العالم من الجاهل والمسيء من المحسن، والا لن يكون هناك اى معنى للاختبار والامتحان اذا كانت الامور كلها تجرى بالايات والمعجزات. ان طبيعة الانسان تقتضى انذاره وتحذيره، فان استجاب لهذا التحذير وانتصر على هواه ونزعاته الذاتية، فسيكون قد اثبت انسانيته وكتب له الفوز والنجاح فى هذا الامتحان، والافالعلامات والمعجزات لا تتوافق مع الامتحان والابتلاء. وعلى كل حال، فكما ان عقل الانسان وضميره بمثابة الرسول والمبعوث الالهى الذى اودعه اللّه داخل النفس الانسانية، كذلك الانبياء والرسل ما هم الا بمثابة وجدان اخلاقى على مستوى المجتمع والامة، فان غلب العقل الفردى وهزم امام الهوى والنزعات النفسية، فسيكون من وظيفة العقل الاجتماعى، الذى هو الرسول، تنبيهه وايقاظه من غفلته، وذلك بارشاده الى الصواب، وتحذيره من الركون الى هوى النفس ووساوسها الشيطانية، ولو استجاب قوم عاد وثمود وصالح ولوط الذين ذكرهم القرآن الكريم لدعوة انبياء اللّه ورسله لما هلكوا، فارسال الرياح وتسخير العواصف وانزال المطر ورميهم بالحجارة واخذهم بالطوفان والسيول وتدمير منازلهم، كل ذلك لا يراد به المعانى الحرفية التى تحمل عادة على انها آفات وكوارث دنيوية، بل المراد بها والحاق المفاسد والمهالك بالمجتمع نتيجة عدم استجابة هؤلاء الاقوام لنداء العقل والوجدان الذى هتف به انبياء اللّه ورسله، وقد وردت فى القرآن الكريم امثلة كثيرة على ذلك، كما ان هناك آلاف الادلة التاريخية التى تثبت هذا المعنى.

ذيل رواية عروة بن الزبير

كتب عروة فى رسالته الى الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان يقول: «ائتمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين اللّه من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم.. فلما فعل ذلك بالمسلمين امرهم رسول اللّه (ص) ان يخرجوا الى ارض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى، لا يظلم احد بارضه، وكان يثنى عليه مع ذلك صلاح، وكانت ارض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغا من الرزق وامنا ومتجرا حسنا، فامرهم بها رسول اللّه (ص)، فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن، فمكث هو فلم يبرح، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من اسلم منهم، ثم فشا الاسلام فيها، ودخل فيها رجال من اشرافهم».

الهجرة الى الحبشة و اسبابها

اشاره

يتضح من رواية عروة بن الزبير، التى تتجلى فيها آثار الاصالة، ان كفار قريش كانوا قد عقدوا العزم على ان يثنوا المسلمين عن اسلامهم ويردوهم الى دين آبائهم باى شكل من الاشكال، وقد سلكوا السلوك نفسه الذى سلكه ابوجهل. قال ابن هشام فى سيرته: [۲۲۳] «كان ابو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال قريش، اذا سمع بالرجل قد اسلم، وله شرف ومنعة، انبه واخزاه، وقال: تركت دين ابيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن رايك، ولنضعن شرفك، وان كان تاجرا قال: واللّه لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وان كان ضعيفا ضربه واغرى به»، وبذلك اضطر الرسول (ص) الى ان يامر بعضا من اتباعه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من اذى قريش، ويكونوا فى مامن من ذلك. يطرح مونتغمرى وات فى كتابه (محمد فى مكة) آراء ل (كايتانى) وآخرين غيره حول هجرة المسلمين الى الحبشة، احد هذه الاراء ما ينقله (وات) عن (كايتانى) من ان: السبب الاول لعدم قبول الهجرتين ان ابن اسحاق، كما يقول ابن هشام والطبرى، لا يقول صراحة بوجود هجرتين. فهو يقول: وكان اول من خرج من المسلمين. ثم يذكر قائمة صغيرة ويردف قائلا: ثم خرج جعفر بن ابى طالب وتتابع المسلمون. لانلاحظ ذكر اى جماعة عادت لتهاجر من جديد مرة ثانية، ونلاحظ من ناحية ثانية ان القوائم لا تتبع نظام الرحيل الى الحبشة، بل تتبع تنظيما يقوم على المكانة، حيث نجد ذكر الاسم حسب سجل الخلافة

الذى اخذت منه، نقرا فيها ان اول من وصل الى الحبشة هو (ابو سبرة) وان (عمر بن سعيد بن العاص) هاجر بعد سنتين من هجرة اخيه خالد. تدل هذه الامثلة كما تدل كلمة «تتابع» انه لم يكن هناك جماعتان كبيرتان بل جماعات صغيرة. ويضيف وات انه بعد ان اصبحت الهجرة احد الامتيازات المهمة للحصول على اعطيات اكثر، فقد كثر من ادعاها، يقول: «عدل الخليفة عمر فى السنة ۱۵ للهجرة النظام الذى كان المسلمون يتقاضون بموجبه اعطيات سنوية من بيت المال تقديرا لخدماتهم فى القتال او فى الادارة، وهذه الاعطيات تختلف باختلاف تاريخ اعتناق الاسلام، ذلك لان المسلمين الاوائل كانوا يتقاضون اكبر الاعطيات، وقد اصبحوا حسب النظام الجديد فى ارفع الطبقات بعد زوجات الرسول واقربائه... وكل من برهن على قيامه بهجرة او هجرتين ينال شرفا رفيعا يؤهله لاحتلال ارفع درجات النبل فى الاسلام. ويضيف وات قائلا: قرر محمد فى السنة السابعة للهجرة ان يقوى مركزه بالاعتماد على تاييد الجماعة الصغيرة فى الحبشة، فارسل اليهم رسولا- يعدهم بالاستقبال الحار ويصحبهم فى طريق العودة، فعادوا او عاد قسم منهم فاستقبلوا استقبالا حافلا- ونالوا جزءا من فيء خيبر التى استولى عليها محمد- لتوه». ويتابع قائلا: ولربما اطلق لفظ الهجرة على مغامرة الحبشة فى هذا الوقت على يد محمد نفسه اعترافا بموقف جعفر الكريم وصحبه، واصبح يحق لهم بسبب هجرتهم الى الحبشة ان يعاملوا كمهاجرين، وان يكونوا اندادا للذين اعطواهذا اللقب. [۲۲۴] .غير اننى لا- اعتقد بصحة ذلك، لان سورة النحل وهى سورة مكية تقول: (والذين هاجروا فى اللّه من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون) «النحل:۴۱». ومعلوم ان الهجرة المشار اليها ليس الهجرة الى المدينة، وانما الهجرة الى الحبشة لان الاية مكية، (وقد اشير الى هذا المعنى ايضا فى تفسير الطبرى، وبناء على هذا فان السفر الى الحبشة قد اطلق عليه فى مكة (الهجرة) وقد ذكر هذا المعنى ايضا فى القرآن الكريم). اما بشان الهجرتين الى الحبشة، فيجب القول ان هذا صحيح خلافا لما يرى (كايتانى). يقول (كايتانى) و (وات): «ان هذا المعنى لم يذكر صراحة فى سيرة ابن هشام»، بمعنى ان محمد بن اسحاق لم يذكره، لكنهما كانا لا يملكان طبعة القرويين (سيرة محمد بن اسحاق). وقد لخص ابن هشام السيرة المذكورة وحررها طبقا لرواية زياد بن عبداللّه البهائى، اما نسخة القرويين فكانت طبقا لرواية يونس بن بكير عن محمد بن اسحاق، كما ان رواية الطبرى لسيرة محمد بن اسحاق كانت بطريق (ابن حميد وسلمة). جاء فى سيرة محمد بن اسحاق برواية يونس (نسخة القرويين) عند ذكره لاسماء من هاجر الى الحبشة: «وكان ممن هاجر من مكة الى ارض الحبشة قبل هجرة جعفر واصحابه..». ويتضح من العبارة السابقة ان هناك مجموعتين مستقلتين هاجرتا الى الحبشة، كانت الثانية بقيادة جعفر بن ابى‌طالب. وجاء فى سيرة ابن هشام بعد استعراضه لاسماء المهاجرين العشرة الاوائل قوله: «فكان هؤلاء العشرة اول من خرج من المسلمين الى ارض الحبشة فيما بلغنى» ويضيف ابن هشام قائلا: «وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لى‌ب عض اهل العلم». ومن هنا يتضح ان هناك مجموعتين منفصلتين هاجرتا الى ارض الحبشة، كانت الاولى بقيادة عثمان بن مظعون، بينما اسندت قيادة المجموعة الثانية الى جعفر بن ابى طالب اخى اميرالمؤمنين على بن ابى طالب (ع). وفضلا عن هذا، كان هناك من عاد من ارض الحبشة الى مكة بعد ان سمع الاخبار الكاذبة عن ايمان كفار قريش، ثم ما لبث ان رجع الى الحبشة حين اكتشف عدم صدق تلك الاخبار، وقد اطلق على هذه العودة الهجرة الثانية. لكن التحقيق فى الروايات يظهر ان المقصود بالهجرة الثانية انما هو هجرة مجموعة ثانية بقيادة جعفر بن ابى طالب وقد انضمت اليها تلك الجماعة العائدة، والدليل على هذا ما رواه ابن‌سعد [۲۲۵] عن ام خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، قالت: «كان ابى خامسا فى الاسلام، قلت: فمن تقدمه؟ قالت:ابن ابى طالب، وابن ابى قحافة، وزيد بن حارثة، وسعد بن ابيوقاص، واسلم ابى قبل الهجرة الاولى الى ارض الحبشة، وهاجر فى المرة الثانية، واقام فيها بضع عشرة سنة». وعند مراجعة سيرة ابن هشام لا نجد اسم خالد بن سعيد بين اسماء المهاجرين العشرة الاوائل فى الهجرة الاولى بينماورد اسمه فى قائمة اصحاب الهجرة الثانية. [۲۲۶] .وورد اسم عثمان بن عفان مرتين: مرة مع المهاجرين فى الهجرة الاولى، ومرة مع المهاجرين فى الهجرة الثانية. وقد صرح ابن سعد فى طبقاته [۲۲۷] عند ذكره الهجرة الاولى، والهجرة الثانية قائلا: «لما قدم اصحاب النبى (ص) مكة من الهجرة الاولى اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم اذى شديدا، فاذن لهم رسول اللّه (ص) فى الخروج الى ارض

الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الاخرة اعظمها مشقة»، ثم يقول: «قال عثمان بن عفان: يا رسول اللّه، هجرتنا الاولى وهذه الاخرة الى النجاشى، ولست معنا؟ فقال رسول اللّه (ص): انتم مهاجرون الى اللّه والى، لكم هاتان الهجرتان جميعا. قال عثمان: فحسبنا يا رسول اللّه». وقد سبقت الاشارة الى ان ابن هشام ذكر الهجرة الى الحبشة كما ذكر الاحداث الاخرى بتلخيصه لسيرة ابن اسحاق، ولم يستطع اعطاء صورة كاملة عن الهجرة الى الحبشة واسماء المهاجرين فى الهجرتين، كما ان نسخة القرويين ناقصة ايضافهى لا تحتوى على تفاصيل الهجرتين، ولكننا نعلم من مصادر اخرى ان ابن اسحاق ذكر الهجرتين بشكل صريح، فمن المحتمل جدا ان يكون المهاجرون فى الهجرة الاولى هم العشرة الواردة اسماؤهم فى قائمة ابن هشام، وكانوا طبقا لروايته بقيادة عثمان بن مظعون. اما القائمة الثانية الطويلة التى وردت فى سيرة ابن هشام، فانها متضمنة اسماء المهاجرين فى الهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وقد كان عثمان بن مظعون، الذى قاد المهاجرين فى الهجرة الاولى، حاضرا ايضا فى الهجرة الثانية التى كانت بقيادة جعفر بن ابى طالب. اما المصدر الاخر الذى ينقل عن سيرة ابن اسحاق فهو طبقات ابن سعد، وبناء عليه فان ابن اسحاق اشار بشكل صريح الى الهجرة الاولى والثانية. يقول ابن سعد فى ترجمة عبداللّه بن مسعود: [۲۲۸] «هاجر عبداللّه بن مسعود الىارض الحبشة الهجرتين جميعا فى رواية ابى معشر ومحمدبن عمر، ولم يذكره محمد بن اسحاق فى الهجرة الاولى، وذكره فى الهجرة الثانية». وهكذا فانه لم يرد فى سيرة ابن هشام اسم (المقداد بن عمر) او (المقداد بن الاسود) فى قائمة العشرة ممن هاجروا الى ارض الحبشة، بينما ورد فى القائمة الثانية الطويلة. وجاء فى طبقات ابن سعد: [۲۲۹] «هاجر المقداد الى ارضالحبشة الهجرة الثانية فى رواية محمد بن اسحاق ومحمد بنعمر، ولم يذكره موسى بن عقبة ولا ابو معشر». وما ذلك الادليل على ان نسخة سيرة محمد بن اسحاق كانت قد ذكرت (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانية) صراحة غير ان ابن هشام اسقطها فى تلخيصه، او انه لم يصرح بها فى روايته. على اية حال فان (الهجرة الاولى) و (الهجرة الثانية) كانتا قدذكرتا منذ القدم حتى فى رواية محمد بن اسحاق. يقول ابن سعد فى ترجمته لعثمان بن مظعون: [۲۳۰] «قالوا: وهاجر عثمان بن مظعون الى ارض الحبشة الهجرتين جميعا فى رواية محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر». ولا تعنى كلمة (قالوا) التى وردت فى الرواية ان ابن سعد سمع رواية محمد بن اسحاق او نقلها عن الاخرين، بل تعنى ان القول قطعى ومحقق. فمن المسلم به ان ابن سعد كان قد سمع سيرة محمد بن اسحاق وكانت تحت يده. فقد روى ابن سعد سيرة محمد بن اسحاق عن طريق ابراهيم بن سعد بن ابراهيم الزهرى. وبناء على هذا، فان كلام مونتغمرى وات [۲۳۱] الذى يقول: «ونشعر من قراءة سيرة ابن اسحاق انه وجد، لبعض الوقت، قائمتان باسماء المهاجرين للحبشة، وانه هو نفسه لم يكن واثقا من صحة القائمتين». وقد راينا نحن عن طريق رواية محمد بن سعد كاتب الواقدى ان ابن اسحاق كان قد صرح بالحقيقة، لكن ابن هشام حذف ذلك ولخصه، وكذلك الطبرى فانه بعد ان ذكر اسماء المهاجرين العشرة الاول (اول من خرج من المسلمين) عن طريق محمد بن اسحاق قال: قال محمد بن اسحاق: ثم خرج جعفر بن ابى طالب وتتابع المسلمون..» ومن هنا يتضح ان الطبرى قام هو الاخر باختصار كلام ابن اسحاق، والا لم يقل: «قال». واساسا لا مبرر لقوله: «ثم خرج جعفر بن ابى طالب» بعد ذكره لاسماء المهاجرين العشرة الاوائل. وقال بعد ذلك: «ثم عد اى ابن اسحاق بعد ذلك تمام اثنين وثمانين رجلا بالعشرة الذين ذكرت اسماءهم». ويمثل هؤلاء ال (۸۲) رجلا- مجموع المهاجرين فى الهجرة الثانية، وكان من ضمنهم العشرة الاوائل اصحاب الهجرة الاولى التى كانت بقيادة عثمان بن مظعون، فانهم كانوا قد عادوا الى مكة بعد ان سمعوا خبر اسلام اهل مكة الكاذب، ثم رجعوا مع من هاجر الى الحبشة، وكان جعفر بن ابى طالب هو قائد المهاجرين هذه المرة. وجاء فى طبعة (نسخة القرويين) البند (۲۸۱) ما نصه: «فلما اشتد البلاء وعظمت الفتنة، تواثبوا على اصحاب رسول اللّه (ص) وكانت الفتنة الاخيرة التى اخرجت من كان هاجر من المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم الى ارض الحبشة..» ولم يوضع البند (۲۸۱) فى موضعه الواقعى فى طبعة نسخة القرويين، فقد كان عنوانه (حديث الهجرة الاولى الى الحبشة) فى حين ان الموضوع مرتبط بالهجرة الثانية.

الهجرة الى الحبشة

وردت اشارة فى رواية عروة بن الزبير التى نقلناها فيما سبق الى ان الحبشة كانت واحدة من البلدان التى تعاملت معها قريش فى التجارة، وقصدها القرشيون لهذا الغرض. اذا كان المهاجرون على معرفة باوضاع الحبشة، ولهذا كانت انسب من غيرها لان تنتخب مكانا للهجرة، ولم تكن مدينة يثرب حينذاك قد بلغت الاوضاع فيها تلك الدرجة من الاطمئنان التى كانت قد بلغتها بعد عدة سنوات حين قصدها الرسول (ص) والمسلمون عند الهجرة، ولم يكن باستطاعتهم ان ينعموا بالامن هناك. وكانت الطائف مدينة تربطها علاقات وثيقة جدامع اثرياء قريش، كما ان آلهتها قد تعرضت للهجوم والاستهزاء من قبل الرسول (ص). اضف الى ذلك ان الهجرة الى بلاد الامبراطورية الفارسية او الرومانية لم تكن مناسبة باى وجه من الوجوه. فكانت الحبشة فضلا عما ذكرنا اقرب من غيرها الى مكة عن طريق البحر من جانب، ومن جانب آخر يحتمل انلا يكون ملك الحبشة واهلها على قدر كبير من التعصب الدينى، ولهذا كله كانت انسب للهجرة من اى مكان آخر. وقدجاء فى سيرة ابن اسحاق ان الرسول (ص) قال: «لو خرجتم الى ارض الحبشة، فان فيها ملكا لا يظلم احد عنده، وهى ارض صدق».

سبب الهجرة

اعتقد ان اسباب الهجرة هى نفسها الاسباب التى ذكرتها الروايات، والتى تتلخص فى سعى الرسول (ص) الى تجنيب اصحابه الاذى والاستهزاء والملاحقة من قبل قريش ولو لفترة معينة، ريثما يتكاثر عددهم ويصبح الوضع اكثر امنا وسلاما للقيام بالنشاطات الاسلامية المطلوبة فى الدعوة والتبليغ للرسالة الجديدة. وذهب (مونتغمرى وات) الى الاعتقاد بان سبب الهجرة الحقيقى هو محاولة الرسول (ص) رفع الاختلاف الذى حصل بين مجموعتين من المسلمين، يتزعم احداهما عثمان بن‌مظعون، بينما يتزعم الثانية ابوبكر، فامر رسول اللّه (ص) المجموعة الاولى بالهجرة الى الحبشة. ان سببا كهذا الذى يراه (وات) يحتاج الى مزيد من الادلة، اذانه من المحال ان ينشا مثل هذا النزاع الذى يقسم المسلمين الى مجموعتين فى ظل زعامة الرسول (ص) التى ليس لها منازع، ولو فرضنا حصول مثل هذا الانقسام بين تلك الجماعة الصغيرة التى تعرضت لشتى صنوف التعذيب من التنكيل والحاق الاذى والتهم والملاحقة من قبل كفار قريش، فسيكون من السهل معالجة ذلك بآية قرآنية تحذر من الانقسام وتدين الجهة المخالفة للرسول (ص)، وليس ثمة آية فى القرآن الكريم تتحدث حول هذا الموضوع. وربما اراد الرسول (ص) من الهجرة الى الحبشة امورا اخرى غير الابتعاد عن اذى كفار قريش، كايجاد قاعدة للنفوذ الاسلامى هناك واستخدامها ضد الاعداء كما يرى بعض المستشرقين والعمل على تهديد تجارة قريش الحيوية والمهمة جدا مع الحبشة، وتحويل مخاوف قريش وهو اجسها التى تتحدث عنها الاية الشريفة: (نتخطف من ارضنا) الى واقع عملى. اما السؤال عن الاسباب التى دعت الى هجرة جماعة من المسلمين وبقاء جماعة اخرى، فلا نملك له جوابا ناجعا، سوى ان ذلك من المسائل المرتبطة بظروف المسلمين واوضاعهم الخاصة، وهذا ما لا تتحدث عنه الروايات ولم تاتعلى ذكره، على ان المسلمين لا يمكنهم الهجرة جميعا وترك الرسول (ص) وحده، وليس بمقدورهم مخالفة رغبته فى بقاء مجموعة منهم معه، رغم جهلنا بالاسباب التى اوجدت عنده مثل هذه الرغبة. واذا ما تابعنا المهاجرين الى الحبشة لتقصى اخبارهم والاطلاع على سبل معايشهم والطرق التى كانوا يؤمنون بواسطتها نفقاتحياتهم اليومية خلال تلك المدة الطويلة التى قضوها هناك، فاننا نجد فى رواية عروة اشارة الى ذلك اثناء الحديث عن تجارة قريش مع الحبشة، بحيث يمكن القول ان تمرس القرشيين بالتجارة واضطلاعهم بها، جعلهم قادرين على تامين حياتهم حتى فى المهجر من خلال المتاجرة والكسب. وربماكان المهاجرون الذين قضوا فترة اطول فى المهجر اكثر نجاحافى تجارتهم من اولئك الذين عادوا قبلهم. هناك رواية اوردها البلاذرى [۲۳۲] تقول: «ان ابا طالب كان يمول جعفر بن ابى طالب بالمال اللازم حتى وفاته». وحتى مع صدق هذه الرواية فانه كان لابد لجعفر من مصدر يدر عليه ما يؤمن نفقاته خلال الفترة التى قضاها هناك بعد وفاة ابيه. ويحتمل ان يكون ملك الحبشة هو الممول والمسؤول عن حياة المهاجرين طيلة وجودهم فى مملكته

وتحت حكمه باعتبارهم فى حكم اللاجئين السياسيين. ويفهم من روايات عروة ومحمد بن اسحاق ان الحبشيين لم يظهروا خلال تعاملهم مع الاديان الاخرى نوعا من الشدة والتعصب الدينى، فقد عاشت تلك المجموعة الصغيرة المهاجرة الى هناك فى امن وسلام. دامت هذه الهجرة من ثلاثة الى اربعة اشهر، فقد جاء فى رواية محمد بن اسحاق عن محمد بن عمر ان المسلمين كانواقد هاجروا الى الحبشة فى رجب من السنة الخامسة للبعثة (فى حدود سنة ۶۱۴م) وامضوا هناك شهرى شعبان ورمضان، ولم يعودوا الى مكة الا فى شهر شوال من العام نفسه، لسماعهم بسجدة قريش، التى وقعت بموجب هذه الرواية فى شهررمضان. [۲۳۳] .

قصة السجدة و الغرانيق

اشاره

روى ابن سعد فى طبقاته عن محمد بن عمر، قال: «حدثنى يونس بن محمد بن فضالة الظفرى، عن ابيه، قال: وحدثنى كثير بن زيد، عن المطلب بن عبداللّه بن حنطب، قالا: راى رسول اللّه (ص) من قومه كفا عنه فجلس طالبا فتمنى فقال: ليتهلا ينزل على شىء ينفرهم عنى! وقارب رسول اللّه (ص) قومه،فدنا منهم ودنوا منه، فجلس يوما مجلسا فى ناد من تلك الاندية حول الكعبة، فقرا عليهم: (والنجم اذا هوى) «النجم: ۱» حتى اذا بلغ (افرايتم اللات والعزى، ومنوة الثالثة الاخرى) «النجم:۱۹ - ۲۰» القى الشيطان كلمتين على لسانه: «تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى» فتكلم رسول اللّه (ص) بهما، ثم مضى فقرا السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعا، ورفع الوليد بن المغيرة ترابا الى جبهته فسجد، وكان شيخا كبيرا لايقدر على السجود، ويقال: ان ابا احيحة سعيد بن العاص اخذ ترابا فسجد عليه رفعه الى جبهته وكان شيخا كبيرا، فبعض الناس يقول: انما الذى رفع التراب الوليد، وبعضهم يقول: ابواحيحة، وبعضهم يقول: كلاهما جميعا فعل ذلك. فرضوا بماتكلم به رسول اللّه (ص)، وقالوا: قد عرفنا ان اللّه يحيى ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده، اما اذا جعلت لها نصيبا فنحن معك، فكبر ذلك على رسول اللّه (ص) من قولهم حتى جلس فى البيت، فلما امسى اتاه جبريل (ع) فعرض عليه السورة، فقال جبريل: جئتك بهاتين الكلمتين، فقال رسول اللّه (ص): قلت على اللّه ما لم يقل، فاوحى اللّه اليه: (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفترى علينا غيرهواذا لاتخذوك خليلا) الى قوله: (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) «الاسراء: ۷۳- ۷۵». ويضيف ابن سعد الى ذلك قائلا: «اخبرنا ابن عمر قال: حدثنى محمد بن عبداللّه، عن الزهرى، عن ابى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، قال: فشت تلك السجدة فى الناس حتى بلغت ارض الحبشة، فبلغ اصحاب رسول اللّه (ص) ان اهل مكة قد سجدوا واسلموا حتى ان الوليد بن المغيرة وابا احيحة قد سجدا خلف النبى (ص) فقال القوم: فمن بقى بمكة اذا اسلم هؤلاء؟ وقالوا: عشائرنا احب الينا. فخرجوا راجعين حتى اذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقواركبا من كنانة فسالوهم عن قريش وعن حالهم، فقال الركب: ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملا، ثم ارتد عنها فعاد لشتم آلهتهم وعادوا له بالشر. فتركناهم على ذلك، فائتمر القوم فى الرجوع الى ارض الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا ندخل فننظر مافيه قريش، ويحدث عهدا من اراد باهله ثم يرجع». ثم يضيف: «اخبرنا محمد بن عمر، قال: حدثنى محمد بنعبداللّه، عن الزهرى، عن ابى بكر بن عبد الرحمن، قال:دخلوا مكة ولم يدخل احد منهم الا بجوار، الا ابن مسعود فانه مكث يسيرا ثم رجع الى ارض الحبشة». وقد روى الرواية السابقة نفسها اهل السير المعتبرون عن ابىمعشر بن عبد الرحمن السندى المدنى عن محمد بن كعبالقرظى، وجاءت فى الطبرى مع اختلاف بسيط عن رواية محمد بن اسحاق، وقد ذكرناها فى اسباب نزول الايتين (۷۳،۷۴) من سورة الاسراء: (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا، ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا). وقد اورد محمد بن اسحاق نحوها فى نسخة (القرويين) برواية يونس بن بكير بن واصل الشيبانى بصورة موجزة، حيث قال: «فاقاموا حتى بلغهم ان اهل مكة قد اسلموا وسجدوا، وذلك ان سورة النجم انزلت على رسول اللّه (ص) فقراها (ص) فانصت لها كل مسلم ومشرك، حتى انتهى الى قوله: (افرايتم اللات والعزى) فاصغوا

له والمؤمنون مصدقون، وارتد ناس حين سمعوا سجع شيطان فقالوا: واللّه لنعبدهن ليقربونا الى اللّه زلفى. وعلم الشيطان بتلك الايتين كل مشرك وتكلمت بها السنتهم، وكبر ذلك على رسول اللّه (ص) حتى اتاه جبريل (ع) فشكا اليه هاتين الايتين، وما لقى من الناس بسببهما، فتبرا جبريل (ع) منهما، وقال: لقد تلوت على الناس مالم آتك به عن اللّه عز وجل، وقلت ما لم يقل لك، فحزن رسول اللّه حزنا شديدا وخاف، فانزل اللّه عز وجل تعزية له: (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته) الى قوله: (عليم حكيم).

نقد قصة الغرانيق

هناك اختلاف فى قصة الغرانيق بين تلك التى اوردها الطبرىعن طريق سلمة بروايه يونس بن بكير، وتلك التى وردت فى سيرة ابن اسحاق (نسخة القرويين)، اذ يبدو ان يونس بن بكير قد لخصها ورواها مختصرة. اما ابن هشام فقد حذف القصة تماما، ولم يات على ذكرها، وكان ذلك كما يبدو فى وقت بدا فيه المحدثون وعلماء الدين يشككون فى مضمون الروايه، ويترددون فى نقلها. فقد جاء فى صحيح البخارى تحت عنوان (ما جاء فى سجود القرآن وسنتها) نص مقتضب جدا لهذه القصة نورده فيما يلى: «... قال: قرا النبى (ص) النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه غير شيخ اخذ كفا من حصىاو تراب فرفعه الى جبهته، وقال: يكفينى هذا، فرايته بعد ذلك قتل كافرا» وجاء فى رواية اخرى فى نفس الباب: «ان النبى (ص) سجد معه بالنجم المسلمون والمشركون والجن والانس..». ورد القاضى عياض فى كتاب الشفاء الروايه نقلا وعقلا، كماردها الفخر الرازى فى تفسيره تفصيلا، بينما قال ابن حجر العسقلانى فى شرح صحيح البخارى: ان اختلاف الطرق فى نقل الروايه دليل على اصالة الروايه، وقد وردت هذه الروايه بثلاث طرق تتوفر فيها الشروط المذكورة فى تصحيح السند. لهذا لا بد من الركون الى تاويل ندفع به ما يظهر فيها من سوء وتقصير فى جلال الرسول (ص) وهذا يعنى عدم رده لاصل الروايه. ومن استبعد قصة الغرانيق وردها انما اعتمد فى رده لها علىاصول العقائد والكلام، اذ التسليم بالقصة كما نقلت وبالتفاصيل التى وردت فيها، قد يؤدى الى تجويز السهو والخطا فى اداء الرسول (ص) للرسالة لا قدر اللّه حيث تقول ان هناك جملتين نطق بهما الرسول (ص) وقد القاهما الشيطان على لسانه، ومن ثم نسخهما اللّه فيما بعد. والتسليم بهذه يؤدى كما قلنا الى تجويز صدور الخطا عن الرسول (ص) معاذ اللّه وهذا بدوره يؤدى الى نتائج خطيرة تمس اركان الدين والقرآن الكريم. اعتقد ان قصة الغرانيق كما وردت فى الطبرى تنطوى على شىء من التناقض، ومن ناحية اخرى قال ابن حجر: «ان لها اساسا من الصحة والاصالة»، ولكن لا بمعنى تصحيح ما جاء فى الروايه والعياذ باللّه من نسبة الاشتباه والسهو الى الرسول (ص) الذى نفاه القرآن بشدة واعتبر انه من المستحيل ان يتقول الرسول (ص) على اللّه شيئا او ان يوسوس له الشيطان فى تبليغ كلام اللّه، ويبدو ان رواة هذه الروايه لم يلتفتوا الى النتائج الخطيرة المترتبة عليها، ولم يدركوا ما يمكن ان تتيح لاعداء الاسلام من فرص للطعن فى دين اللّه. اما الذين عرضوا الروايه بهذا الشكل فيبدو انهم كانوا ينساقون وراء دوافع معاديه للاسلام، ويحاولون هز قواعده وزعزعة بنيانه من الاساس.ونعود الان الى التناقض والتضاد المشار اليه سابقا، والذى يعترى الروايه فقد جاء فى روايه الطبرى التى ينقلها عن محمد بن اسحاق عن محمد بن كعب القرظى «ان اللّه انزل علىرسوله (ص) سورة النجم، وكان الرسول (ص) قد تلا هذه السورة المباركة على جمع من المسلمين والمشركين حتى وصل الى قوله تعالى: (افرايتم اللات والعزى، ومنوة الثالثة الاخرى) وهنا القى الشيطان على لسانه (ص): «تلك الغرانيق العلى، وان شفاعتهن لترتجى» ويبدو ان رواة هذه القصة لم يلتفتوا الى الايتين الثالثة والرابعة من السورة المباركة ذاتها (سورة النجم) التى تقول (وما ينطق عن الهوى، ان هو الاوحى يوحى). وتمضى السورة الى ان تقول: (علمه شديدالقوى) «النجم: ۵» فكيف يمكن للشيطان ان يلقى على لسان الرسول (ص) وان ينطق الرسول (ص) بغير ما انزل عليه من القرآن مع وجود هذه التاكيدات القرآنية الشديد والصريحة النافية لاى نوع من الاشتباه والسهو مهما صغر وتضاءل؟! انمن شان هذه الروايه ان تجيز استيلاء الشيطان على الوحى الالهى فضلا عن تجويزها وقوع الرسول (ص) فى الخطا والاشتباه معاذ اللّه. وهذا امر منكر يرفضه القرآن ويشجبه

بشدة (ان هو الا وحى يوحى). وهذه نقطة لم يلتفت اليها حتى اولئك الذين ردوا هذه الرواية، فقد اعتمدوا فى رفضها على امر واحد فحسب الا وهو انها تؤدى الى اقرار وقوع الرسول (ص) فى الخطا والاشتباه. جاء فى رواية الطبرى عن محمد بن اسحاق: «ان قريشا كانوا قد فرحوا وسرهم واعجبهم ما ذكر به آلهتهم، فاصاخوا له، والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم، ولا يتهمونه على خطا ولا وهم ولا زلل، فلما انتهى الى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقا لما جاء به واتباعا لامره، وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد. ان الايات (۲۱، ۲۲، ۲۳) من سورة النجم والتى يفترض انها جاءت بعد هاتين العبارتين الشيطانيتين كانت: (الكم الذكر وله الانثى، تلك اذا قسمة ضيزى، ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم). وهذا سؤال استنكارى يستبطن الطعن بقريش ويقول: بعد ان جعلتم اللات ومناة والعزى بناتا للّه، فتلك اذا قسمة ضيزى، غير عادلة ولا متوازنة، لان وجوهكم كانت تسود من الحزن لمجرد سماعكم بخبر ولادة بنت لكم، بينما تجعلون ذرية اللّه من البنات فقط! فهل ستفرح قريش وتبتهج لهذا الطعن والقدح الذى كالتهما لها السورة المباركة هل تسر قريش وتقول: ان محمدا ذكر آلهتها بخير؟! وهى تسمع القرآن الكريم ياتى على ذكر آلهتها ثم لا يعتبرها اكثر من اسماء ليس الا: (ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم)؟! جاء فى هذه الرواية ايضا: ان الرسول (ص) كان قد حزن عند ذلك حزنا شديدا، او خاف من اللّه خوفا كثيرا، فانزل اللّه عز وجل، وكان به رحيما، يعزيه ويخفف عنه، ويخبره انه لم يك قبله نبى ولا رسول تمنى كما تمنى ولا احب كما احب، الا والشيطان قد القى فى امنيته كما القى على لسانه (ص)، فنسخ اللّه ما القى الشيطان واحكم آياته (وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته). يبدو ان راوى هذه الرواية نسى ان هذه الاية هى من سورة الحج، وسورة الحج مدنية، او على الاقل انها نزلت على رسول اللّه (ص) بين مكة والمدينة طبقا لبعض المصاحف واذا فهناك فترة زمنية مقدارها على الاقل خمس او ست سنين بين قصة الغرانيق ونزول سورة النجم. ويلاحظ فى الايتين السابقتين من سورة الحج الطول المعهود فى الايات المدنية، اذن كيف يترك اللّه تعالى رسوله (ص) فى حزن واسى طيلة خمس او ست سنوات، ثم ينزل عليه ما يعالج به مسالة قد عفا عليها الزمن؟!. وكلمة النسخ التى وردت فى الاية لا يقصد بها النسخ المصطلح عليه، من تبديل حكم مكان حكم وآية بدل آية، اذلم تكن الجملتان الشيطانيتان آيتين حتى يقال انهما قد نسختا. فصريح الاية الشريفة ان الشيطان يحاول ان يدخل على امانى الرسل ويتسلل عبرها الى ساحتهم المقدسة، فيتدخل البارى جل شانه فورا ليرفع هذه الوسوسة وينسخها قبل ان تخرج من عالم النفس على شكل قول او حديث. وعلى هذا فسوف لن يكون لهذه الاية من سورة الحج اى ارتباط بتلك العبارتين الشيطانيتين، حيث تدعى الروايات ان الرسول (ص) كان قد اعتبر الاية الشريفة من الايات التى نزلت بحق كفار قريش. وبهذا صار من السهل رد الرواية وتفنيدها بناء على تلك الصورة التى نقلت فيها دون حاجة الى البراهين الكلامية والمسائل الاعتقادية، وذلك بالاشارة الى تناقضاتها الداخلية وما تضمنه متنها من تضاد وتهافت. ولكن كما اشرنا سابقا فان ابن حجر قال فى شرح صحيح البخارى: ان الرواية طبقا لقواعد الحديث يجب ان تكون قد استندت الى اصل ما او حادثة ما، ولهذا حاول توجيهها وتاويلها تبعا لذلك. وفى الحقيقة ان رواية صحيح البخارى تنص على ان المسلمين والمشركين كانوا قد سجدوا جميعا مع الرسول (ص) حين تلا آية السجدة من سورة النجم. وهنا يطرح السؤال التالى: ما الذى جعل المشركين يسجدون؟ او ما الذى دعا ذلك الرجل المشرك الى السجود؟، والذى تنقل رواية اخرى فى صحيح البخارى انه اخذ قبضة من التراب ووضع عليها جبهته علامة على السجود. لم تكن الاجوبة التى نقلت خالية من التكلف. منها مثلا ما نقله (الكرمانى) فى شرح صحيح البخارى، [۲۳۴] حيث قال:لانها كانت اول سجدة نزلت، فانهم لم يشاءوا اظهار المعارضة للمسلمين فى السجود لمعبودهم، او انهم سجدوا بدون قصد وارادة». وروى العلامة المجلسى [۲۳۵] عن الطبرى انه روى عن البلخى المتكلم قوله: «انه من الممكن ان يكون الرسول (ص) قد سبقه لسانه ونطق بهاتين الكلمتين اللتين حفظهما عن قومه بعد ان ذكره الشيطان بهما اثناء تلاوته لسورة النجم، ولكن اللّه منعه من ذلك». ونحن نعتقد ان كلام البلخى ينطوى على شىء من الحقيقة، فان الرسول (ص) كان قد سمع هاتين العبارتين من قومه، يقولالكلبى: «ان قريش

كانت تطوف حول الكعبة وتردد شعارها المعروف: واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى،فانهن الغرانيق العلى، وان شفاعتهن لترتجى». [۲۳۶] .اذن كانت قريش تهتف بهاتين العبارتين حول اللات والعزى ومناة عند طوافها حول البيت، وحين تلا الرسول (ص) الوحى الالهى من سورة النجم حتى وصل الى الاية (۱۸) (لقد راى من آيات ربه الكبرى) فاوحى اليه الاية التى تليها (افرايتم اللات والعزى) يعنى ان الرسول (ص) قد راى من آيات ربه العظمى، فهل رايتم شيئا من اربابكم؟ وهنا ذكر الرسول (ص) هاتين الجملتين اللتين تلهج بذكرهما قريش فى الطواف لاعلى انهما من القرآن، بل للطعن بمعتقدات قريش والاستخفاف باربابهم، واظهار عجز هذه الاسماء (اللات والعزى ومناة)، التى كانت تحتل مقام الربوبية عند العرب، وكانوا يعتبرونهم آلهتهم العليا. ثم سخر القرآن منهم بقوله: (الكم الذكر وله الانثى، تلك اذا قسمة ضيزى)، اى لم تروا انكم زعمتم ان اللات والعزى ومناة هى بنات اللّه، فى الوقت الذى تكرهون ذلك لانفسكم وتودون ان ترزقوا ذكورا؟! وهنا ظنت قريش ان الرسول (ص) اقر بتلفظه بهاتين العبارتين بآلهتها، وانه ايد مقولتها بكلام اللّه، ولهذا سجدت لالهتها حينما سجد رسول اللّه (ص). وبهذا التفسير نكون قد حافظنا على اصل رواية الطبرى بدون تجزئتها او تقطيعها، ودون الحاجة الى القول بان الشيطان القى هاتين العبارتين على لسان النبى (ص) وهو يتلو سورة النجم. وكذلك اصبح من المعلوم والمسلم به وفقا لهذا التفسير ان الرسول لم يات بهاتين الجملتين ان كان قد نطق بهما على انهما جزء من القرآن الموحى، وانما للاستخفاف والاستهزاء، فكرر اقوالهم وما يدعونه عن آلهتهم، فلما سمعت قريش منه ذلك وشاهدته وهو يسجد سجدت معه. وقد نتج عن هذه الحادثة الصغيرة شائعات ترددت فى مكة وخارجها، بان مشركى قريش قد اسلموا، وبوصول هذه الشائعة الى ارض الحبشة قرر المسلمون المهاجرون العودة من هناك الى مكة. اما اولئك الذين يحاولون النيل من كلام اللّه والنزول بالوحى الالهى الى مستوى البشر وجعله كالسجع الذى كان يتداوله المشركون، فقد وجدوا فى هذه الرواية عونا على تاييد ما ذهبوا اليه من تدخل الشيطان فى الوحى نعوذ باللّه من ذلك وتشبثوا بالاية الشريفة من سورة الحج كذريعة لاثبات صحة ما ذهبواااليه.

قريش تتابع المهاجرين الى الحبشة

والان لندع الحديث عن الغرانيق جانبا ونعود الى المهاجرينالى الحبشة، اذ تقول الروايات ان قريش بعثت باثنين من انشط واشد رجالها الى ملك الحبشة، وحملتهم بمختلف الهدايا الثمينة، فى محاولة لاقناع ملك الحبشة بضرورة حمل المسلمين المهاجرين على ترك الحبشة والعودة الى مكة. وهنا يطرح تساؤل حول الاسباب التى دعت قريش لتتبع المهاجرين وسعيها لاعادتهم الى مكة فى الوقت الذى تخلصت فيه من ازعاجهم واذيتهم، واصبح بامكانها التفرغ للرسول (ص) ومن بقى معه من المسلمين فى مكة. علما ان قريش كانت اكثر ما تشكو منه طبقا للروايات هو سب المسلمين لالهتها وتسفيههم لمعتقداتها واحلامها، ففى مثل هذه الحالة تكون قد تخلصت من اذى جماعة كبيرة من المسلمين، او انها على الاقل لم تعد تسمع سبهم لالهتها، اذا لماذا كانت تقلق من بقاء هذه الجماعة من المسلمين فى الحبشة، وتسعى جاهدة لاعادتهم؟ وهنا يتضح السبب الحقيقى وراء مناهضة قريش لرسولاللّه (ص)، كما اعتقد، ذلك السبب الذى تشير اليه الاية (۵۷) من سورة القصص اذ تقول: (ان نتبع الهدى معك نخطف منارضنا..). لقد كانت قريش تشعر بمخاوف حقيقية من تاثير المسلمين هناك. وتخشى دخول الاحباش فى الاسلام او دخول ملك الحبشة نفسه فى دين محمد (ص)، وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة قد تنتهى بقيام الاحباش بالهجوم على مكة وتهديد موقع قريش ومركزها هناك كما جرى فى عهد ابرهة. لهذا سارعت الى تلافى الامر فى بدايته وبعثت كل من عبداللّه بن ابى ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل السهمى الى الحبشة، وزودتهم بافخر الهدايا، وخاصة الجلود المكية المعروفة على امل اقناع ملك الحبشة بطرد المسلمين من هناك. وقد عرف عمرو بن العاص بمكره ودهائه قبل الاسلام وبعده، ولا يخفى دوره فى تثبيت حكم معاوية واستحكامه عندما لجاالى حيلته المعروفة فى معركة صفين، ومن ثم مراوغته فىقضية التحكيم وخداعه لابى موسى الاشعرى. وطبقا لرواية ام سلمة (زوج الرسول (ص))، التى كانت قد هاجرت مع زوجها ابى سلمة بن الاسدالمخزومى [۲۳۷] .قبل زواجها من رسول اللّه (ص)، فقد جاء فيها انها

قالت: «لما نزلت ارض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشى، امنا على ديننا وعبدنا اللّه تعالى، لا نؤذى ولانسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم على ان يبعثوا الى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين، وان يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من اعجب مایاتيه منها الادم، فجمعوا له ادما كثيرا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا الا اهدوا اليه هدية، ثم بعثوا بذلك عبداللّه بن ابى‌ربيعة، وعمرو بن العاص وامروهما بامرهم، وقالوا لهما: ادفعا الى كل بطريق هديته قبل ان تكلما النجاشى فيهم، ثم قدما الى النجاشى هداياه ثم سلاه ان يسلمهم اليكما قبل ان يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشى، ونحن عنده بخيردار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريقا الا دفعا اليه هديته قبل ان يكلما النجاشى، وقالا لكل بطريق منهم انه قد ضوى [۲۳۸] الى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاؤا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا الى الملك فيهم اشراف قومهم ليردهم اليهم، فاذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بان يسلمهم الينا ولا يكلمهم، فان قومهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم انهما قدما هدايا هما الى النجاشى فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: ايها الملك، انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا دينك، وجاؤا بدين ابتدعوه،لا نعرفه نحن ولا انت، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشيرتهم، لتردهم اليهم، فهم اعلى بهم عينا، واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه». قالت: «ولم يكن شىء ابغض الى عبداللّه بن ابى ربيعة وعمرو بن العاص من ان يسمع كلامهم النجاشى، فقالت بطارقته حوله: صدقا ايها الملك، قومهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم، فاسلمهم اليهما، فليرداهم الى بلادهم وقومهم. فغضب النجاشى، ثم قال: لاها اللّه، اذا لا اسلمهم اليهما، ولا يكاد قوم جاورونى، ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى ادعوهم فاسالهم عما يقول هذان فى امرهم، فان كانوا كما يقولون اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاورونى». قالت: «ثم ارسل الى اصحاب رسول اللّه (ص) فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل اذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللّه ما علمنا، وما امرنا به نبينا (ص) كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاؤا، وقد دعا النجاشى اساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سالهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولافى دين احد من هذه الملل؟ فكان الذى كلمه جعفر بن ابى طالب، فقال له: ايها الملك، كنا قوما اهل جاهلية، نعبد الاصنام، وناكل الميتة، وناتى الفواحش، ونقطع الارحام، ونسىء الجوار، ویاكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه الينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه، فدعانا الى اللّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان، وامرنا بصدق الحديث، واداء الامانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، واكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وامرنا ان نعبد اللّه وحده لا نشرك به شيئا، وامرنا بالصلاة والزكاة والصيام» قالت: «فعدد عليه امور الاسلام فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من اللّه، فعبدنا اللّه وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ماحرم علينا، واحللنا ما احل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنوناعن ديننا، ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة اللّه تعالى، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا الى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا الا نظلم عندك ايها الملك! فقال له النجاشى: هل معك مماء جاء به عن اللّه من شىء؟ فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشى فاقراه على. فقرا عليه صدرا من (كهيعص) قالت: «فبكى واللّه النجاشى حتى اخضلت لحيته، وبكت اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم! ثم قال لهم النجاشى: ان هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة! انطلقا، فلا واللّه لا اسلمهم اليكما، ولا يكادون»! قالت: «فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: واللّه لاتينه‌غدا عنهم بما استاصل به خضراءهم. [۲۳۹] فقال له‌عبداللّه بن ابى ربيعة وكان اتقى الرجلين فينا: لا تفعل فان لهم ارحاما، وان كانوا قد خالفونا. فقال: واللّه لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى ابن مريم عبد! ثم غدا عليه من الغد فقال له: ايها الملك، انهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما، فارسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه. فارسل اليهم ليسالهم عنه». قالت: «ولم ينزل بنا مثلها قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى ابن‌مريم؟ فقال جعفر بن ابى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا،يقول:

هو عبد اللّه ورسوله وروحه وكلمته القاها الى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشى بيده الارض فاخذ منها عودا، ثم قال: واللّه ماعدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود. فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وان نخرتم واللّه، اذهبوا فانتم شيوم [۲۴۰] بارضى، من سبكم غرم، من سبكم غرم! ما احب ان لى [۲۴۱] دبرا من ذهب وانى اذيت رجلا منكم! ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لى بها. فقال: اذهب يا ابن اخى، فقل ما احببت، فواللّه لا اسلمك لشىء ابدا» [۲۴۲] .تضمنت رواية ام سلمة بعض النكات التى ينبغى الاشارة اليها، احداها تسمية مبعوثى قريش الى المسلمين المهاجرين ب (غلمان سفهاء) فان ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه سابقا من ان اكثرالمسلمين الاوائل كانوا شبانا. والثانية تعريف هذين المبعوثين بانفسهما بانهما رسولا اشراف مكة، وهما صادقان فى ذلك، فان اعداء الرسول الاشداء كانوا كما اشرنا سابقا اشراف القوم واصحاب النفوذ فيهم. والنكتة الثالثة قيام جعفر بن ابى‌طالب بدور الناطق باسم المهاجرين، مما يعنى ان خطوة قريش هذه، اى ارسالها للمبعوثين (عمرو بن العاص) و (عبداللّه بن ابى ربيعة) كانت بعد الهجرة الثانية الى الحبشة، اذ لم يرد اسم جعفر بن ابى طالب فى قائمة المهاجرين فى‌الهجرة الاولى الى الحبشة، وقد كان جعفر بن ابى طالب قائد المهاجرين فى الهجرة الثانية. اما عن تصديق النجاشى لقول المسلمين: ان عيسى كان عبداللّه وكلمة اللّه وروح اللّه، فربما يعود الى انسجام ذلك الى حد ما مع عقائد (المونوفيزتيين) اى المعتقدين بالطبيعة الواحدة فى عيسى، فقد كان (المونوفيزت) مذهب النجاشى واهل الحبشة الذى كان يختلف تماما عن مذهب اباطرة بيزنطة وعقيدتهم فى عيسى (المذهب المكابى) وكذلك مع عقائد النسطوريين. ربما اعتبر النجاشى كلمة (عبد) تتطابق مع عقائد (المنوفيزتيين) الذين عبروا عن عيسى بما يشبه ذلك التعبير،اذ كانوا يعتبرونه انسانا كاملا وربا فى آن واحد. فاعتبر كلمة (عبد) هنا اشارة الى انسانيته، بينما كانت كلمتا (روح اللّه) و (كلمة اللّه) تعبيرا عن ربوبيته، وربما كان ذلك هو السبب وراء تخفيف حدة الاعتراضات التى اثيرت من قبل الاساقفة. لقد كان تاريخ الحبشة فى هذا الوقت اى فى العقد الثانى من‌القرن السابع مظلما، وكانت الحبشة، وفقا للروايات التى تحدثت عن هجرة المسلمين الى الحبشة، مسرحا للانقلابات الداخلية. هذا وقد وردت بعض القصص عن دخول النجاشى الاسلام واعتناقه الدين الجديد، وربما كانت هذه الروايات غيردقيقة بصورة عامة، غير انها تكشف على اقل تقدير عن ميل النجاشى الى الدين الاسلامى. ونقلت روايات اخرى عن مبعوثى قريش الى ملك الحبشة، منها ما جاء فى (الاغانى)، [۲۴۳] وكانها قصة تدور اكثرفصولها حول الحب والعشاق وما الى ذلك. ويذكر فى هذه الرواية عمارة بن الوليد المخزومى على انه المبعوث الثانى مع عمرو بن العاص بدلا عن عبداللّه بن ابى ربيعة، وقد اشتهرعمارة بن الوليد المخزومى فى قريش بشدة جماله، وقيل عنه‌احيانا بانه ارتبط فى هذا السفر بعلاقة حب مع زوجة عمرو بن العاص وزوجة النجاشى، واخيرا صار مع السحرة فى الصحراء، ولا يمكن الاعتماد على هذه الرواية. هذا وقد ورد اسم عمارة بن الوليد فى غير هذه الرواية باعتباره احد مبعوثى قريش، ويعتقد ان اشتهاره بالجمال وحسن الخلقة كان هو السبب وراء افتعال تلك القصص حوله فى (الاغانى).

عودة المهاجرين

هناك اختلاف حول عودة المهاجرين من الحبشة بعد انتشار خبر اسلام اهل مكة، بين روايات ابن اسحاق كما ورد فى الطبرى وسيرة ابن هشام، وروايةالواقدى عن ابن ابى نجيح. فطبقا لرواية ابن هشام عن ابن اسحاق ان العائدين من الحبشة كانوا قد اكتشفوا كذب خبر اسلام اهل مكة قبل دخولهم اليها وعندما كانوا على مقربة منها، فكان دخولهم الى مكة اما بواسطة (الجوار) من قبل احد افراد قريش او بالتخفى والتستر، وذكر اسماء بعض الاشخاص الذين اقاموا فى مكة الى ان هاجروا مع الرسول (ص) الى المدينة وشهدوا بدرا، اوبقوا محبوسين فى مكة حتى فاتتهم المشاركة فى معركة بدرو غيرها، بينما توفى آخرون بمكة، ثم نقلت الرواية قائمة باسماء من عاد الى الحبشة تحتوى على ثلاثة وثلاثين اسما. اما [۲۴۴] الواقدى فقد قال كمامرت الاشارة اليه انهجرة المسلمين الى الحبشة كانت فى رجب من السنة الخامسة للبعثة، وبقوا هناك شهرى شعبان ورمضان حتى جاءهم خبر السجدة، وكان ذلك فى شهر رمضان، فكانتعودتهم الى مكة فى شوال، وبعد عودتهم لقوا اذى شديدا من قريش وتعاون على ظلمهم البعيد والقريب، الامر الذى

دعا الرسول (ص) الى ان ياذن بالهجرة الثانية الى ارض الحبشة، وكان خروج المسلمين هذه المرة اشد كثيرا من سابقه فى الهجرة الاولى حيث ازدادت معاناتهم من قريش سيما بعد ان اصبحت على علم بما وجده المسلمون من حسن المعاملة وطيب الاقامة عند النجاشى. وقد سال عثمان بن عفان رسول اللّه (ص): «يا رسول اللّه، قد هاجرنا ثانية الى الحبشة ولم تكن معنا؟» فقال (ص): «انما هجرتكم الى اللّه والى، واجر الهجرتين لكم». فقال عثمان: «هذا يكفينا، يا رسول اللّه». وقد كان عدد المهاجرين فى هذه الهجرة (۸۳) رجلا و (۱۱) امراة من قريش، و (۸) من سائر الناس، فاقاموا جميعا فى الحبشة بامان وسلام واحسان حتى سمعوا بهجرة الرسول (ص) الى المدينة، فهاجر (۳۳) رجلا و (۸) نساء منهم الى مدينة الرسول (ص)، وشهد (۱۴) رجلا منهم بدرا، حتى بعث رسول اللّه (ص) كتابا الى النجاشى يدعوه فيه الى الاسلام، يحمله عمرو بن امية الضمرى فى السنة السابعة للهجرة. ويلاحظ، بناء على رواية ابن هشام، ان (۳۳) رجلا، ومن جملتهم عثمان بن عفان، لبثوا فى مكة بعد العودة الاولى من الحبشة، ولكن وفق رواية الواقدى فان عثمانا هاجر ثانية الى الحبشة، وكانت هجرته من الحبشة الى المدينة، وبالنظر للترتيب الواقعى والتوالى المنطقى فى رواية الواقدى عن ابن نجيح، فاننا نرجحها على رواية ابن هشام الملخصة عن رواية ابن اسحاق والتى تحتمل السقط والاختصار، ونقل البلاذرى الاحداث وفقا لترتيبها فى رواية الواقدى ايضا. وفى هذا المجال كثير من التفصيل، وروايات هذا الباب بحاجة الى مزيد من النقد والتحليل مما لا يتناسب مع حجم كتابنا. وبما ان جعفر بن ابى طالب كان قائد الهجرة الثانية، فان تتبع عمرو بن العاص وعبداللّه بن ابى ربيعة للمهاجرين الى الحبشة كان بعد الهجرة الثانية.

ما قامت به قريش ضد الرسول

بعد ان عاد مبعوثا قريش بخفى حنين من الحبشة، تحفزت قريش لانزال مزيد من الاذى والعذاب بالمسلمين داخل مكة وفى مقدمتهم الرسول (ص)، غير انها لم تجد طريقا لالحاق الاذى به غالبا، الا عن طريق المحاربة الكلامية وتوجيه التهم والافتراءات اليه، وذلك لوقوف ابى طالب بصورة خاصة وبنى هاشم بصورة عامة الى جانبه (ص) واصرارهم على حمايته والذود عنه (ص). وقد هجموا عليه مرة او مرتين، غير انهم لم يستطيعوا فعل شيء يذكر، بسبب طبيعة النظام القبلى الذى كان سائداو الالتزامات التى يفرضها على الحلفاء فى حماية افراد القبيلة، واحيانا كانت تنتهى بنتيجة السب والشتم والتى كان يتعرض لها الرسول (ص) بدلا من الحاق الضرر به، كما فى اسلام حمزة بن عبد المطلب الذى كان نتيجة احدى فعال قريش السيئة مع رسول اللّه (ص).

اسلام حمزة بن عبد المطلب

اشتهر حمزة بشجاعته وجلده وعلو همته، غير انه كان بعيدا عن شؤون مكة السياسية، كما يبدو، ولم يسبق له ان اعار اهتماما خاصا بالدين الجديد الذى جاء به ابن اخيه، لقد كان حمزة صيادا ماهرا، وقد اعتاد على ان يذهب الى البيت الحرام ويطوف حول الكعبة قبل ان يتجه الى منزله فى كل مرة يعودبها من الصيد، وفى طريقه الى المنزل كان يمر بتجمعات قريش ويسلم على اهلها ويتبادل الحديث معهم. وبينما كان الرسول يقف يوما قرب جبل الصفا، [۲۴۵] مربه ابو جهل فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لامره، فلم يكلمه رسول اللّه وكان هناك مولاة لعبداللّه بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك ثم انصرف عنه فعمد الى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى اللّه عنه ان اقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له، وكان اذا فعل ذلك لم يمرعلى ناد من قريش الا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان اعزفتى فى قريش واشدهم شكيمة، فلما مر بالمولاة وقد رجع رسول اللّه (ص) الى بيته قالت له: «يا ابا عمارة، لو رايت ما لقى ابن اخيك محمد آنفا من ابى الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد (ص)». فاحتمل حمزة الغضب لما اراد اللّه به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على احد معدا لابى جهل اذا لقيه ان يوقع به، فلما دخل المسجد نظر اليه جالسا فى القوم، فاقبل نحوه

حتى اذا قام على راسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: «اتشتمه وانا على دينه اقول ما يقول؟ فرد ذلك على ان استطعت». فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا ابا جهل، فقال ابو جهل: «دعوا ابا عمارة، فانى واللّه قد سببت ابن اخيه سبا قبيحا. وبقى حمزة على اسلامه وعلى ما تابع عليه رسول اللّه (ص) فلما اسلم حمزة عرفت قريش ان رسول اللّه (ص) قد عز وامتنع وان حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانواينالون منه. [۲۴۶] .

اسلام عمر بن الخطاب

كان عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى من بنى عدى من قريش، وهو الخليفة الثانى بعد ابى بكر، وفى نظر العلماء والمحدثين من اهل السنة ان عمر افضل الصحابة بعد ابى بكربن ابى قحافة، وسواء صحت وجهة النظر هذه او لا، فان ذلك لا يؤثر على الحقيقة التاريخية فى كون عمر ابن الخطاب كان الخليفة الثانى، ومع هذا المقام الذى كان يحتله عمر يصبح من الضرورى معرفة الاسباب التى جعلته يتاخر اكثر مما يتوقع فى اعتناق الاسلام، وبتعبير آخر انه اسلم بعد ان اسلمت شخصيات عديدة اقل منه منزلة بين الصحابة، ولم يحتلوا فيما بعد المقام الذى شغله عمر فى الاسلام، لقد اسلم عمر بعد هجرة المسلمين الى الحبشة وفقا لما جاء فى الروايات وبالتحديد فى السنة السادسة بعد البعثة النبوية، وكان فى السادسة والعشرين من عمره، ونظرا لانتمائه الى قريش، ولانه كان من الرجال اللامعين فى مكة، فقد اعتبر من شباب المسلمين الاوائل الذين يصنفون عادة الى (احداث، وضعفاء، ومستضعفين). وهنا ينبغى البحث داخل شخصيته لمعرفة السبب وراء تاخره فى اعتناق الاسلام، فقد كان عمر كما تؤكد الروايات وكذلكسيرته الشخصية رجلا ذا شكيمة وشدة وصلابة، يصعب اقناعه، ويتعذر تغيير رايه، او تبديل معتقداته. وكان الى جانب ذلك سريع الغضب، عصبى المزاج، خشن الطباع، وقد وصفه الامام على بن ابى طالب (ع) فى نهج البلاغة بانه: «حوزة خشناء» ولكنه كان يستسلم للمنطق، وكان مع شدته وخشونته يضعف امام المناظر المؤثرة ويرق قلبه للاحداث المؤلمة، لقدعكست قصة اسلامه هذه الصفات المتضادة والمتناقضة التىانطوت عليها شخصيته. وكان سبب اسلام عمر ان اخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد اسلمت واسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبداللّه النحام رجل من قومه من بنى عدى بن كعب قد اسلم، وكان ايضا يستخفى باسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن الارت يختلف الى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول اللّه (ص) ورهطا من اصحابه قد علم انهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا، وهم قريب من الاربعين ما بين رجل وامراة وكان مع رسول اللّه (ص) عمه حمزة بن عبد المطلب وابو بكر الصديق، وعلى بن ابى طالب، فى رجال من المسلمين، ممن كان اقام مع رسول اللّه (ص) بمكة ولم يخرج الى ارض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبداللّه، فقال له: «اين تريد، يا عمر؟» فقال: «اريد محمدا هذا الصابى الذى فرق امر قريش، وسفه احلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فاقتله». فقال له نعيم: «واللّه لقد غرتك نفسك، يا عمر! اترى بنو عبد مناف تاركيك تمشى على الارض وقد قتلت محمدا؟! افلا ترجع الى اهل بيتك فتقيم امرهم؟» قال: «ومن اهل بيتى؟» قال: «ختنك وابنعمك سعيد بن زيد بن عمرو، واختك فاطمة بنت الخطاب، فواللّه لقد اسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما». فرجع عمر الى اخته وختنه، وعندهما خباب بن الارت ومعه صحيفة فيها (طه) يقرئهما اياها. فلما احسوا بقدوم عمر تخبا خباب فى مخدع لهم، او فى احدى زوايا البيت، واخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب، فلما دخل قال: «ما هذه الهينمة، [۲۴۷] التى سمعت؟» قالا له: «ما سمعت شيئا». قال: «بلى واللّه، لقد اخبرت انكما تابعتما محمدا على دينه!» وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت اليه اخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالا له: «نعم، قد اسلمنا وآمنا باللّه ورسوله، فاصنع ما بدالك»، فلما راى عمر اخته على هذه الحال ندم على ما صنع فارعوى، وقال لاخته: «اعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤونها آنفا، انظر ماهذا الذى جاء به محمد»، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له اخته: «انا نخشاك عليها»، قال: «لاتخافى»، وحلف لها بآلهته ليردنها اذا قراها اليها، فلما قال ذلك طمعت فى اسلامه، فقالت له: «يا اخى،

انک نجس، علی شرککک، وانه لا یمسها الا الطاهر»! فقام عمر فاغتسل، فاعطته الصحیفة، وفیها (طه) فقراها، فلما قرا منها صدرا قال: «ما احسن هذا الکلام واکرمه» فلما سمع ذلک خباب خرج الیه، فقال له: «واللّه انی لارجو ان یکون اللّه قد خصک بدعوة نبیه (ص)، فانی سمعته امس وهو یقول: اللهم ایـد الاسلام بابی الحکم بن هشام او بعمر بن الخطاب! فاللّه اللّه یا عمر!» فقال له عند ذلک عمر: «فدلنی یا خباب علی محمد حتی آتیه فاسلم». فقال له خباب: «هو فی بیت عند الصفا فی نفر من اصحابه». فاخذ عمر سیفه فتوشمه ثم عمد الی رسول اللّه (ص) واصحابه، فضرب علیهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من اصحاب رسول اللّه (ص) فنظر من خلال الباب فرآه متوشما السیف، فرجع الی رسول اللّه (ص) وهو فزع فقال: «یا رسول اللّه، هذا عمر بن الخطاب متوشما السیف»، فقال‌حمزة بن عبد المطلب: «فائذن له، فان کان جاء یرید خیرابذلناه له، وان جاء یرید شرا قتلناه بسیفه». فقال رسول‌اللّه (ص): «ائذن له»، فاذن له الرجل ونهض الیه رسول اللّه حتی لقیه فی الحجرة، فاخذ حجزته [۲۴۸] او بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شدیدة، وقال: «ما جاء بک یا ابن‌الخطاب؟ فواللّه ما اری ان تنتهی حتی ینزل اللّه بک قارعة». فقال عمر: «یا رسول اللّه، جئتک لاؤمن باللّه وبرسوله وبماجاء من عند اللّه» [۲۴۹] .هذا وقد وردت روایة اخری عن کیفیة اسلام عمر، غیر اننا نری هذه الروایة اکثر انسجاما مع شخصیة عمر وخصائصه النفسیة، وقد نقلت عن حیاته فی تاریخ الاسلام تفاصیل کثیرة تشبه ذلک وتؤیده، فخروجه المفاجی من البیت لقتل الرسول تعبیر عن تلک الحالة التی کانت تتسم بها شخصیته وهی سرعة غضبه وانفعاله، وکذلک فان حالة الندم وسرعة التاثر والانکسار التی ظهرت علیه بعد فورة الغضب مباشرة والتی نقلت عنه مرارا تعبر ایضا عن تلک الحالة النفسیة المشار الیها، ثم تسلیمه للمنطق والحجة الاقوی صفة اخری فی شخصیة عمر، ومیزة ثالثة من ممیزاته النفسیة، فبمجرد انه قرا الایات الاولی من سورة (طه) فاذا به یسلم فورا. کذلک رویت عنه تفاصیل اخری ایام خلافته اظهرت تسلیمه لحکمة علی بن ابی طالب ودرایته بالقضاء، حیث قال مرارا: «لولا علی لهلک عمر». اشتهر عمر بین قومه وعشیرته بصلابته وحدته وشدة تطرفه رغم حداثة سنه، وکان الجمیع یحسبون له حسابا، ولهذا نجد الرسول (ص) بناء علی صحة الروایة یقرنه بابی جهل علی کبرسنه وعلو مقامه فی قومه، حیث کان یدعو اللّه ان یهدی الی الاسلام اباجهل او عمر. وبعد ان اسلم عمر سخر صلابته وشدته لخدمة الاسلام، حتی نقل عن ابن مسعود قوله: «ما کنا نقدر ان نصلی عند الکعبة حتی اسلم عمر بن الخطاب، فلما اسلم قاتل قریشا حتی صلی عند الکعبة وصلینا معه». [۲۵۰] .ولکن هناک نوعا من المبالغة فی تاثیر اسلام عمر وحمزة، فسنری الرسول (ص) بعد وفاة ابی طالب یبقی دون ناصر ومجیر، حیث یضطر بعد عودته من ثقیف ان یدخل مکة بجوار احد المشرکین، ولم یستطع حمزة او عمر فعل شیء له.

محاصرة بنی هاشم اجتماعیا و اقتصادیا

بعدما یئست قریش من اعادة المسلمین المهاجرین الی الحبشة الیها، وبعدما رفض ابو طالب تسلیمها محمدا (ص) ونتیجة لتزاید مخاوفها من انتشار الدعوة الاسلامیة بدخول شخصیات مهمة وخطیرة مع مرور الایام فی الاسلام، بعد هذا کله جمعت قریش امرها وجلس زعماؤها للتشاور فی امر محمد (ص) ودینه الجدید، وبعد المداولات توصلوا الی توقیع وثیقة تنص علی حرمان بنی هاشم وبنی المطلب من حقوقهم الاجتماعیة والمدنیة فی مکة، لحملهم علی التخلی عن محمد (ص)، وکتبوا من اجل هذا کتابا الا یناکحوهم ولایبایعوهم ولا یخالطوهم، ثم علقوا هذا الکتاب فی جوف الکعبة. وبعد ان فعلت قریش فعلتها تلک، انحاز بنو المطلب الیابی‌طالب فی شعبه مع بنی هاشم. قال یاقوت: [۲۵۱] .«شعب ابی یوسف: هو الشعب الذی اوی الیه رسول اللّه (ص) وبنوهاشم لما تحالفت قریش ضد بنی هاشم وکتبوا الصحیفة، وکان لعبد المطلب فقسم بین بنیه حین ضعف بصره، وکان النبی (ص) اخذ حظ ابیه، وهو کان منزل بنی هاشم ومساکنهم». ولم ینفصل شخص من بنی هاشم سوی ابی لهب عم النبی (ص)، الذی ظاهر قریش علی بنی هاشم وبنی المطلب، ومکث بنو هاشم وبنو المطلب فی شعب ابی طالب سنتین او ثلاث سنوات وفقا لروایة ابن اسحاق وهم علی تلک الحال من الشدة والحصار، لا یصل الی احد منهم شیء الا سرا، وذکروا ان ابا جهل لقی حکیم بن حزام بن خویلد ومعه قمح یرید به

عمته خديجة وهى عند رسول اللّه (ص) فى الشعب، فتعلق به، وقال: «واللّه لا تبرح حتى افضحك»، فجاء ابوالبخترى بن هشام، فقال: «مالك وله؟ عنده طعام لعمته افتمنعه ان يحمله اليها؟ خل سبيله». فابى ابوجهل فنال منه، فضربه ابوالبخترى بلحى جمل فشجه ووطاه وطئاشديدا. [۲۵۲] .وكان احسنهم بلاء فى نقض الصحيفة وتوصيل الطعام الى المحاصرين (هشام بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن لؤى)، وهو ابن اخى نضلة بن هشام بن عبد مناف لامه وهو احد المحاصرين وكان ياتى بالبعير قد اوقره طعاما ليلاويستقبل الشعب ويخلع خطامه فيدخل الشعب. [۲۵۳] .وقد كان حصار بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب هلال المحرم سنة سبع من تنبى رسول اللّه. [۲۵۴] وظلوا على هذه الحال مدة ثلاث سنين، لا يخرجون من الشعب الا فى موسم الحج، حتى بلغهم الجهد، وسمعت اصوات صبيانهم من وراء الشعب. وعن ابن عباس: «حصرنا فى الشعب ثلاث سنين، قطع عنا فيها الطعام، حتى ان الرجل ليخرق من الشعب ليشترى طعامافلا يبايعه احد، فمات عدد منا». [۲۵۵] .هذه خلاصة عن اخبار الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرض على بنى هاشم وبنى المطلب فى شعب ابى طالب، كما وردت فى تاريخ الطبرى وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، ولنا على ذلك ملاحظات ندرجها فيما يلى: ۱- ان الذين حاصرتهم قريش هم وبنو هاشم بنو عبد المطلب ولم تحاصر عامة المسلمين، اى ان ابابكر مثلا الذى هو من بنى تيم، او عمر الذى يعود نسبه الى بنى عدى، او بعض المسلمين الاخرين الذين لم يهاجروا الى الحبشة من غير بنى هاشم، لم يكونوا جزءا من المحاصرين، بقوا فى مكة كما كانوا قبل الحصار، ومن جانب آخر نرى بين المحاصرين من لم يدخل الاسلام، فبناء على ما نقله البلاذرى ان بنى هاشم دخلوا الحصار اما بسبب اسلامهم او بسبب حميتهم وتعصبهم لعشيرتهم وبنى عمومتهم، اذا قامت هذه المحاصرة على اسس قبلية ونعرات عشائرية. والدليل على ذلك موقف بنى هاشم بزعامة ابى طالب عم النبى (ص) المدافع والمحامى ابداعن رسول اللّه (ص)، ولهذه المسالة ارتباط بالنظام القبلى وكيفية تطبيق العدالة والقانون فيه، اذ لو نهضت قريش لمحاربة بنى هاشم لشب نزاع شامل يجر اليه حلفاء بنى هاشم فى حلف الفضول، وقد تحدث حرب داخلية كتلك الحروب التى تندلع عادة فى يثرب، وهذا ما تتجنبه قريش بشدة وتهرب منه لاعتماد اهل المكة، خلافا لاهل يثرب، على التجارة والمتاجرة التى لا تنمو وتزدهر الا فى جو من الا من بعيد عن الحروب والمنازعات. ولهذا لم تسفر تلك المحاصرة، وخصوصا الاقتصادية منها، عن نتائج مهمة، فبنو هاشم قوم يصعب عزلهم واحكام الحصار عليهم لكثرة تشعباتهم وارتباطاتهم الاجتماعية مع الاقوام والطوائف الاخرى بواسطة الزواج وغيره، كما ان لبنى هاشم محبين ومناصرين فى القبائل الاخرى، وللقبائل الاخرى اقرباء وارحام فى بنى هاشم لا يرضون بحرمانهم وتعرضهم للجوع. لقد فرضت هذه المحاصرة بتاثير وقيادة بنى مخزوم الذين كانت لهم الكلمة الاولى واليد الطولى فى قريش، وكان زعيمهم ابو جهل كما تشير الروايات اكثر الناس حماسا لها واشدهم تحريضا عليها، كان ابوجهل يدرك تماما خطر انتشار الاسلام فى مكة على زعامته وعلى موقع بنى مخزوم فى قريش. ۲- يبدو ان فترة ثلاث سنوات او حتى سنتين من المحاصرة فترة طويلة لا يمكن تحملها. اذ لا تستطيع طائفة معينة تحمل مثل هذا الحصار داخل منازلها تلك المدة الطويلة، حتى مع حصول بعض الاختراقات من وصول بعض المساعدات سرا وخفية. ويبدو ان المحاصرة اخذت تشتد فيما بعد، حتى تحدثت الروايات عن انه كانت تسمع صرخات الصبيان المحاصرين فى الشعب، ولم يكن الامر كذلك فى بدايته، وكان يمكن لبنى هاشم ان يجدوا من يتعامل معهم، اما من قريش نفسها او من خارجها، ولهذا السبب طالت المحاصرة وامتد امدها، وللسبب استطاع بنو هاشم الصبر عليها وتحمل مشاقها، الى ان قررت قريش تشديد الحصار ومراقبة كافة عمليات البيع والشراء مع افراد بنى هاشم داخل الشعب، وقد ادى ذلك الى توقف كافة اشكال المساعدات والعون او ندرتها. وقد ذكر فى انساب الاشراف ان العباس بن عبد المطلب، الذى لم يسلم يومئذ، خرج من شعب ابى طالب ليشترى طعاما، فاراد ابوجهل ان يسطو به، فمنعه اللّه منه، وارسلت خديجة بنت خويلد الى زمعة بن الاسود: ان ابا جهل يمنع من ابتياع ما نريد، فاسمع اباجهل كلاما، فاسمعه فامسك. ويبدو ان هاتين الحادثتين مع واقعة ارسال الطعام من قبل حكيم بن حزام الى عمته خديجة، قد حصلت فى مرحلة وصول الحصار الاقتصادى الى الذروة من المضايقة والشدة التى ادت الى الغائه. اذ لو كان الحصار الاقتصادى ومنع وصول الطعام بهذه الدرجة من الشدة والصرامة منذ البداية لما استطاع بنو هاشم الثبات

لسنتين اوثلاثة من الحصار.

نقض الصحيفة

انتهى الحصار اخيرا، واستطاع بنو هاشم الخروج من شعب ابى طالب، وقد ذكر فى اسباب فك الحصار ونقض الصحيفة علتان، تبتنى احداهما على اساس تاريخى، بينما تقوم الثانية على اساس دينى، ولكن لا يوجد تنافى بين الرواية ذات المنحى التاريخى مع الرواية ذات الصبغة الدينية، لذا نحن ننقل الروايتين بدأ بالاولى التى يمكن تلخيصها كالتالى: ان هناك خمسة اشخاص من خمسة بطون مهمة فى قريش تعاهدوا سرا على ان يعلنوا يوما، وعندما تجتمع قريش فى مسجد مكة عن انهم سينقضون هذه الصحيفة او المعاهدة. ومن الجدير بالذكر ان التعرض لهؤلاء الخمسة قد يؤدى حرب داخلية، لانهم ينتمون الى خمسة بطون مهمة فى قريش، ولكل واحد منهم انصار ومؤيدون فى قومه، يشدون ازره ويسهلون عليه تنفيذ قراره. كان احد هؤلاء الخمسة هاشم بن عمرو بن ربيعة من بنى عامر بن لؤى، وكان عم امه نضلةبن هاشم بن عبد مناف من بنى هاشم المحاصرين. اما الثانى فهو زهير بن ابى امية المخزومى من بنى مخزوم، وامه عاتكة بنت عبد المطلب، وخاله احد المحاصرين. اما الثلاثة الاخرين فقد كان اثنان منهم من بنى اسد وهما: ابو البخترى بن هشام وزمعة بن الاسود، وكان بنو اسد احلاف بنى هاشم فى حلف الفضول. اما الخامس فهو مطعم بن عدى، من بنى نوفل، وهم ايضا جزء من حلف الفضول طبقا لرواية اوردها ابن هشام، [۲۵۶] على انااخبار حلف الفضول فى (المنمق) و (المحبر) و (سيرة ابن‌هشام) لم تات على ذكر دخول وخروج بنى نوفل وبنى عبد شمس، اذ لا ذكر لهذا الخبر سوى فى تلك الرواية المشار اليها التى رواها حفيد مطعم بن عدى لعبد الملك بن مروان وصدقها الاخير، وهناك قرينة اخرى على صحة الخبر المذكور فى تلك الرواية، وهى عبارة عن ابيات من الشعر انشدها ابوطالب وهو يشكو قريشا حين شددت من ضغطها على رسول اللّه (ص) وعمه. احد هذه الابيات كما رواهابن‌هشام: [۲۵۷] .فاخص خصوصا عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمروييدو ان هذا التخصيص فى ذكر بنى نوفل وبنى عبد شمس دون باقى الخصوم لارتباطهم بحلف الفضول. ويقول ابوطالب فى قصيدة اخرى، يشكو بها ايضا قريش لخذلانها رسول اللّه (ص)، ويوجه لومه بصورة خاصة الى مطعم بن عدى الذى يقول انه طلب منه العون يوما فلم يبخل عليه فى شىء غير ان مطعما لم يحفظ له ذلك الموقف، حيث يقول:فجزى اللّه عنا عبد شمس ونوفلا عقوبة شر عاجلا غير آجل [۲۵۸] .وهذا دليل آخر على خصوصية هاتين الجماعتين (بنى عبد شمس ونوفل)، لذلك خصهما ابوطالب بهذا العتاب، وذكرمطعم بن عدى بما بذله له من عون ومساعدة، وسبب تلك الخصوصية على ما يبدو ارتباطهم بحلف الفضول. على اية حال نفذ هؤلاء الخمسة ما تعاهدوا عليه، فاعلنوا عزمهم على نقض الصحيفة على رؤوس الاشهاد عند الكعبة، ولم يفلح ابوجهل فى صدهم عن ذلك رغم ما بذله من جهود، فقد عمد مطعم بن عدى الى الصحيفة وانتزعها عن جدار الكعبة ثم مزقها. وتقول الرواية الثانية: ان رسول اللّه (ص) اخبر اباطالب بان الصحيفة قد اكلتها الارضة، فلمست كل ما كان فيها من قطيعة غير (باسمك اللهم) فذكر ابوطالب ذلك لكفار قريش وقال لهم: «ان ابن اخى اخبرنى ولم يكذبنى قط ان اللّه قد سلط على صحيفتكم الارضة، فلمست كل ما كان فيها من جور او ظلم او قطيعة رحم، وبقى فيها كل ما ذكر به اللّه، فان كان ابن اخى صادقا نزعتم من سوء رايكم، وان كان كاذبا دفعته اليكم فقتلتموه او استحييتموه»، قالوا: «قد انصفتنا»، فارسلوا الى الصحيفة ففتحوها، فاذا هى كما قال رسول اللّه (ص)، فسقط فى ايديهم، ونكسوا على رؤوسهم، فقال ابوطالب: «علام نحبس ونحصر وقد بان الامر»؟ ثم دخل هو واصحابه بين استار الكعبة، فقال: «اللهم انصرنا ممن ظلمنا وقطع ارحامنا واستحل ما يحرم عليه منا»، ثم انصرفوا الى الشعب. وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببنى هاشم، فيهم: مطعم بن عدى، وعدى بن قيس، وزمعة بن الاسود، وابو البخترى بن هاشم، وزهير بن ابى امية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا الى بنى هاشم وبنى المطلب،فامروهم بالخروج الى مساكنهم ففعلوا. [۲۵۹] .وليس هناك من تناقض بين الروايتين، وقد يكون تسلط الارضة على الصحيفة امرا عاديا عندما تكتب الصحيفة على مادة لا يؤمن عليها من الارضة فى ذلك الجو الحار الذى كانت عليه مكة، علما ان التدخلات

الالهية والدعم الربانى عادة ما يتم فى اطار القوانين الطبيعية.

وفاة خديجة و ابى طالب

كان خروج بنى هاشم من الشعب فى السنة العاشرة منالبعثة النبوية طبقا لما ورد فى انساب الاشراف. [۲۶۰] .وفى هذه السنة فقد رسول اللّه (ص) كلا من زوجته خديجة وعمه ابى طالب، وقد اختلف فى تحديد اليوم الذى فارق فيه ابوطالب الحياة، فقيل: فى الاول من ذى القعدة، وقيل: فى النصف من شوال من السنة نفسها (اى العاشرة بعد البعثة). ووقع خلاف ايضا فى الفترة الواقعة بين وفاة خديجة ووفاة ابى‌طالب، فبين قائل انها كانت ثلاثة ايام فقط، وقائل خمسة ايام، وقيل: انها كانت خمسة وعشرين يوما.

اسلام ابى طالب

وردت رواية فى سيرة ابن اسحاق [۲۶۱] عن وفاة ابى‌طالب تشعر بانه لم يسلم حتى فارق الحياة. وقال عنه الرسول (ص): «هو فى ضحضاح من نار». وقد طرحت قضية اسلام ابى طالب كواحدة من الامور التى دار حولها خلاف بين الشيعة ومعارضيهم منذ القدم، ففى الوقت الذى يذهب اكثر اهل السنة الى انه مات مشركا، تصر الشيعة على اعتقادها بانه مات مسلما موحدا، وقد تطرق ابن ابى الحديد المعتزلى الى هذه المسالة فى ج (۱۴) من شرح نهج البلاغة بالتفصيل وعرضها على ضوء ادلة الفريقين، غير انه توقف واحجم عن اعطاء الراى فيها. هذا وقد كتبت ابحاث عديدة حول اسلام ابى طالب بعضها مطبوع. ولسنا هنا فى معرض اعطاء الراى فى هذه الادلة او تلك، لذا نترك الكلام فى هذه المسالة، لانها خرجت عن اطارها التاريخى واتخذت طابعا مذهبيا او كلاميا،غير ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى موقف ابى طالب المحامى ابدا عن ابن اخيه منذ بعثته وحتى السنة العاشرة للبعثة، وهى السنة التى توفى فيها ابوطالب، وهو ما تعكسه سيرة الرسول (ص) خلال تلك الفترة بشكل واضح لا غبارعليه. وبسبب هذه الحماية الشديدة والمستمرة تعرض ابوطالب مع بنى هاشم وبنى المطلب جميعا لحصار مر دام ثلاث سنين فى شعب ابى طالب، وقد اجمع اصحاب السيرة على ان حماية ابى طالب وذوده عن ابن اخيه هما اللذان حالا دون وصول قريش اليه (ص)، وقد حزن الرسول (ص) لوفاته حزنا عميقا، وعادت قريش تحاول الحاق الاذى به، فاضطر الرسول (ص) الى ان يذهب الى الطائف، وعند عودته دخل مكة بجوار مطعم بن عدى. وعلى ضوء هذا الدعم وتلك الحماية، ومع فرض عدم ايمانه، فهل يمكن ان يكون جزاء مثل هذا العم الودود الشهم ان يخلد فى ضحضاح من نار؟! اذا فما هو الفرق بينه وبين ابى لهب فى هذا المجال؟! والقول: (ان فى جهنم ضحضاحا وغمرا، وان مقام ابى طالب فى الضحضاح)، لا يحل المشكلة. ولا يمكن ان يكون جزاء من ضحى وتفانى فى سبيل الاسلام الضحضاح لا الغمر. نحن نعتقد ان الروايات التى تتحدث عن بقاء ابى طالب على شركه الى ان فارق الحياة روايات موضوعة، وضعها بنو امية لشدة عدائهم لعلى (ع) وابيه وابنائه، او وضعها بنو العباس لحسدهم وحقدهم على العلويين بما امتازوا به من فضائل عليهم. وسياتى الحديث عن موقف ابى سفيان بن حرب الذى ظل يناصب الاسلام العداء هو وابناؤه حتى فتح مكة وقتل كل من خال معاوية واخيه فى معركة بدر على يد حمزة بن عبد المطلب وعلى بن ابى طالب (ع). ولم تنته هذه العداوة حتى بعد مقتل عثمان ومطالبة معاوية بالخلافة وشهادة على (ع) فى السنة الاربعين للهجرة، بل زادتها تلك الاحداث حدة واتقادا. فقاد معاوية وبعده خلفاء بنى امية حملة واسعة لتشويه صورة على وابنائه (ع) واستمرت هذه الحملة الشرسة الى ايام خلافة عمر بن عبد العزيز. لقد كان سبق على (ع) الى الاسلام وتضحياته الجسام من اجله فى الغزوات العديدة، وكذلك حماية ابى طالب ودفاعه القوى عن ابن اخيه، من فضائل على واهل بيته (ع) التى لا يتسنى لاحد انكارها، فلم يجد بنو امية مغمزا ولا مطعنا يمكنهم من خلاله الطعن بعلى (ع) غير ادعاء عدم اسلام ابى طالب فى الوقت الذى اسلم فيه ابوسفيان والد معاوية! ومن المحتمل جدا ان يكون انصار بنى امية ودعاتهم هم الذين عملوا على اخفاء روايات اسلام ابى طالب ووضعوا مكانها الاخبار التى تتحدث عن حشره فى النار، ليمسوا من هذا الباب جلال على وابنائه بتوجيه الطعن اليهم، وقد وجد من

بين دعاة بنى امية من كان ساذجا الى الحد الذى اضحى كل اهتمامه هو نقل الروايات على ظاهرها وسندها، ولم يلتفت الى مدى انسجامها فى مضامينها، اذ كيف يبشر الرسول (ص) عمه اباطالب بالنار ويتغاضى عن تضحياته وصبره واخلاصه فى حين يامر فى معركة بدر ان لا يتعرض احد لحياة المشركين الذين لم يسبق لهم ان آذوه ويطلب احضارهم سالمين اليه؟ وحصلت القضية ذاتها فى العهد العباسى، حيث سعى بنو العباس الى ان ينسبوا الى العباس عم النبى، الذى لم يقدم شيئا مهما لصالح ابن اخيه ايام البعثة الشريفة، المزيد من الفضائل والكرامات، وعلى العكس فقد عملوا على ترويج الروايات التى من شانها المساس بمنزلة جد العلويين ابى طالب والحطمن شانه. وبناء على ذلك، فاننا نعتقد ان التعصب العائلى والحمية القبلية لم يكونا السبب الوحيد فى دفاع ابى طالب عن ابن اخيه، وانمالا بد ان يكون وراء هذا الدفاع المستميت وتلك الحماية الدائمة، التى لم تفتر ابدا، ايمان بالاسلام واعتقاد برسالته. [۲۶۲] .

السفر الى الطائف

تقع الطائف على بعد اثنى عشر فرسخا من مكة، وكانت مستوطنا لقبيلة ثقيف، من قبائل هوازن ايام الرسول (ص)، وتكثر فيها الكروم، وكان لاثرياء قريش بساتين هناك، وقد اشتهر اهلها بالثراء والمراباة. قرر الرسول (ص) السفر اليها بعد ان ضاق عليه الخناق واشتداذى قومه فى الفترة التى تلت وفاة خديجة وعمه ابى طالب، وكان يعزم على دعوة اهلها الى الاسلام عله يجد فيهم عوناعلى قريش. وقال بعضهم: «انه كان وحيدا فى هذا السفر». بينماقال آخرون: انه ذهب بمعية مولاه زيد بن حارثة. ولما انتهى رسول اللّه (ص) الى الطائف، عمد الى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف واشرافها، وكانوا ثلاثة اخوة، فجلس اليهم رسول اللّه (ص) فدعاهم الى الاسلام وافصح لهم عن رغبته فى طلب نصرتهم على من خالفه من قومه، فردوا دعوته وهم من عائلة نميرة بن عوف بن ثقيف فقام رسول‌اللّه (ص) من عندهم، قائلاـ لهم: «اذا فعلتم فاكتموا عنى». وكره رسول اللّه (ص) ان يبلغ قومه عنه، فيذئرهم [۲۶۳] ذلكعليه. فلم يفعلوا واغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، والجاوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء قريش من كان يتبعه، فعمد الى ظل حبلة [۲۶۴] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء اهل الطائف. فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة (وهما من بنى عبد شمس) وشاهدا ما الم به تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيا، يقال له (عداس) فقالا له: «خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم اذهب به الى ذلك الرجل فقل له ياكل منه». ففعل عداس، ثم اقبل به حتى وضعه بين يدى رسول اللّه (ص)، ثم قال له: «كل» فلما وضع رسول اللّه (ص) يده قال: «باسم اللّه». ثم اكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: «واللّه انهذا الكلام ما يقوله اهل هذه البلاد»! فقال له رسول اللّه: «ومنای البلاد انت يا عداس، وما دينك»؟ قال: «نصرانى، وانا رجل من اهل نينوى». [۲۶۵] فقال رسول اللّه (ص): «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»! فقال له عداس: «وما يدريك ما يونس بن متى»؟ فقال رسول اللّه: «ذاك اخى، كان نبيا وانا نبى»! فاكب عداس على رسول اللّه (ص) يقبل راسه ويديه وقدميه. قال: «يقول ابنا ربيعة احدهما لصاحبه: اما غلامك فقد افسده عليك! فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبل راس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى، ما فى الارض شىء خير من هذا، لقد اخبرنى بامر ما يعلمه الا نبى! قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فان دينك خير من دينه»! ثم ان رسول اللّه (ص) انصرف من الطائف راجعا الى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى اذا كان بنخلة [۲۶۶] قام من جوف الليلى [۲۶۷] صلى. ويقال: ان الايات التى تتحدث عن الجن وكذلك سورة الجن قد نزلت فى هذا المكان. كان سفر الرسول (ص) الى الطائف بداية مرحلة جديدة فى سياسته (ص) فى الدعوة الى الاسلام، فقد قام اولا بدعوة اقاربه وعشيرته كما امر بذلك: (وانذر عشيرتك الاقربين) فكان اكثر همه متجها الى عوائل قريش واشراف مكة، فلما لقى منهم ما لقى من الاعراض عن الاسلام والاصرار على الكفر والضلالة، وبعد ان تضاعف عليه الاذى من قومه بعد وفاة حاميه الاكبر عمه ابى طالب، بدا الرسول (ص) يخطط لدعوة القبائل العربية الاخرى الى رسالته، وبدا باقرب القبائل واكثرها قوة وثراء وهى ثقيف، غير انها رفضت دعوته لما كان لها منعلاقات اقتصادية واجتماعية وثيقة مع قريش،

ولشعورها بالخطر المحدق بالههم الاكبر (اللات)، التى كانوا يطلقون‌عليها (ربة)، من جراء هذه الدعوة، وبانه لو سقطت ربتهم فسوف تكون تبعية ثقيف لمكة وقريش مطلقة. لقد اوصدوا الابواب بوجه الرسول (ص) وقد فاتهم بذلك شرف عظيم. «وفى طريق عودته (ص) الى مكة، مر به بعض اهل مكة، فقال له رسول اللّه (ص): هل انت مبلغ عنى رسالة ارسلك بها»؟ قال: «نعم»، قال: «ائت «الاخنس بن شريق» فقل له: يقول لك محمد: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالة ربى؟ قال: فاتاه، فقال له ذلك، فقال له الاخنس: ان الحليف لا يجير على الصريح. قال: فاتى النبى (ص) فاخبره، قال: تعود. قال: نعم، قال: ائت سهيل بن عمر فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالت ربى؟ فاتاه فقال له ذلك قال: فقال ان بنى‌عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب. قال: فرجع الى النبى (ص) قال: تعود، قال: نعم، قال: ائت المطعم بن عدى، فقل له: ان محمدا يقول لك: هل انت مجيرى حتى ابلغ رسالات ربى؟ قال: نعم فليدخل، قال: فرجع الرجل اليه فاخبره، واصبح المطعم بن عدى قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو اخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه ابوجهل قال: امجير ام متابع؟ قال: بل مجير. قال: فقال: قد اجرنا من اجرت، فدخل النبى (ص) مكة». [۲۶۸] .والمهم فى هذه الرواية انها تكشف عن ان الرسول (ص) لم‌يعد يملك بعد وفاة عمه ابى طالب من يدافع عنه من انصاره، ومن له القدرة على مواجهة قريش، بما فيهم حمزة وابوبكر وعمر، الامر الذى اضطره الى طلب جوار مشرك من مشركى مكة.

الرسول يعرض دعوته على القبائل

بعد عودة الرسول (ص) من الطائف عزم على اجراء تغيير شامل فى سياسته الخاصة بالدعوة لرسالته، فقد يئس بعد سفره هذا من مكة وقريش واهل الطائف المرتبطين باهل مكة بعلاقات وثيقة جدا، وقد شكل هذا التغيير الذى من المؤكدانه حدث بامر وهداية الهية منعطفا كبيرا فى تاريخ الدعوة الاسلامية واتساع رقعة الاسلام، حيث ادى ذلك الى خروج الاسلام من دائرة مكة وانتشاره فى شبه الجزيرة العربية بصورة عامة، ومن ثم فى انحاء العالم المتحضر آنذاك. لقد كان الامر الالهى يتركز فى البداية على دعوة الاقربين الى الدين الجديد: (وانذر عشيرتك الاقربين) «الشعراء: ۲۱۴». وبعد ان اعرض هؤلاء الاقربون عن هذه النعمة الالهية‌و واجهوا صاحبها بالاذى والتنكيل وعملوا على محاربته ومحاصرته مع بنى هاشم اقتصاديا واجتماعيا فى شعب ابى‌طالب، وتجاوزوا الحدود فى ظلمه واضطهاده. بعد هذا كله لم‌يبق امامهم عذر يعتذرون به، وتمت الحجة عليهم فآن الاوان لان يكسر الاسلام هذا الطوق وينطلق خارج حدود المدينة الواحدة والقبيلة الواحدة. لقد قرر الرسول (ص) بعد عودته من الطائف دعوة القبائل الاخرى الى الاسلام. ومن الجدير بالذكر ان هناك من بين المسلمين الاوائل من كان يرجع فى انتمائه القبلى الى قبائل اخرى غير قبيلة قريش، لكنه كان يقيم فى مكة اما بالجوار او بالتحالف او بامور اخرى، وكان اسلام هؤلاء الافراد اسلاما فرديا وكان جزأ من اسلام قريش نفسها لارتباطهم بها بالتحالف او الجوار او ما الى ذلك. فاسلام ابى ذر الغفارى مثلا لا يعنى اسلام قبيلة غفار باكملها او انضمامها الى معسكر الاسلام واعلان حمايتها له والدفاع عنه. ولا ينبغى ان يفهم من هذا الكلام ان الرسول (ص) كان يخص فى دعوته القرشيين داخل مكة ولم يدع غيرهم خارجها، بل ما نريد قوله هنا ان دعوة هؤلاء الى الاسلام ان حصلت فى السابق فقد حصلت بصفة فردية ولم يخاطبهم الرسول (ص) بصفتهم ممثلين عن قبائلهم التى ينتسبون اليها. اما سفر الرسول (ص) الى الطائف ودعوته لقبيلة ثقيف، فيبدوانها كانت تندرج فى محاولاته (ص) لادخال قريش فى الاسلام دون اراقة دماء، وذلك لشدة ارتباط ثقيف بقريش وكثرة الوشائج بينهما. لم يبق امام الرسول (ص) بد من التحرك لدعوة القبائل الاخرى بعد ان يئس من الطائف واهلها. وقد اختار الرسول (ص) ان يبقى فى مكة يدعو هذه القبائل اثناء قدومها فى مواسم الحج، بدلا من الذهاب اليها، لما كان ينطوى عليه ذلك العمل من خطر جدى على حياته (ص)، اما بقاؤه فى مكة فقد كان يوفر له حماية بنى هاشم وحلفائهم. وهكذا كان الرسول (ص) يدعو هؤلاء القادمين فى مواسم الحج الى الدين الجديد، ويوصى من يسلم منهم ان يكون داعية لقومه وعشيرته بعد عودته، وبهذه الطريقة فشا امر الاسلام وانتشرت اخباره فى انحاء شبه الجزيرة العربية، وقد تحدثت كتب السيرة عن دعوة الرسول (ص) لقبائل كندة وبنى كلب وبنى حنيفة

وبنى عامر بن صعصعة وبنى عبس وغسان وبنيالمحارب وشيبان بن ثعلبة. [۲۶۹] .وقد وردت رواية فى عيون الاثر [۲۷۰] تؤيد ما ذهبنا اليه من ان الرسول (ص) توجه فى دعوته الى القبائل الاخرى بعد ان يئس من قريش، وجاء فى الرواية عن جابر بن عبداللّه الانصارى، انه قال: «كان النبى (ص) يعرض نفسه على الناس فى الموقف، ويقول: الا رجل يعرض على قومه، فان قريشا قد منعونى ان ابلغ كلام ربى». وقد ردت بعض هذه القبائل دعوة الرسول (ص) بلطف ولين، بينما جابهتها قبائل اخرى بخشونة وعنف، حتى فعلت الرعاية واللطف الالهيان فعلهما، فلبى اهل يثرب نداء الرسول (ص) ودعوه الى مدينتهم، وكان ذلك اهم منعطف فى تاريخ الدعوة الاسلامية.

پاورقی

[۱] شد مبدل اين جو چند بار عكس ماه وعكس اختر بر قرار.

[۲] الموفقيات، طبعة بغداد، ص ۳۳۱ الى ۳۳۴.

[۳] خلافته بين عامى (۹۶ الى ۹۹ه).

[۴] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ۲/ ۸، ۹.

[۵] الاغانى: ۳۳/ ۳۱.

[۶] المصدر نفسه: ص ۱۱.

[۷] مقدمة ابن خلدون: فصل (فى ان الصريح من النسبانما يوجد للمتوحشين).

[۸] مقدمة ابن خلدون: فصل (فى ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب).

[۹] الاغانى، ۱۴/ ۱۴۴.]

[۱۰] المصدر نفسه: ۲۲/ ۱۴۷.

[۱۱] نهاية الارب: ج۲.

[۱۲] سيرة ابن هشام: ۱/ ۱۲.

[۱۳] البلاذرى، فتوح البلدان، طبعة مصر، ۱۳۱۷ ه، ص۴۵۴.

[۱۴] ابن حزم، جمهرة انساب العرب: ص ۱۵.

[۱۵] سيرة ابن هشام، ۱/ ۱۱۷.

[۱۶] المصدر نفسه: ۱/ ۱۸.

[۱۷] ابن حزم، الملل والنحل، ص ۲۳۴، ۲۳۵.

[۱۸] سيرة ابن هشام، ۱/ ۸۰.

[۱۹] المسعودى، مروج الذهب، ۲/ ۱۷۵.

[۲۰] الازرقى: ص ۶۳، ۶۴.

[۲۱] ابن سعد، الطبقات: ۱/ ۳۸، سيرة ابن هشام: ۱/ ۱۳۲.

[۲۲] السهيلى، روض الانف: ۲/ ۵۳، ۵۴.

[۲۳] ابن سعد، الطبقات، ۱/ ۷۰.

[۲۴] المصدر نفسه: ۱/ ۲۳۹.

[۲۵] سيرة ابن هشام، ۱/ ۱۳۶، ۱۳۷.

[۲۶] ابن هشام، المصدر نفسه: ۱/ ۱۴۰.

[۲۷] العقد الفريد، ۳/ ۳۱۲، ۳۱۴.

[۲۸] جواد على، تاريخ العرب قبل الاسلام، ۳/ ۴۷۲.

[۲۹] جواد على، المصدر نفسه: ۳/ ۴۸۳ فما بعد.

[۳۰] الكامل فى التاريخ، ۱/ ۳۴۳، ۳۴۴، ۳۴۵.

[۳۱] سنگ وكل: كلمتان فارسيتان، معناهما: الحجروالطين.

[۳۲] البلاذرى، انساب الاشراف: ص ۵۵، ۵۶.

[۳۳] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ۱/ ۷۸.

[۳۴] البلاذرى، انساب الاشراف، ۱/ ۵۷.

[۳۵] الانساب، ۱/ ۲۶۵.

[۳۶] الازرقى، اخبار مكة: ص ۲۸۱.

[۳۷] وردت تفاصيل ذلك فى الدر المنمق ص ۸۸ ومابعدها.

[۳۸] المصدر نفسه: ص ۹۲.

[۳۹] المصدر نفسه: ص ۹۰.

[۴۰] مستشرق بلجيكى، وراهب يسوعى، شديد التعصب ضد الاسلام، ويفتقر افتقارا تاما الى النزاهة فى البحث، والامانة فى نقل النصوص وفهمها. ولد فى بلجيكا عام ۱۸۶۲ وجاء الى بيروت فى صباه وتعلم فى الكلية اليسوعية ببيروت. عمل استاذا فى (معهد الدروس الشرقية) لمادة التاريخ الاسلامى، كتب فى السيرة النبوية ما لايقل عن عشرة كتب مليئة بالافتراءات والاستنتاجات الذوقية وتعمد فى بعضها الاشارة الى مصادر ليس لها وجود. كما دافع فى كتابه (دراسات عن حكم الخليفة الاموى معاوية الاول) عن الامويين دفاعا مستميتا وبرر لهم كل افعالهم الشنيعة، وخاصة ما ارتكبه يزيد بن معاوية. راجع موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوى. (المترجم).

[۴۱] سيرة ابن هشام: ص ۶۴.

[۴۲] سيرة ابن هشام: ص ۷۱.

[۴۳] سيرة ابن هشام: ص ۱۳۸، ۱۳۹.

[۴۴] سيرة ابن هشام، ۳/ ۱۴۱.

[۴۵] الاغانى، ۲۲/ ۵۹: بنو لحيان.

[۴۶] الدر المنمق: ص ۲۷۵.

[۴۷] البلاذرى، انساب الاشراف: ص ۷۶، ابن الاثير: ص۵۸۷.

[۴۸] الاغانى، ۲۲/ ۵۴، ۷۵.

[۴۹] ابن الاثير: ۱/ ۵۹۴، النهاية فى غريب الحديث: ۱/ ۳۳۰، طبعة الدار الاسلامية بيروت.

[۵۰] من الواضح ان المؤلف يشير فى بحثه هذا الى نظرية (التطور التقدمى او التصاعدى) التى سادت فى اوروبا فى القرن التاسع عشر، ونادى بها فريق من العلماء، وحاول تطبيقها على تاريخ الاديان منهم سبنسر وتيلور دوركيم وغيرهم، حيث ذهب هذا الفريق الى ان الدين بدا فى صورة الخرافة والوثنية وان الانسان اخذ يترقى فى دينه على مدى الاجيال حتى وصل الى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرج نحو الكمال فى علومه وصناعاته، حتى زعم بعضهم ان عقيدة (الاله الاحد) عقيدة حديثة للغاية، بل قال بعضهم: انها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامى. غير ان هذه النظرية واجهت اعتراضات اساسية، وعجزت عن الاجابة على الاسئلة التى اثارتها بوجهها

النظرية المقابلة، وهى نظرية (اصالة التوحيد) او (فطرة التوحيد) التى انتصر لها جمهور من علماء الاجناس وعلماء النفس، ومن اشهرهم لانج وشريدر وبروكلمان ولرواة وكاترفاج وغيرهم. ومن الاعتراضات التى اثيرت بوجه النظرية الاولى: اولا: ان مؤرخو الاديان يعترفون بصورة صريحة ان الديانات الخاصة بالعصر الحجرى وما قبله لا تزال مجهولة لدينا جهلا تاما ولا سبيل للخوض بها الا على سبيل التكهن والرجم بالغيب، اما الاستدلال على ديانة الانسانية فى مراحلها الاولى بديانة الامم الحالية المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فانه مبنى على افتراض ان هذه الامم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل اليها البحث، وانها لم تمر بادوار متقلبة، وذلك افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذى اثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو ان فترات الركودو التقهقر التى سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وهذه بدورها قامت على انقاض مدنيات بائدة، وهكذافى ادوار تتعاقب على البشرية بحيث يصبح من العسير ان نحكم بصفة قاطعة بايهما بدات دورة الزمان، ولقد انصف العلامة هوفدنج حين قال: ((انه يبعد كل البعد ان ينجح تاريخ الاديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الانسانى.. فان التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الاولى فى موضع ما، وكل مانجده انما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلا او كثيرا حتى ان احط القبائل الهمجية التى نعرفها قد مرت بادوار شتى وتطورت تطورا بعيدا» اقتباس عن (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) عبداللّه دراز. وثانيا: ان نظرية (التطور التقدمى او التصاعدى) قائمة على افتراض ان الملكات والاحاسيس الروحية يمكن قياسها على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية، فكما ان الانسان ينتقل فى نموه البدنى من الضعف الى القوة، وفى نموه العقلى من الجهل وعدم العلم الى المعرفة والعلم، فانه كذلك على الصعيد الروحى قد بدا حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل الى العقيدة السليمة الا بعد جهد وعناء، ولكن من اين جاء هذا الافتراض؟ وما هو الدليل عليه؟ وهل ان الواقع يؤيده ام يعاكسه؟! كل هذه التساؤلات من شانها ان تزعزع الاساس الذى اقامت عليه هذه النظرية بنيانها. بعد هذا كله نتجه الى النصوص الدينية، فنجدها تذهب الى غير الجهة التى يتجه اليها ذلك المذهب التطورى، فانها اى النصوص الدينية تقرر ان (العقيدة الالهية الصحيحة) مغروسة فى ذات الانسان (فطرة اللّه التى فطر الناس عليها).. ثم تقررالايات القرآنية حقيقة اخرى وهى ان الانسان بدا حياته بالعقيدة الصحيحة، ثم طرا الانحراف والاختلاف (وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا) «يونس: ۱۹». وهنا انتهى البعض الى نظرية ثالثة تقول: ان الهدى والضلال ليسا ظاهرتين متعاقبتين فقط فى المسالة الدينية صعودا او انحدارا، بل هما ظاهرتان متعاصرتان تتواجدان فى كل امة، اذلا يخلو جيل من نفوس نقية تدرك الحقيقة، واخرى دون ذلك تخطئها وتتجه الى الخرافة والشعوذة وما الى ذلك (المترجم). وليرجع من اراد التفصيل الى كتاب (الدين.. بحوث تمهيدية لدراسة تاريخ الاديان) للدكتور عبداللّه دراز.

[۵۱] الاصنام: ص ۱۴.

[۵۲] الاصنام: ص ۲۸۰.

[۵۳] المصدر نفسه: ص ۹ الى ۲۱.

[۵۴] الاصنام: ص ۶۰، ۶۱.

[۵۵] لسان العرب، ذيل الشمس.

[۵۶] الازرقى، تاريخ مكة: ص ۱۸۹.

[۵۷] تاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۵۶.

[۵۸] الازرقى: ص ۱۳۲، لسان العرب، مادة حرر.

[۵۹] صبح الاعشى، ۱/ ۴۱۰، ۴۱۱.

[۶۰] الوكاء: الخيط الذى تشد به الصرة او الكيس وغيرهما.

[۶۱] المسير: ثوب فيه خيوط من القز والحرير ونحوه كالسيور.

[۶۲] العدنى: كل ما ينسب الى عدن من ثياب وغيرها.الاغانى:۲۲/ ۵۷.

[۶۳] دائرة المعارف بريتانيكا، ذيل اليمن.

[۶۴] البيرونى، الاثار الباقية، ص ۱۱.

[۶۵] القلمس: البحر الزخار.

[۶۶] الاثار الباقية: ص ۶۲.

[۶۷] تاريخ اليعقوبى: ج۱.

[۶۸] المحبر: ص ۱۶۱.

[۶۹] المعارف: ص ۶۲۱.

[۷۰] المنمق: ص ۵۰۶.

[۷۱] المحبر: ص ۳۴۰.

[۷۲] المحبر: ص ۳۱۰ و ۳۱۱.

[۷۳] المحبر: ص ۳۰۹.

[۷۴] المحبر: ص ۳۳۸.

[۷۵] المصدر نفسه: ص ۲۲۵.

[۷۶] المصدر نفسه: ص ۳۲۶.

[۷۷] لسان العرب، مادة سعى.

[۷۸] المحبر: ص ۳۴۰.

[۷۹] صحيح البخارى، باب النكاح، حديث رقم ۴۷۹۰.

[۸۰] المحبر: ص ۳۳۰.

[۸۱] المحبر: ص ۳۳۱.

[۸۲] لسان العرب، مادة حما.

[۸۳] تاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۵۹.

[۸۴] المصدر نفسه، المحبر: ص ۲۲۳ ۲ الى ۲۲۵.

[۸۵] صحيح البخارى (باب ثمن الكلب من كتاب البيع).

[۸۶] لسان العرب، مادة سجع.

[۸۷] لسان العرب، ذيل كهن.

[۸۸] تاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۵۸.

[۸۹] راجع المنمق ص ۱۹۶، وتاريخ اليعقوبى فيالموضع المذكور.

[۹۰] المطالعات الاسلامية: ج۱.

[۹۱] المفصل: ۱/ ۳۹ الى ۴۲.

[۹۲] روض الانف: ۲/ ۱۵۸.

[۹۳] تاريخ الطبرى، احداث سنة ۱۱ هجرية.

[۹۴] نولدكهر تاريخ ساسانيان.

[۹۵] يبدا التاريخ السلوكى من عام ۳۱۲ قبل الميلاد وليس كما ورد خطا فى حاشية مروج الذهب بانه العام ۳۲۴ قبل‌الميلاد.

[۹۶] مروج الذهب: ۲/ ۱۲.

[۹۷] روض الانف: ۲/ ۱۵۹.

[۹۸] طبقات ابن سعد: ۱/ ۶۰، ۶۱.

[۹۹] الطبقات: ۱/ ۱۱۲.

[۱۰۰] الطبقات: ۱/ ۷۳.

[۱۰۱] المعارف: ص ۵۷۵.

[۱۰۲] المنمق حريره: ص ۲۱۳.

[۱۰۳] الاغانى: ۲۲/ ۵۴.

[۱۰۴] الاغانى: ۲۲/ ۵۶.

[۱۰۵] الكامل فى التاريخ: ۱/ ۵۹۲.

[۱۰۶] الاغانى: ۲۲/ ۷۸.

[۱۰۷] المحبر، يظهر منه ذلك ص ۱۸۴ الى ۱۷۲.

[۱۰۸] المنمق: ص ۷۷۹.

[۱۰۹] المصدر نفسه: ص ۲۲۰.

[۱۱۰] الطبقات: ۱/ ۱۲۹.

[۱۱۱] الطبقات: ۱/ ۱۳۳.

[۱۱۲] اخبار مكة: ص۱۵۹.

[۱۱۳] المصدر نفسه: ص ۱۶۱.

[۱۱۴] السيرة: ۱/ ۲۰۴.

[۱۱۵] الطبقات: ص ۱۴۵.

[۱۱۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۰۵.

[۱۱۷] المصدر نفسه.

[۱۱۸] تاريخ مكة: ۱/ ۱۶۰.

[۱۱۹] المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۲.

[۱۲۰] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۹.

[۱۲۱] المصدر نفسه: ۱/ ۱۶۳.

[۱۲۲] تاريخ مكة: ۱۶۳ و ۱۶۶.

[۱۲۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۲.

[۱۲۴] الميل العربى يساوى ثلاثة آلاف ذراع.

[۱۲۵] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۱.

[۱۲۶] لسان العرب، مادة حنث.

[۱۲۷] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۵۱، ۲۵۲.

[۱۲۸] سيرة ابن هشام: رقم ۱۴۰ ص ۱۰۰.

[۱۲۹] تاريخ الطبرى: ۱/ ۱۱۴۸.

[۱۳۰] الطبرى: ۱۱۴۹- ۱۱۵۲.

[۱۳۱] سيرة ابن هشام، ۱/ ۲۵۱ الى ۲۵۴.

[۱۳۲] سيرة ابن هشام: ۲۵۲.

[۱۳۳] هذه الفقرة اسقطها ابن هشام فى سيرته (المترجم).

[۱۳۴] جاء فى رواية ابن سعد: «انى اخشى ان اكون كاهنا» وفى رواية اخرى: «انى اخشى ان يكون فى جنن» طبقاتابن سعد، ۱/ ۱۹۴، ۱۹۵.

[۱۳۵] من الواضح ان المؤلف حاول تفسير الروايات من‌خلال مقارنتها مع بعضها البعض، وبالاستعانة بما ينسجم وتلك المعانى من القرآن الكريم، وبعبارة اخرى انه بذل جهدا للوصول الى بعض النتائج من خلال الاعتماد على النصوص وحدها بعيدا عن احتمالات التشكيك بصحة مثل هذه الروايات وما يمكن ان يكون قد داخلها من تحريف وتشويه، بل وحتى دون الزام نفسه بمسبقات اعتقادية تخالف ما انتهى اليه الاستاذ المؤلف من نتائج مهمة، وربما كانت هذه المسبقات هى التى دعت ابن هشام الى اسقاط تلك الفقرة من روايته. (المترجم).

[۱۳۶] طبقات ابن سعد: ۱/ ۱۹۸.

[۱۳۷] سيرة ابن هشام، ۱/ ۲۶۴.

[۱۳۸] الطبقات: ابن سعد: القسم ۱، ص ۲۷،۲۸.

[۱۳۹] الطبرى، ص ۱۱۶۸.

[۱۴۰] الطبقات: القسم۱، ص ۱۲۲.

[۱۴۱] الطبرى: ۱/ ۱۱۶۷.

[۱۴۲] ابن هشام، ۱/ ۲۶۷، ۲۶۹.

[۱۴۳] الطبقات، ج۳، القسم۱، ص ۱۷۳.

[۱۴۴] الطبقات، ۱/ ۱۹۹.

[۱۴۵] انساب الاشراف: ص ۲۲۹.

[۱۴۶] الطبقات: ۱/ ۲۱۲.

[۱۴۷] انساب الاشراف: ص ۱۲۸.

[۱۴۸] طبقات ابن سعد، ص ۷۱، ۱۲۳.

[۱۴۹] الطبقات: ص ۸۸، ۱۲۳.

[۱۵۰] الطبقات: ۳/ ۹۸.

[۱۵۱] الطبقات: ص ۱۲۳ الى ۱۷۷.

[۱۵۲] انساب الاشراف: ص ۱۶۳.

[۱۵۳] تفسير الطبرى: ج۱۷، سورة الحج، الاية: ۵۲.

[۱۵۴] تفسير الطبرى، ج۱۷، سورة الحج، الاية: ۵۲.

[۱۵۵] انساب الاشراف: ص ۱۵۶ فما بعد.

[۱۵۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۱۵۷] انساب الاشراف: ۱/ ۱۵۸.

[۱۵۸] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۹.

[۱۵۹] انساب الاشراف: ۱/ ۱۷۶.

[۱۶۰] الطبقات ج۲، القسم۱، ص ۱۱۶.

[۱۶۱] انساب الاشراف: ۱/ ۱۷۶.

[۱۶۲] انساب الاشراف: ص ۱۷۶.

[۱۶۳] المصدر نفسه: ص ۱۸۰.

[۱۶۴] انساب الاشراف: ص ۱۸۱.

[۱۶۵] انساب الاشراف: ص ۱۸۵.

[۱۶۶] المصدر نفسه: ص ۱۸۶.

[۱۶۷] انساب الاشراف: ص ۱۸۴.

[۱۶۸] انساب الاشراف: ص ۱۸۶.

[۱۶۹] انساب الاشراف: ص ۱۹۱.

[۱۷۰] انساب الاشراف: ص ۸۹.

[۱۷۱] الطبقات: ۳/ ۲۳۴.

[۱۷۲] الطبقات: ۴/ ۲۱۴، ۲۱۵.

[۱۷۳] الجمهرة: ص ۱۸۶.

[۱۷۴] طبقات ابن سعد: ۴/ ۲۱۹ الى ۲۲۲.

[۱۷۵] الصرمة: القطعة من الابل.

[۱۷۶] الخفاء: خرقة توضع على السقاء.

[۱۷۷] سخفة الجوع: رقته وهزاله.

[۱۷۸] طبقات ابن سعد، ۴/ ۲۱۹ الى ۲۲۲.

[۱۷۹] طبقات ابن سعد، ح۲، القسم۱، ص ۲۷۸، انسابالاشراف:ص ۱۱۶.

[۱۸۰] المنمق: ص ۱۰۴.

[۱۸۱] المنمق: ص ۱۰۰، ۱۰۱.

[۱۸۲] المنمق: ص ۱۰۶.

[۱۸۳] انساب ابن حزم: ص ۱۴۴.

[۱۸۴] المحبر: ص ۱۳۹، ۱۴۰.

[۱۸۵] القرى: ما يقدم للضيف من الطعام.

[۱۸۶] سيرة ابن اسحاق، نسخة القرويين، سيرة ابن هشام:۱/ ۳۳۷ الى ۳۳۸.

[۱۸۷] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۱۸۸] الانساب، ص ۱۳۳.

[۱۸۹] تفسير الطبرى، ذيل الاية.

[۱۹۰] المنمق: ص ۴۸۸، ۴۸۹.

[۱۹۱] انساب الاشراف: ص ۱۳۴.

[۱۹۲] راجع تفسير الطبرى: ج ۲۵.

[۱۹۳] انساب الاشراف: ص ۱۴۱، المحبر: ص ۱۶۵.

[۱۹۴] انساب الاشراف: ص ۱۴۱.

[۱۹۵] الطبقات، ج۴، القسم ۱، ص ۷۰ الى ۷۲.

[۱۹۶] انساب الاشراف: ص ۱۵۱.

[۱۹۷] هكذا عرض المؤلف موقف الرسول (ص) من عقبة بن ابى المعيط، كما ورد فى النص الفارسى، وقد ظهر من‌خلال هذا العرض وكان الرسول (ص) يريد فى موقفه هذا الانتقام والثار لذاته، ورغم ان المؤلف استند فى عرضه هذا الى روايتين وردتا فى انساب الاشراف ص ۱۴۷ الى ۱۴۸غير انه لفق بين الروايتين بطريقة اسهمت الى حد ما فى ابراز ذلك العنصر الذاتى الغير معروف عن الرسول (ص)، وها نحن نورد نص الروايتين كما جاء فى انساب الاشراف (ص ۱۴۷ الى ۱۴۸): عن محمد بن عمر الواقدى، باسناده: «ان عقبة بن ابى معيط عمد الى مكتل، فجعل فيه عذرة ثم القاه على باب رسول اللّه (ص). فبصر له طليب بن عمير بن وهب بن عبد بن قصى بن كلاب وامه اروى بنت عبد المطلب فاخذ المكتل منه، وضرب به راسه، واخذ باذنيه، ونشب به عقبة، فذهب به الى امه، فقال لها: الا ترين الى ابنك قد صار غرضا دون محمد؟ فقالت: ومن اولى منه بذلك؟ هو ابن خاله، اموالنا وانفسنا دون محمد. وجعلت تقول: فان طليبا نصر ابن خاله آساه فى ذى دمه وماله فلما كان يوم بدر، اتى بعقبة اسيرا. وكان الذى اسره عبداللّه بن سلمة بن مالك العجلانى، من بلى، وعداده فى الانصار، جمح به فرسه، فاخذه. فامر رسول اللّه (ص) عاصم بن ثابت بن ابى‌الاقلح الاوسى من الانصار بضرب عنقه، فجعل عقبة يقول: ياويلتى علام اقتل يا معشر قريش! اقتل من بين هؤلاء؟ فقال رسول اللّه (ص): لعداوتك للّه ولرسوله. قال: يا محمد، منك افضل فاجعلنى كرجل ممن هاهنا من قومك وقومى. ويامحمد من للصبية؟ قال رسول اللّه (ص): النار. وكان قتله بعرق الظبية. وقال الواقدى: قتل بالصفراء. وقيل: ان رسول اللّه (ص) اسر به فصلب. فكان اول مصلوب صلب فى الاسلام». الرواية الثانية: عن عامر الشعبى: «ان رسول اللّه (ص) قال لعقبة يوم بدر: واللّه لاقتلنك. فقيل: اتقتله من بين قريش؟ قال: نعم، انه وطىء على عنقى وانا ساجد، فما رفع حتى ظننت ان عينى قد سقطتا، وجاء يوما وانا ساجد بسلى شاة فالقاه على راسى، فانا قاتله»، هذا ويلا حظ قول الرسول (ص) فى الرواية الاولى «لعداوتك للّه ورسوله» فالعداوة للّه وللرسالة هى التى تحدد موقف الرسول لا الثار والانتقام لاغراضشخصية (المترجم).

[۱۹۸] المنمق: ص ۴۸۸.

[۱۹۹] لا ينطلق الرسول (ص) فى موقفه من اعدائه عن (دوافع شخصية)، ولا اعتقد ان المؤلف يقصد ذلك رغم كون العبارة توحى بذلك (المترجم).

[۲۰۰] المنمق، ص ۴۸۸.

[۲۰۱] الانساب، ص ۱۳۹، ۱۴۰.

[۲۰۲] سيرة ابن هشام: ۲/ ۳۳.

[۲۰۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۸۶،۳۸۵.

[۲۰۴] الانساب: ص ۱۴۰.

[۲۰۵] لا ينبغى ان يفهم من عبارة المؤلف ان الامر بقتل النضر بن الحارث كان لدوافع شخصية، فهذا ما لا يمكن ان يقع بحق رسول

اللّه (ص) الذى كان على خلق عظيم والذى ارسل رحمةللعالمين. (المترجم).

[۲۰۶] المحبر: ص ۱۶۱.

[۲۰۷] المحبر: ص ۱۶۱.

[۲۰۸] الانساب: ۱۲۸.

[۲۰۹] المنمق.

[۲۱۰] سيرة ابن هشام: ۳/ ۴۶.

[۲۱۱] الانساب: ص ۱۳۱.

[۲۱۲] انساب الاشراف: ص ۱۰.

[۲۱۳] الطبقات، ۱/ ۱۹۹.

[۲۱۴] راجع تفصيل ذلك فى الطبقات: ۳/ ۲۴۳.

[۲۱۵] الطبقات، ۱/ ۲۰۰.

[۲۱۶] تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون: ص ۴۹.

[۲۱۷] الطبقات: ۱/ ۱۹۹.

[۲۱۸] لا ـ نشارك المؤلف رايه فى ان الهدف من تكثيف‌الانذار والتهديد والوعيد بيوم القيامة انما هو ردع كفار قريش‌عن غيهم وصدهم عن ارتكاب القتل والظلم والشرك والنهب وعبادة الاصنام فحسب، بل نعتقد ان السور المكية كانت لها اهداف ومقاصد ابعد من معالجة حالة انحراف مؤقتة ومحدودة، فقد كانت فى صدد معالجة حالة انحراف عامة وشاملة كان الناس يعيشونها، وتتجسد فى قضيتين اساسيتين هما: الشرك، ونكران الاخرة ويوم القيامة، ولم تكن هذه المسالة موضع اهتمام الرسالة الاسلامية فقط بل هى محور اهتمام الرسالات جميعا. (انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا، فعصى فرعون الرسول فاخذنه اخذا وبيلا، فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) «المزمل: ۱۵ – ۱۷». فقد اراد القرآن الكريم عبر هذه السور ايجاد نظام جديد من شانه ان يهذب الانسان اى انسان كان ضعيفا او قويا ويحرره من قيود الذات واغلال الشرك واثقال الارض. بعبارة اخرى حاول القرآن الكريم معالجة حالة انسانيةعامة، وليست مقصورة باهل الجاهلية فقط. (المترجم).

[۲۱۹] لقد تقدم من الاستاذ المؤلف ما يخالف ذلك فقد قال‌فى ص ۶۵: «ان اعمال السلب والتجاوز والاعتداء كان يرفضها الوجدان العام للعرب منذ القدم، ولا يقرها الضمير الباطنى لهم، لهذا كانوا يمتنعون عنها عند دخولهم حالات دينية كالاحرام». وفى معرض حديثه عن مراعاة الرسول (ص) لقومه وعدم استفزازه لهم حيث قال فى ص ۹۹: «ويبدو انه (اى‌الرسول (ص» كان يحترم طقوسهم الدينية الى الحد الذى لايجعله مرتبطا باخلاقهم وآدابهم الفاسدة». ثم يضيف: «فان‌تلك الاخلاق القبيحة، قبيحة فى نظرهم ايضا، من قبيل ارتكاب القتل والزنا والسرقة وقطع الطريق». هذا اضافة الى ان التاريخ حدثنا عن وجود بعض القيم التى كانت تحترمها العرب على جاهليتها وتسعى للالتزام بها، بينما كان هناك افعال اخرى ترفضها ولا تقرها وهى قبيحة ومدانة فى وجدانها العام وضميرها الباطن، وان اقترفها الكثيرون منهم. مثال ذلك ادانة الظلم واغاثة المظلوم، فقد جاء فى اسباب حلف الفضول: «ان رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدى الاحلاف.. فابوا ان يعينوه على العاص وزجروه، فلما راى الزبيدى الشر اوفى على ابى قبيس‌عند طلوع الشمس وقريش فى انديتهم حول الكعبة فصاح بالعلى صوته: يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر ان الحرام لمن تمت كرامته ولا ـ حرام لثوب الفاجر الغدر فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا متروك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة.. وتعاقدوا وتحالفوا على ان ترد الفضول الى اهلها وان لا يغزو ظالم مظلوما، وكان حلف الفضول. كما نرى احترام

قريش لبعض القيم من خلال حديث خديجة مع رسول اللّه (ص) يوم نزل عليه الوحى حيث قالت: «اعيذك باللّه يا ابا القاسم من ذلك، ما كان اللّه عز وجل ليفعل بك ذلك، مع ما اعلم من صدق حديثك، وعظم امانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك». سيرة ابن اسحاق نسخة بقرويين ص۱۳۲، وحديث خديجة هذا يدل على ان هناك قيما كانت تحترمها العرب وتعدها من الفضائل كالتى ذكرتها خديجة (المترجم).

[۲۲۰] الطبرى: ۲/ ۲۱۸، ۲۱۹.

[۲۲۱] الطبرى: ص ۲۱۹، ۲۲۰.

[۲۲۲] المصدر نفسه: ص ۲۲۱.

[۲۲۳] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۲.

[۲۲۴] مونتغمرى وات، محمد فى مكة: ص ۱۷۹، ۱۸۱، ۱۸۰.

[۲۲۵] الطبقات: ۴/ ۹۶.

[۲۲۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۳۴۴ الى ۳۴۶.

[۲۲۷] الطبقات: ۱/ ۱۳۶ الى ۱۳۸.

[۲۲۸] الطبقات: ج۳، القسم۱، ص ۱۰۷.

[۲۲۹] الطبقات: ۳/ ۱۶۱.

[۲۳۰] المصدر نفسه: ۳/ ۳۹۳.

[۲۳۱] محمد فى مكة: ص ۱۱۱.

[۲۳۲] انساب الاشراف: ۱/ ۱۹۸.

[۲۳۳] طبقات ابن سعد: ج۱، القسم۱، ص ۱۳۸.

[۲۳۴] كتاب التفسير، سورة النجم.

[۲۳۵] بحار الانوار:۶/ ۲۱۰ (الطبعة الحجرية).

[۲۳۶] الاصنام: ص ۱۹.

[۲۳۷] ورد اسمه فى طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۴، كالتالى:ابوسلمة بن عبد الاسد المخزومى (المترجم).

[۲۳۸] ضوى: اى انضم واوى.

[۲۳۹] خضراؤهم: شجرتهم التى منها تفرعوا.

[۲۴۰] شيوم: آمنون.

[۲۴۱] الدبر: الجبل، بلغة الحبشة.

[۲۴۲] تهذيب سيرة ابن هشام (عبد السلام هارون): ص ۶۱ الى۶۳.

[۲۴۳] الاغانى:۹/ ۵۵، وما بعدها، طبعة دار الكتب.

[۲۴۴] سيرة ابن هشام: ۲/ ۳ الى ۸.

[۲۴۵] يبدو انه كان قرب دار الارقم المجاورة للصفا، والتى حولها الرسول (ص) الى منطلق لدعوته المباركة.

[۲۴۶] سيرة ابن هشام، (تهذيب عبد السلام هارون): ص۵۳.

[۲۴۷] الهينمة: الصوت الخفى الذى لا يفهم.

[۲۴۸] الحجزة: موضع شد الازار.

[۲۴۹] سيرة ابن هشام، (تهذيب عبد السلام هارون): ص ۶۴ الى ۶۶.

[۲۵۰] تهذيب سيرة ابن هشام (تهذيب عبد السلام هارون):ص۶۴.

[۲۵۱] معجم البلدان: ۳/ ۲۹۴.

[۲۵۲] الكامل فى التاريخ: ۱/ ۶۰۴.

[۲۵۳] الكامل فى التاريخ: ۱/ ۶۰۴.

[۲۵۴] انساب الاشراف: ۱/ ۲۳۴، سيرة ابن اسحاق، الرباط، ص ۱۴۰.

[۲۵۵] طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۹.

[۲۵۶] سيرة ابن هشام: ۱/ ۱۴۲، ۱۴۳.

[۲۵۷] سيرة ابن هشام: ۱/ ۲۸۷.

[۲۵۸] المصدر نفسه: ۱/ ۲۹۶.

[۲۵۹] طبقات ابن سعد: ۱/ ۲۰۹، ۲۱۰.

[۲۶۰] انساب الاشراف: ۱/ ۲۳۶.

[۲۶۱] سيرة ابن اسحاق: ص ۲۲۰، ۲۲۳.

[۲۶۲] صدرت بحوث ودراسات كثيرة حول ايمان ابى‌طالب، منهاما صدر اخيرا بعنوان (ابو طالب مؤمن قريش) للشيخعبداللّه الخنزى (المترجم).

[۲۶۳] يذئرهم: يثيرهم ويجرئهم.

[۲۶۴] الحبلة: شجرة العنب او قضبانها.

[۲۶۵] مدينة فى شمال العراق.

[۲۶۶] احد واديين على ليلة من مكة، يقال لاحدهما نخلة شامية وللاخر نخلة يمانية.

[۲۶۷] سيرة ابن هشام: (تهذيب عبد السلام هارون): ص۶۳.

[۲۶۸] تاريخ الطبرى: ۲/ ۲۳۱.

[۲۶۹] عيون الاثر: ۱/ ۱۵۳.

[۲۷۰] المصدر نفسه: ۱/ ۱۵۲.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائمیّة "للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/ "بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹